إقرار

أنا الموقع أدناه مقدم الرسالة التي تحمل العنوان:

رسائل القاضي الفاضل السياسية في عهد صلاح الدين الأيوبي

(٥٦٤هـ-٥٨٩هـ/١١٦٩-١١٩٣م) تحقيق ودراسة

أقر بأن ما اشتملت عليه هذه الرسالة إنما هي نتاج جهدي الخاص، باستثناء ما تمت الإشارة إليه حيثما ورد، وإن هذه الرسالة ككل، أو أي جزء منها لم يقدم من قبل لنيل درجة أو لقب علمي أو بحثي لدى أية مؤسسة تعليمية أو بحثية أخرى.

DECLARATION

The work provided in this thesis, unless otherwise referenced, is the researcher's own work, and has not been submitted elsewhere for any other degree or qualification

Student's name:	اسم الطالب: معالي عبد السلام إنعام الحلبي
Signature:	التوقيع: معالي الحلبي
Date:	التاريخ: ٢٠١٣/٧/٢٤م

الجامعـة الإسـلامية – غـزة
عمـــادة الدراســـات العليـــا
كليــــــــــــــــة الآداب
قســـــــم التـــــــاريخ



رسائل القاضي الفاضل السياسية في عهد صلاح الدين الأيوبي (564–589هـ /1169–1193م)

تحقيق ودراسة

Alqadi Al fadil Letters of The Virtuous Judge in time of Salahuddin Al Ayyubi

Study and Investigation

إعداد الباحثة
معالي عبد السلام الحلبي

إشراف
د. سامي حمدان أبو زهري

قدم هذا البحث استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في التاريخ

1434هـ–2013م



الجامعة الإسلامية – غزة
The Islamic University - Gaza



عمادة الدراسات العليا
هاتف داخلي: 1150

الرقم Ref ج س غ/35/
التاريخ Date 2013/06/24

نتيجة الحكم على أطروحة ماجستير

بناءً على موافقة عمادة الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية بغزة على تشكيل لجنة الحكم على أطروحة الباحثة/ **معالي عبدالسلام إنعام الحلبي** لنيل درجة الماجستير في **كلية *الآداب*/ قسم التاريخ** وموضوعها:

رسائل القاضي الفاضل السياسية في عهد صلاح الدين الأيوبي

(564-589هـ/1169 -1193م) تحقيق ودراسة

وبعد المناقشة العلنية التي تمت اليوم الاثنين 15 شعبان 1434هـ، الموافق 2013/06/24م الساعة الحادية عشرة صباحاً بمبنى اللحيدان، اجتمعت لجنة الحكم على الأطروحة والمكونة من:

د. سامي حمدان أبو زهري	**مشرفاً ورئيساً**	....
أ.د. خالد يونس الخالدي	**مناقشاً داخلياً**	....
د. حسن إبراهيم المسحال	**مناقشاً خارجياً**	....

وبعد المداولة أوصت اللجنة بمنح الباحثة درجة الماجستير في **كلية *الآداب*/قسم التاريخ.**

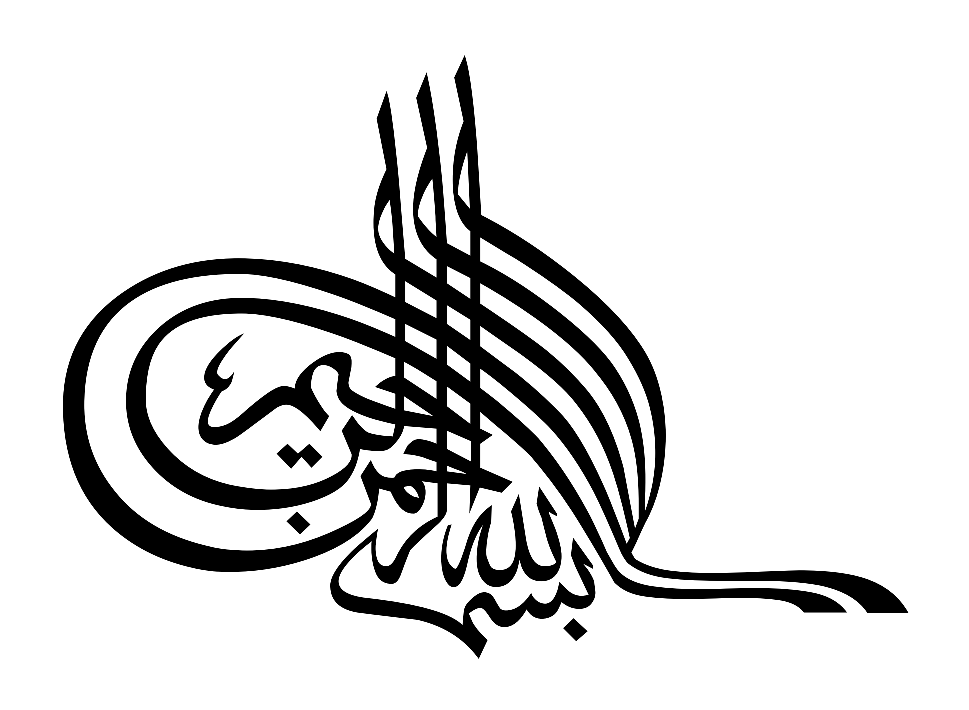
واللجنة إذ تمنحها هذه الدرجة فإنها توصيها بتقوى الله ولزوم طاعته وأن تسخر علمها في خدمة دينها ووطنها.

والله ولي التوفيق ،،،

عميد الدراسات العليا

أ.د. فؤاد علي العاجز

P.O. Box 108, Rimal, Gaza, Palestine fax: +970 (8) 286 0800 فاكس Tel: +970 (8) 286 0700 هاتف ص.ب. 108 الرمال. غزة. فلسطين
public@iugaza.edu.ps www.iugaza.edu.ps


بسم الله الرحمن الرحيم

الإهـداء

إلى زوجي الغالي

إلى والديَّ الكرام أدام الله في عمرهما

إلى والدة زوجي الغالية

إلى والد زوجي الغالي

إلى فلذات كبدي : خلود، وسهر ، ويحيي

إلى إخواني وأخواتي الأحباء

إلى كل من أحبهم ووقفوا بجانبي لإتمام هذا البحث

إلى أسرانا البواسل في سجون الإحتلال، ولعل الفرج قريب إن شاء الله

الباحثة

معالي الحلبي

شكر وتقدير

أشكر الله العظيم رب العرش العظيم الذي امتن عليّ بمواصلة درب العلم والعلماء، وأحمده سبحانه حمد الشاكرين؛ إذ هيأ لي السبل وذلل لي الصعاب.

كما أتقدم بجزيل الشكر والتقدير إلى كل من ساعدني في إتمام هذا البحث، وفي مقدمتهم الدكتور الفاضل "سامي حمدان أبو زهري" الذي تكرم بالإشراف على البحث، ووفر لي الكثير من وقته وجهده ، ولم يبخل عليّ بمعلومة إلا وقدمها بكل كرم.

كما أشكر كل أساتذتي في قسم التاريخ والآثار، لما قدموه لي من نصيحة ومساعدة، وأشكر كل العاملين في مكتبة الجامعة الإسلامية لمساعدتي في الحصول على المصادر والمراجع اللازمة للبحث.

وأتقدم بجزيل الشكر إلى لأستاذ رامز نسمان الذي عمل على طباعة الرسالة وإخراجها على ما هي عليه.

وما توفيقي إلا من الله تعالى

الباحثة

معالي الحلبي

فهرس المحتويات

المقدمة

تمثل تجربة صلاح الدين الأيوبي في القيادة والوحدة والتحرير إحدى التجارب الرائدة في تاريخ الأمة، التي تحتاج إلى مزيد من الدراسة باستمرار؛ لإستلهام العبر والعظات منها، والاستفادة منها في واقع الأمة، وخاصةً الشعب الفلسطيني الذي يعاني من الاحتلال الصهيوني، الذي استوطن أرض فلسطين وبعض الأجزاء العربية الأخرى، في مشابهةٍ كبيرة للاستيطان الصليبي لأرض فلسطين، وغيرها من بلاد الشام، وقد كان لصلاح الدين الشرف في حمل لواء المقاومة والتحرير لأجزاء واسعة من بلاد الشام، كان أبرزها وأهمها بيت المقدس.

إنَّ دراسة هذه التجربة تحتاج إلى توفر المصادر العلمية اللازمة، وخاصةً تلك التي كانت معاصرة وشاهدة على الحدث، وقد توفر العديد من الدراسات المعاصرة لهذه التجربة، والتي ألفها مؤرخون شاركوا في صنع هذه الأحداث، أو كانوا شهوداً عليها، مثل : ابن شداد، والعماد الكاتب الأصفهاني، وابن الأثير، وكان القاضي الفاضل من حيث الأهمية في مقدمة هؤلاء، فقد كان وزيراً لصلاح الدين الأيوبي، الذي كان لا يُقدم على خطوة إلا استشاره فيها، وقد اعتمد عليه في تدبير دولته، وتجهيز جيوشه، وتأمين رعاياه، كما اعتمد عليه في مفاوضاته السياسية، وفي حروبه مع الصليبيين، وكتب خلال ذلك الكثير من رسائل صلاح الدين الموجهة إلى الخليفة العباسي، أو الأمراء وغيرهم.

وهو ما يؤكد على أهمية رسائل القاضي الفاضل، وأهمية جمعها وتوثيقها، باعتبارها من أوثق المصادر المتعلقة بتلك المرحلة، ومن هنا تأتي أهمية هذا البحث الذي يهدف إلى :

1- ضرورة جمع رسائل القاضي الفاضل وتحقيقها باعتبارها سجلاً تاريخياً موثوقاً للحروب الصليبية، ولسيرة صلاح الدين.
2- حفظ هذه المادة التاريخية، وإبرازها، وتسهيل حصول الباحثين على المعلومات المتعلقة بتلك المرحلة، من خلال هذه الرسائل المجموعة والمحققة، وتشجيعهم على البحث في تلك المرحلة.
3- تخليد اسم القاضي الفاضل من خلال هذا البحث تقديراً لشخصيته، ومكانته.
4- بيان مكانة القاضي الفاضل عند صلاح الدين، ودوره في دعمه، وتشجيعه في جهاده ضد الصليبيين.

ورغم أهمية رسائل القاضي الفاضل فقد بقيت إما متناثرة في بطون المصادر الأخرى، أو في عدد من المخطوطات النادرة المختصة برسائل القاضي الفاضل التي حُقق بعضها، ولم يُحقق

البعض الآخر، وكان معظم الرسائل مما حُقق هي رسائل أدبية بعيدة عن اختصاص هذا البحث في الرسائل السياسية.

وقد قمت بجمع الرسائل السياسية المتناثرة في المخطوطات المتعلقة برسائل القاضي الفاضل، أو المصادر الأخرى، وواجهت خلال ذلك صعوبة بالغة؛ لأن المخطوطات كُتبت بخطٍ معقد ورديء يصعب فهمه، واضطررت لتحويلها لخط النسخ العادي بعد جهدٍ كبير، كما أنَّ أسلوب القاضي الفاضل هو أسلوب أدبي عالي المستوى، يغلب عليه السجع والمحسنات البديعية، مما يجعل فهمه والتعامل معه هو أمر في غاية الصعوبة.

وقد تم تقسيم هذا البحث إلى ثلاثة فصول، تناول الفصل الأول حياة القاضي الفاضل ومكانته العلمية، وأما الثاني فقد تطرق إلى رسائل القاضي الفاضل حول توحيد صلاح الدين مصر والشام والموصل، وأما الفصل الثالث فقد تضمن الحديث عن رسائل القاضي الفاضل حول معارك صلاح الدين مع الصليبيين.

وختاماً فإني أدعو الله تعالى أن يتقبل مني هذا الجهد وأن ينفع به المسلمين، وطلبة العلم.

منهجية التحقيق

وقد اعتمدت في عملية التحقيق على ما يأتي :

1- جمع مراسلات القاضي الفاضل السياسية من مختلف المصادر والمخطوطات التي توصلت إليها.

2- توزيع المراسلات على المبحثين الثاني والثالث حسب الموضوع.

3- ترتيب المراسلات في كل مبحث ترتيباً زمنياً.

4- وضع رقم تسلسلي لهذه المراسلات.

5- اختيار عنوان مناسب لكل كتاب من هذه المراسلات حسب المضمون.

6- الترجمة والتعريف بالأسماء الواردة في المراسلات سواء كانت أسماء أشخاص، او بلاد.

7- شرح الألفاظ الصعبة ما أمكن.

8- تحديد الزمن الذي كُتبت فيه هذه المراسلات ووقعت فيه الأحداث التي تُشير إليها، فإن كان توقيت الحدث متفقاً مع توقيت إرسال الرسالة اكتفيت بذكر السنة في عنوان الكتاب، وإن كان مختلفاً وهذا قليلاً ما يحدث أوردت الأمرين.

9- عند ورود الكتاب في أكثر من مصدر أجريت التالي :

أ- إعطاء كل مصدر رمزاً ثابتاً للإشارة إليه في الحواشي وهذه الرموز على النحو الآتي:

الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية. (أ)

صبح الأعشى في صناعة الإنشا. (ب)

مفرج الكروب في أخبار بني أيوب. (ج)

الدُّر النظيم من ترسل عبد الرحيم. (د)

مكاتبات من الترسل. (هـ)

كتاب فيه من كلام الفاضل. (و)

ب- قمت بالمقارنة بين مختلف النسخ.

ت- عند ورود زيادة في مصدر أو أكثر عن بقية المصادر، وضعت الزيادة بين قوسين وأشرت إلى ذلك في الحواشي.

ث- عند ورود ألفاظ مختلفة في النسخ رجحت اللفظة المناسبة للسياق، وأثبتها في المتن وأشرت إلى الألفاظ الأخرى في الحواشي.

ج- قمت بشرح المناسبة التي أُرسل فيها الكتاب، أو الحدث الذي يتضمنه، وذلك في الحواشي لجميع الرسائل التي تضمنها هذا البحث.

ح- الإشارة إلى الملاحظات البارزة في الكتب ما أمكن، والتعليق عليها.

دراسة تحليلية لأهم المصادر

اعتمدت الدراسة على مجموعة من المصادر التاريخية التي تضمنت رسائل سياسية للقاضي الفاضل، وقد كان أصحابها إما معاصرين للعصر الأيوبي، وإما ممن جاؤوا في العصور التالية، ومن أشهر هذه المصادر :

1- أبو شامة (ت 665هـ/1267م) :

شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم بن عثمان بن أبي بكر بن عباس بن محمد أبو القاسم المقدسي الأصل، الدمشقي المولد والنشأة والوفاة[1]، وُلد بدمشق سنة 599هـ/1203م، وعرف بأبي شامة لوجود شامة كبيرة فوق حاجبه الأيسر[2]. وأصل جده أبي بكر من بيت المقدس، وكان فقيهاً شافعياً، ختم القرآن الكريم وهو ابن عشر سنوات، وأتقن فن القراءة، وعرف القراءات السبع وهو في سن الستة عشر عاماً[3]، تتلمذ على يد عدد من شيوخ، وهم على مستوى رفيع من العلم، المعرفة في مجال الدين، واللغة، والأدب، والتاريخ، ومنهم علم الدين السخاوي الذي أخذ عنه أبو شامة القراءات السبع[4]، والشيخ موفق الدين بن عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي، وغيرهم من علماء عصرهم في دمشق، أو من العلماء المقيمين فيها[5].

توفي قي التاسع عشر من رمضان سنة 665هـ/1267م، ودفن بباب الفراديس الواقعة في دمشق[6].

له مؤلفات عديدة من أهمها : اختصار تاريخ دمشق لابن عساكر في خمسة عشر مجلداً، ومختصر تاريخ بغداد، وكشف حال بني عبيد، وألَّف كتاب البسملة في مجلدٍ كبير، وشرح الشاطبية، ونظم مفصل الزمخشري[7]، كتاب عيون الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، وكتاب تراجم أهم رجال القرنين السادس والسابع المعروف "الذيل على الروضتين"[8].

---

(1) ابن العماد : شذرات الذهب، ج5، ص318؛ الدمشقي : الدارس، ج1، ص 18-19.

(2) السبكي : طبقات الشافعية، ج8، ص165- 167.

(3) اليافعي : مرآن الجنان، ج4، ص164.

(4) ابن العماد : شذرات الذهب، ج5، ص318.

(5) المصدر نفسه، ج5، ص318.

(6) الدمشقي : الدارس، ج1، ص18.

(7) اليافعي : مرآة الجنان، ج4، ص164، ابن العماد : شذرات الذهب، ج5، ص 318.

(8) السبكي : طبقات الشافعية، ج8، ص163.

ومن أهم الكتب التي أفادت الدراسة : **كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية** فقد تضمن عدداً كبيراً من رسائل القاضي الفاضل.

ويُعد من كتب التاريخ المحلي والإقليمي، وصُنف حسب طريقة الحوليات بدأها سنة 548هـ/1153م، وأنهاها بأحداث سنة 589هـ/1193م، وهي سنة وفاة صلاح الدين الأيوبي[1]. وتحدث فيه عن سيرة نور الدين محمود وعن سيرة صلاح الدين، وعن أهم الأحداث والوقائع التي جرت في عهدهما. ويحتل كتاب الروضتين منزلة مرموقة كمصدر موثوق لقرب مؤلفه من الفترة الزمنية التي ألف بها، واعتماده على مصنفات المؤرخين الذين عاشوا في قلب الأحداث، حفظ أبو شامة في كتابه كثيراً من روايات البرق الشامي للعماد الأصفهاني المفقود أغلب أجزائه، وروايات المؤرخ ابن أبي طيء الشيعي، وأهم ما أفاد الدراسة الكتب والمناشير التي كان القاضي الفاضل باسم صلاح الدين، أو رسائل متبادلة بينه وبين صلاح الدين.

جاء كتاب الروضتين في تاريخ الدولتين في خمسة أجزاء، لكنه أفاد الدراسة في أجزائه الثاني والثالث والرابع، فقد تضمنت تلك الأجزاء عدداً كبيراً من الرسائل السياسية للقاضي الفاضل التي خدمت جميع فصول الدراسة.

2- محيي الدين بن عبد الظاهر(ت 692هـ/1292م) :

هو محي الدين أبو الفضل عبد الله بن رشيد الدين بن عبد الظاهر بن نشوان بن نجدة السعدي المصري، ولد بالقاهرة سنة 620هـ/1223م[2]، ولُقب بشيخ أهل الترسل، سلك الطريق الفاضلية في إنشائه، وكان بارع الكتابة في قلم الرقاع، كاتباً ناظماً ناثراً[3]، قاضي مصري، وصاحب ديوان الإنشاء بالدولة المملوكية[4]، وقد توفي بالقاهرة سنة 692هـ/1292م[5].

له مؤلفات عديدة منها : الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، وتشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، وتمام الحمائم[6].

---

(1) صلاح الدين الأيوبي : هو يوسف بن أيوب بن شاذي، ولد في تكريت سنة 532هـ/ 1137م، يرجع أصله إلى بلدة دوين، وهي بلدة من آخر بلاد أذربيجان، اتصف بجملة من الصفات، والأخلاق العالية، كان حسن العقيدة، محافظاً على الصلوات الخمس في أوائل أوقاتها، جاهد الفرنج حتى آخر رمقٍ فيه. ابن شداد : النوادر، ص55- 57.

(2) السيوطي : بغية الوعاة، ج2، ص 97.

(3) الصفدي : الوافي، ج 5، ص411.

(4) الكتبي : فوات الوفيات، ج2، ص 179.

(5) الصفدي : الوافي بالوفيات، ج5، ص410.

(6) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة، ج8، ص38.

ومؤلفه الذي أفاد الدراسة هو "**الدر النظيم من ترسل عبد الرحيم**" وهو عبارة عن مجموعة من رسائل القاضي الفاضل عددها ست وعشرون رسالة تتضمن كتباً متنوعة بين ديوانية تتناول شؤون الدولة، وغير ديوانية تتناول الشكر والتهنئة والتعزية؛ قام بتحقيق تلك الرسائل الدكتور أحمد بدوي، وتمت الاستفادة من الرسائل التي تتناول شؤون الدولة في الدراسة وهي قليلة في هذا الكتاب.

3- ابن واصل (ت 697هـ/1298م) :

جمال الدين أبو عبد الله محمد بن سالم بن نصر الله[1]، وُلد بحماة سنة 604هـ/1208م، وتلقى بها علومه الأولى، ثم رحل في طلب العلم إلى دمشق، وحلب، وبيت المقدس، والقاهرة، وبغداد، ومكة، والمدينة، ونبغ في علوم كثيرة منها علم المنطق والهندسة، وأصول الدين، الفقه الإسلامي، وعلم الهيئة، والتاريخ، أقام في مصر مدة طويلة، وعاصر الحملات الصليبية، سقوط الدولة الأيوبية، وقيام الدولة المملوكية، اتصل بالملك الظاهر بيبرس، فأرسله في سفارةٍ عنه إلى ملك صقلية، وهناك صنَّف رسالته الأنبرورية في المنطق، وتسمى نخبة الفكر، ولمَّا عاد خُلع عليه لقب قاضي القضاة وشيخ الشيوخ بحماة.[2]

توفي في حماة يوم الجمعة الثاني والعشرين من شوال سنة 697هـ/1298م.

وله مؤلفات عديدة منها : التاريخ الصالحي، وتجريد الأغاني، وهداية الألباب في المنطق، وشرح الموجز، وشرح قصيدة ابن الحاجب في العَروض، ومختصر الأدوية لابن البيطار[3].

ويُعَد كتابه "**مفرج الكروب في أخبار بني أيوب**" من المصادر العربية المهمة التي اعتمدت عليها الدراسة، حيث تناول تاريخ الدولة الأيوبية، وذكر تفاصيل مهمة ودقيقة عنها. ونقل العديد من روايات القاضي الفاضل[4]، حيث استفادت الدراسة من الجزء الثاني لكتابه، الذي ضم العديد من الرسائل السياسية.

4- جمال الدين ابن نباتة (ت 768هـ/1366م) :

وهو محمد بن محمد بن محمد بن الحسن الجذامي الفارقي المصري أبو بكر جمال الدين، شاعر عصره، وأحد الكتاب المترسلين العلماء بالأدب، أصله من ميافارقين، ولد في القاهرة سنة 686هـ/1287م، وتوفي فيها سنة 768هـ/1366م، وهو من ذرية الخطيب عبد الرحيم بن محمد ابن

---

(1) الصفدي : الوافي بالوفيات، ج7، ص443.

(2) ابن العماد : شذرات الذهب، ج5، ص438.

(3) الزركلي : الأعلام، ج6، ص133.

(4) ابن واصل : مفرج الكروب، ج1، ص4. (حاشية المحقق)

نباتة، سكن الشام سنة 715هـ/1315م، وولي نظارة كنيسة القيامة بالقدس أيام زيارة النصارى لها فكان يتوجه فيباشر ذلك ويعود. رجع إلى القاهرة سنة 761هـ/1360م، وكان بها صاحب سر الناصر حسن[1].

له مؤلفات عديدة منها : ديوان ابن نباتة، وسرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون، ومطلع الفوائد، والمختار من شعر ابن الرومي[2].

ومن مؤلفاته المهمة التي أفادت الدراسة كتاب "**كتاب فيه من كلام القاضي الفاضل**" وهو عبارة عن مخطوطة قديمة يقارب عمرها السبعمائة سنة، وقام بنسخها جمال الدين ابن نباتة بعد وفاة القاضي الفاضل بما يقارب المائة عام، قام بتحقيقها إلياس مخلوف، حيث عثر على النسخة الأصلية للمخطوط من مكتبة الجامعة الأمريكية ببيروت، وتتألف هذه المخطوطة من رسائل مختلفة كان قد كتبها القاضي الفاضل في عهد صلاح الدين الأيوبي إلى الخليفة والملوك والأمراء، عندما كان رئيس ديوان الإنشاء الصلاحي، قام المحقق بدراسة المخطوطة تحت عنوان "تحقيق مجموعة من رسائل القاضي الفاضل، القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني"، وهي رسالة غير منشورة تقدم بها المحقق إلى الدائرة العربية في الجامعة الأمريكية في بيروت عام 1967م، لكنه لم يقسم رسالته إلى فصول أو أبواب، ولم يتناول الرسائل حسب التسلسل التاريخي لها، وكانت عبارة عن رسائل متنوعة بين سياسية، وأدبية، بالإضافة إلى أنها ضمت عدداً من الأدعية، التي كان يكتبها القاضي الفاضل، وتم اختيار الرسائل السياسية التي تخص موضوع الدراسة، حيث تم فرزها وتوزيعها على أماكنها من فصول الدراسة.

5- القلقشندي (821 هـ/1418م) :

أحمد بن علي بن أحمد بن عبد الله، الشهاب بن الجمال بن أبي اليمن القلقشندي، القاهري الشافعي، وُلد سنة 756هـ/1355م[3]، ينتسب إلى قبيلة بدر بن فزارة التي كانت تقطن في بلدة قلقشندة[4].

درس علوم اللغة بشكلٍ أساسي، فأتقن النحو، والأدب، والنثر، والكتابة، إضافة إلى الفقه الشافعي، عمل في الإسكندرية ثم ذهب إلى القاهرة حيث عمل قاضياً شافعياً، ثم التحق بالعمل في ديوان الإنشاء سنة 791هـ/1388م[5].

---

(1) الزركلي : الأعلام، ج7، ص 38.

(2) المرجع نفسه، ج7، ص 38.

(3) ابن العماد : شذرات الذهب، ج7، ص149.

(4) قلقشندة : بلدة تقع في محافظة القليوبية في مصر، ووردت عند ياقوت الحموي بقرقشندة. ياقوت : معجم البلدان، ج4، ص 372.

(5) ابن العماد : شذرات الذهب، ج7، ص149.

له مؤلفات عديدة ومنها : حلية الفضل، وزينة الكرم في المفاخرة بين السيف والقلم، قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان، ضوء الصبح المسفر[1].

ومن أشهر مؤلفاته التي أفادت الدراسة "**صبح الأعشى في صناعة الإنشاء**"، وهو كتاب طويل يقع في أربعة عشر جزءاً، وفيه مواد على جانب كبير من الأهمية، وهو يعطي النموذج الأمثل للمؤرخ المدقق، ويقدم معلومات قيمة في كثير من العلوم، فالكتاب موسوعة علمية في التاريخ والجغرافيا، والسياسة والأدب، والعلوم الاجتماعية وجمع فيهم جمعاً كثيراً مفيداً، وأهم أجزائه التي تناولت موضوع الدراسة الجزء السادس، والسابع، والعاشر، والثالث عشر، حيث قامت الباحثة بفرز رسائل القاضي الفاضل السياسية التي أفادت الدراسة بشكلٍ خاص في فصلها الثالث.

6- إسماعيل بن محمد (لم أعثر له على ترجمة) :

قام إسماعيل بن محمد بنسخ مخطوطة كتبها القاضي الفاضل وتحمل اسم "مكاتبات من الترسل" التي تضم عدداً كبيراً من رسائل القاضي الفاضل بلغ عددها مائتين وأربع عشر رسالة متنوعة بين سياسية وأخوانية وديوانية وأخرى متفرقة. بلغت عدد ورقات المخطوط مائتين وأربعاً وتسعين ورقة وكل ورقة تتكون من ثلاثة وعشرين سطراً.

ومما يلاحظ في هذه المخطوطة أن الناسخ لم يراع التسلسل الزمني التاريخي للأحداث، بالإضافة إلى أن خط الناسخ معقد وصعب القراءة، وبالرغم من ذلك، فقد أفادت المخطوطة الدراسةَ إفادةً كبيرة خاصةً فيما يتعلق بالرسائل، التي أكدت على اهتمام صلاح الدين بتوحيد جهود المسلمين، مثل الرسائل التي تتناول موضوع فتوحات حلب، ودمشق، وآمد، بالإضافة إلى الرسائل التي تتناول موضوع جهاد صلاح الدين ضد الفرنج.

---

(1) الزركلي : الأعلام، ج1، ص 177.

الفصل الأول

حياة القاضي الفاضل ومكانته

أولاً : نسبه :

هو أبو علي عبد الرحيم بن علي بن القاضي الأشرف بهاء الدين أبي المجد علب بن القاضي السعيد أبي محمد الحسن بن الحسن بن أحمد بن المفرج[(1)]بن أحمد اللخمي البيساني العسقلاني المولد المصري الدار [(2)].

ينتسب القاضي الفاضل إلى قبيلة لخم العظيمة الجاه الكثيرة العدد، وكانت لخم قبل الإسلام منتشرة في الشام، والعراق وباديتهما، وفي مواقع متعددة من فلسطين، ولها جذور عريقة في أرض فلسطين، استوطنت في أماكن عديدة تمتد ما بين الرملة ومصر على الساحل[(3)]. ينتمي القاضي الفاضل جغرافياً ومكانياً إلى مدينتين عريقتين في فلسطين هما بيسان[(4)]وعسقلان[(5)]، فقد وُلد جدُّ القاضي الفاضل الأكبر في مدينة بيسان، كما وُلد فيها جدُّه القاضي السعيد محمد بن الحسن 460هـ/1067م. عاشت عائلة القاضي السعيد محمد بن الحسن البيساني آمنةً سالمة في بيسان، حتى سنة 492هـ/1099م، عندما اجتاح الفرنج فلسطين، واحتلوا بيت المقدس، ونكلوا بأهله؛ فاضطر أهل بيسان إلى الهجرة إلى عسقلان، لأن مدينتهم كانت خالية من التحصينات والقوات المدافعة[(6)].

---

(1) الصفدي : الوافي بالوفيات، ج6، ص126؛ ابن العماد : شذرات الذهب، ج4، 324؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج3، ص128؛ النويري : نهاية الأرب، ج8، ص1؛ البغدادي : تكملة الإكمال، ج1، ص438؛ الدمشقي : توضيح المشتبه، ج5، ص247.

(2) الذهبي : سير الأعلام، ج21، ص 338؛ المقريزي : الخطط، ج2، ص366.

(3) الدباغ : القبائل العربية، ص 134.

(4) بيسان : مدينة بالأردن ويقال لها لسان الأرض تقع بين حوران وفلسطين. ياقوت : معجم البلدان، ج1، ص625.

وهي مدينة عربية كنعانية، من أقدم مدن فلسطين، دعيت في القديم باسم بيت شان أي بيت الإله شان وبيت السكون والهدوء، يقع قسمٌ كبيرٌ من قضاء بيسان في غور الأردن.؛ الدباغ : بلادنا فلسطين، ج6، ص 449؛ أبو حجر : موسوعة المدن، ج1، ص 194.

(5) عسقلان : هي مدينة بالشام من أعمال فلسطي نتقع على ساحل البحر بينها وبين غزة نحو عشرين ميلاً. ابن إدريس : نزهة المشتاق، ج1، ص356. ويقال لها عروس الشام. البغدادي : مراصد الإطلاع، ج2، ص940.

وهي بلدة كنعانية قديمة بناها الكنعانيون، فتحها العرب سنة 23 هـ على يد معاوية بن أبي سفيان، واشتهرت بكثرةٍ من نُسب إليها من الحفاظ والعلماء. شراب : معجم بلدان فلسطين، ص 533.

(6) المقريزي : اتعاظ الحنفا، ج2، ص200.

أُطلق على القاضي الفاضل لقب "محيي الدين"[1]، وهناك من أطلق عليه لقب مجير الدين[2]، ولقب بالقاضي الفاضل مدة تولي (شاور)[3] وزارة مصر للمرة الثانية سنة 559هـ/1164م[4].

ثانياً : أسرته :

وُلد القاضي الفاضل يوم الاثنين الخامس عشر من جمادى الآخرة سنة 529هـ/الثالث من نيسان 1135م في مدينة عسقلان[5]، عاش حياته في كنف والديه، فدرس القرآن والحديث وديوان الحماسة، وغيرها من العلوم، انفصل عن أهله ليقيم بمصر سعياً وراء علمه، ورزقه[6]، تاركاً أخويه في عسقلان[7]إلى أن احتلها الفرنج سنة 548هـ/1153م[8].

---

(1) الذهبي : سير الأعلام، ج21، ص 338.

(2) ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج3، ص 158.

(3) شاور : أَبُو شُجَاعٍ شَاوِرُ بنُ مُجِيْرٍ السَّعْدِيُّ، الهَوَازِنِيُّ، كان شجاعاً، وهو الذي انتزع الوزارة من بني رزيك، بقي أمره قائماً إلى أن ثار عليه الأمير ضرغام بن سوار؛ فالتجأ إلى نور الدين، فأرسل معه أسد الدين شيركوه، فنصروه على عدوه، لكنه نكث العهد؛ فحنق عليه أسد الدين إلى أن قتله على يد ابن أخيه صلاح الدين الأيوبي. الذهبي : سير الأعلام، ج40، ص36.

(4) ابن كثير : البداية والنهاية، ج12، ص 321؛ المقريزي : اتعاظ الحنفا، ج3، ص 273.

(5) ابن العماد : شذرات الذهب، ج4، ص324.

(6) أبو محمد : القاضي الفاضل، ص 36.

(7) بن العماد : شذرات الذهب، ج4، ص324.

(8) حاصر الصليبيون عسقلان سنة 548هـ/1153م، وشددوا الحصار عليها، لكن بفضل ثبات وشجاعة أهلها بالإضافة إلى المساعدات الي كانت تقدمها مصر أثناء الحصار لم يتمكن الفرنج من دخولها، فاضطروا للعودة إلى بيت المقدس، لكن ملك الفرنج بلدوين الثالث رأى وجوب الاستيلاء على عسقلان التي كانت حصناً من حصون المسلمين يتحصنون فيه تارةً، ويتخذونه قاعدة لهجومهم ضد أعدائهم تارةً أخرى، وسقوطها بأيديهم يفتح لهم الطريق لغزو مصر، فشرع الصليبيون في حصار عسقلان مرةً أخرى 547هـ/1152م، بحراً بواسطة أسطولهم الذي كان يتألف من 15 سفينة حربية، وبراً بواسطة جيوشهم، وكان بلدوين على رأس الحملة وخرج معه رئيسا الداوية والإسبتارية، ومعظم الأساقفة ورجال الدين، ونصبوا المنجنيق أمام أسوار المدينة، واستمروا بمنازلتها والهجوم عليها، إلا أن تلك الهجمات كانت تتبدد أمام شجاعة أهل المدينة، ومما ضاعف أمل أهلها بالانتصار وصول باخرة بحرية مصرية لنجدتهم مؤلفة من سبعين مركباً محملة بالرجال والأمداد، لكن وقع خطأ من المسلمين حينما عرفوا أماكن تخزين الفرنج للمؤن، فقاموا بحرقه فارتدت النار عليهم، وحرقت حصونهم وأسوارهم، فدخل فرسان الفرنج من ثقب السور، ووقع القتال بين الطرفين، فلم يجد أهل المدينة بداً من التسليم، فتم تسليمها بعد مضي خمسة شهور على حصارها، وبعد دخول الصليبيين إليها حولوا جامعها الكبير إلى كنيسة " القديس لويس"، لكن الاحتلال الصليبي لم يدم طويلاً، إذ سرعان ما انتهى بعد 35 عاماً سنة 583هـ/1187م، حيث توجه صلاح الدين إلى عسقلان وحررها بعد 14 يوماً من حصارها، فأعاد إليها هويتها العربية الإسلامية. ابن الأثير : الكامل، ج11، ص188– 189؛ الدباغ، مصطفى : بلادنا فلسطين، ج1، ص168؛ حسونة، خليل : حمامة – عسقلان، ص21؛ صالحة، محمود : المجدل– عسقلان، ص 19–20.

والده القاضي الأشرف أبو المجد على بن الحسن العسقلاني البيساني[1]، ولد في عسقلان سنة 501هـ/1107م، تعلم فيها الفقه، وفن الكتابة، إلى أن عمل قاضياً فيها، و نسبته إلى بيسان هي نسبة انتقال، دخل إلى مصر في زمن الخليفة الظافر بن الحافظ[2] 543-548هـ/ 1149-1154م[3].

أدرك القاضي الأشرف مواهب ابنه القاضي الفاضل الأدبية، فأرسله زمن الخلافة الفاطمية إلى الديار المصرية سنة 543هـ/1148م[4]، ليتعلم فن الكتابة والإنشاء وأوصاه بالذهاب إلى ديوان الإنشاء الذي كان يترأسه (موفق الدين بن الخلال)، أحد كتاب مصر وأدبائها[5].

نستنتج مما سبق أن القاضي الفاضل ورث مهنة القضاء أباً عن جد.

تشير الروايات أنه استدعي إلى القاهرة بعد الخلاف الذي وقع بينه وبين والي المدينة على كندٍ[6] من كنود الفرنج كان أسيراً في عسقلان، وأفرج الوالي عنه، فاستدعي إلى مصر لتبرير عمله، فتخلص من التهمة وألصقها بالقاضي الأشرف فاستدعي ليواجه المحاكمة، وصودرت جميع أمواله ولم يبق منها شيء[7]. توفي في 11 ربيع الأول 546هـ/1151م، في القاهرة ودفن بسفح المقطم[8].

---

(1) الذهبي : سير الأعلام، ج41، ص316.

(2) الظافر بن الحافظ : الظَافِرُ بِاللهِ، أَبُو مَنْصُوْرٍ إِسْمَاعِيْلُ ابنُ الحَافِظِ لدينِ الله عَبْدِ المَجِيْدِ بنِ مُحَمَّدِ ابنِ المُسْتَنْصِرِ مَعَدِّ ابنِ الظَّاهِرِ عَلِيّ بنِ الحَاكِمِ العُبَيْديُّ، المِصْرِيُّ، الإِسْمَاعِيْلِيُّ، مِنَ العُبَيْدِيَّة الخَارجين عَلَى بَنَي العَبَّاسِ. توَلِي الأَمْرَ بَعْد أَبِيْهِ بخَمْسَةَ أَعْوَامٍ، كَانَ شَابّاً جَمِيْلاً وَسِيماً لعَّاباً عَاكِفاً عَلَى الأَغَانِي وَالسَّرَارِي، قتله عباس بن أبي الفتوح سنة 549هـ/ 1154م . فمات عن عمر 22 عاماً. الذهبي : سير الأعلام، ج 29، ص185-186.

(3) ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج7، ص 220.

(4) ابن كثير : البداية والنهاية، ج13، ص30.

(5) سيتم ذكره ص 14.

(6) كند : كافر. ابن منظور : اللسان، ج3، ص381.

(7) ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج7، ص220،221.

(8) المصدر نفسه، ج7، ص 220.

أما عن أخوته فكان للقاضي الفاضل أخوان، تركهما في عسقلان وانتقل ليقيم في مصر سنة 543هـ/1148م، وعندما احتل الفرنج مدينة عسقلان في عام 548هـ/1154م[1] هاجر أخواه إلى مصر قاصدين القاضي الفاضل حيث كان يقيم في الإسكندرية[2].

فكان أحدهما الأثير أبو القاسم عبد الكريم، وُلد يوم الثلاثاء تاسع جمادى الآخرة سنة 537هـ/1142م، بعسقلان سمع بالإسكندرية من الحافظ أبي طاهر أحمد بن محمد بن أحمد السلفي ومن الشريفين أبي محمد عبدالله وأبي الطاهر إسماعيل ابني أبي الفضل عبد الرحمن بن يحيى العثماني الديباجي وغيرهم، وأجاز له جماعة من الشاميين والمصريين، وحدَّث بمصر[3]، وكان له هوس مفرط في تحصيل الكتب وشرائها، فكانت مكتبته تتكون من مائتي ألف كتاب، وفيها نسخ متعددة لبعض الكتب، فالصحاح اجتمع له ثماني عشرة نسخة[4]، ثم تمكن من تحصيل ثروة طائلة نتيجة عمله بولاية الحكم والإشراف في البحيرة[5]. إلا أن علاقته مع أخيه عبد الرحيم كانت سيئةً، والسبب في ذلك أن عبد الكريم كان متزوجاً بمرأة من بني ميسر سكن معها في ثغر الإسكندرية، وأساء عشرتها وحبسها في داره بالإسكندرية، فسار والدها إلى الاسكندرية وأثبت عند قاضيها ضرر ابنته، فمضى القاضي الفاضل بنفسه إلى الدار، فلم يقدر على فتح الباب الذي بداخله المرأة فأمر بنقب الباب وأخرج المرأة منه، وسلمها لوالدها وأعاد بناء النقب[6]، وبسبب ذلك حدثت الجفوة بين القاضي الفاضل وأخيه، مما جعل حال عبد الكريم يتراجع بين الناس بعد احترامهم له وتسببت في ترك عمله[7]. وتوفي سنة 621هـ/ 1224م[8].

كما عرف عن أخيه الآخر[9] أنه كان مغرماً بجمع التحف، من خزف، وقدور، وفرش، وكان بيته مملوءاً منها، وإذا رأى خاتماً أو سمع به اجتهد في تحصيله واشتراه[10] .

---

(1) ابن الأثير : الكامل، ج11، ص188، 189.

(2) الذهبي : سير الأعلام، ج21، ص443؛ الصفدي : الوافي، ج6، ص126.

(3) الصابوني : تكملة إكمال، ج1، ص7.

(4) الحنبلي : شذرات الذهب، ج4، ص325.

(5) الذهبي : سير الأعلام، ج21، ص293.

(6) المقريزي : السلوك، ج1، ص 156.

(7) الحنبلي : شذرات الذهب، ج4، ص324.

(8) الصابوني : تكملة إكمال الكمال، ج1، ص7.

(9) لم يرد اسمه في المصادر والمعلومات عنه ضئيلة.

(10) الحنبلي : شذرات الذهب، ج4، ص324.

أما عن ابنه القاضي الأشرف بهاء الدين أبو العباس أحمد[1]، ولد في القاهرة سنة 573هـ/1177م، وسمع من القاسم ابن عساكر والأثير بن بنان، وفاطمة بنت سعد الخير كما سمع عن أبيه[2]، كان كوالده محباً للمطالعة واقتناء الكتب[3]، يرجع إليه الفضل في بقاء المدرسة الفاضلية، والمكتبة بما احتوته من ذخائر تؤديان مهمتهما لطلاب العلم[4]، وكان الملوك الأيوبيون يجلونه احتراماً لمكانة والده في الدولة وفي ذلك يقول ابن خلكان : "كان كبير المنزلة عند الملوك الأيوبيين، وكان مثابراً على سماع الحديث وأسمعه"[5]. وحدث له في الكهولة، وكان له غرامٌ زائد بطلب الحديث فسمع الكثير، وكتبه، واستنسخه[6].

كان القاضي الفاضل قد كلف ابن سناء الملك[7] تدريس القاضي الأشرف، والإشراف على تربيته أثناء غيابه بالشام، وأن يلازمه ويذاكر له، ويوضح له الطريق التي يسلكها، فقام ابن سناء الملك بواجبه على أكمل وجه، فوجد في القاضي الأشرف خير التأديب والتهذيب[8] توفي ليلة الاثنين السابع من جمادى الآخرة سنة 643هـ/1245م، ودفن بسفح المقطم إلى جانب قبر أبيه[9].

نستنتج من ذلك أنَّ المكانة التي تمتعت بها أسرة القاضي الفاضل، استمدتها من مكانة القاضي الفاضل نفسه في المجتمع، وأيضاً أخوة القاضي الفاضل وابنه كانوا أهل خير ومعرفة، وكانوا أصحاب ثروات وأملاك واسعة.

ثالثاً : صفاته :

كان القاضي الفاضل مصدر عزم، وقوة لعدد كبير من الأدباء، والمفكرين في عصره، وحافزاً لهم على العمل والإبداع، ومثالاً لهم في الإخلاص، والعمل، والتواضع، قليل اللذات، كثير

---

(1) اليافعي : مرآة الجنان، ج4، 118.

(2) الذهبي : سيرالأعلام، ج23، ص211.

(3) الصلابي : الأيوبيون، ج1، ص272.

(4) الذهبي : سير الأعلام، ج23، ص211.

(5) ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج3، ص163.

(6) الذهبي : العبر، ج5، ص175.

(7) ابن سناء الملك : القاضي الأثير البليغ أبو القاسم هبة الله بن جعفر ابن القاضي سناء الملك محمد بن هبة الله المصري، الشاعر المشهور، قرأ القرآن على الشريف أبو الفتوح، وسمع من السلفي، وله ديوان مشهور ومصنفات أدبية. توفي سنة 608هـ/ 1211م. الذهبي : تهذيب سير الأعلام، ج3، ص162.

(8) ثابت : القاضي الفاضل، ص13.

(9) بن أبي جرادة : بغية الطلب، ج2، ص983؛ النويري : نهاية الأرب، ج29، ص206.

الحسنات، دائم التهجد، متقللاً في مطعمه، وملبسه، يلبس البياض، ولا يبلغ جميع ما عليه من ثياب دينارين[1]، كان يكثر من تشييع الجنائز، وعيادة المرضى، وزيارة القبور، وله معروف في السر والعلانية، ولم يكن له انتقام من أعدائه، إلا بالإحسان إليهم والإعراض عنهم[2]. وكان دخله في العام نحو خمسين ألف دينار، سوى متاجر الهند، والمغرب[3]قليل النحو، لكن له دربة قوية توجب له قلة اللحن، وكتب في الإنشاء ما لم يكتبه أحد[4].

كان ذا دينٍ، وتقوى، كثيرَ العبادة صاحبَ أوراد من صلاة وصيام، وكان يكثر من قراءة القرآن الكريم[5]، تميز بكثرة الصدقة ، ومن أشهر مآثره المدرسة الفاضلية، ومكتب الأيتام بالقاهرة[6]، ودار الحديث الفاضلية بدمشق[7]، فكان تدينه منبعاً لجوانب الخير فيه، وعاصماً له عن التورط فيما ينفِّر الناسَ منه، وبالرغم من شدة تدينه، فإنه لم يكن بعيداً عن خفة الروح، والطرف اللذين يستندان إلى سرعة بديهته، ودعابته الكلامية في حسن اختيار الألفاظ[8].

كان الوفاء من أبرز مميزات القاضي الفاضل، وتجلى وفاؤه لصلاح الدين في تقديم النصيحة الصادقة له في إخلاصٍ وقوة، وكانت الثقةُ متبادلةٌ بينه وبين صلاح الدين، وأفراد العائلة الأيوبية، فكان الواحد منهم يوسطه للحصول على المركز، أو راسله أحدهم يشكو إليه من أمر ألّم به، مثلما بعث إليه الملك العادل يشكو من صلاح الدين عندما، بعث إليه مع العماد الأصفهاني "يسير لنا لحمل من مالنا أو من ماله؟" فكتب إليه الفاضل اعتذاراً وتلطف في التماس العذر[9].

أَحبَّ الكتابة منذ صغره، فقصد مصر ليشتغل بالأدب، وكون لنفسه مكتبة كبيرة يقال أنها بلغت مائةَ وأربعةً وعشرين ألفَ كتابٍ، أخذ قسماً منها من خزانة كتب الفاطميين عندما قضي صلاح الدين عليها، وقد اشترى بعضَها وأهداه صلاح الدين البعضَ الآخرَ اعترافاً منه بمساعدته للقضاء على الفاطميين، كما حصل على قسم كبير من الكتب من خزانة آمد عندما فتحها صلاح

---

(1) الذهبي : تاريخ الإسلام، ج42، ص251.

(2) السبكي : طبقات الشافعية، ج2، ص284؛ المقريزي : الخطط، ج2، 367.

(3) الذهبي : سير الأعلام، ج21، ص342.

(4) الذهبي : تاريخ الإسلام، ج42، ص251.

(5) السبكي : طبقات الشافعية، ج7، ص167.

(6) ابن قاضي شهبة : طبقات الشافعية، ج2، ص30.

(7) الدمشقي : الدارس، ج1، ص69؛ المقريزي : الخطط، ج2، ص366.

(8) دجاني : القاضي الفاضل، ص33.

(9) ابن خلكان : وفيات الاعيان، ج4، ص166.

الدين 579هـ/1183م، ووصل ولُعه بالكتب بأن اشترى مصحفَ عثمان بن عفان بما يزيد على ثلاثين ألفَ دينار[1].

قال الشعر، والمراسلات، وخدمَ الأكابرَ، عدَّه المؤرخون أستاذاً للطريقة الفاضلية، كما عدوه نموذجاً للإنسان المثالي في عصره، ويقف الكثير في حيرة أمام أسلوبه، فكان على ثقافة واسعة الاطلاع على الأدب، والحديث والفقه، وغيرها من العلوم، وعلى فهم عميق للقرآن الكريم، فكان أسلوبه هو الأسلوبَ المقبولَ لا من ناحية بلاغته فحسب، بل من ناحية تأثيره أيضاً، فالرسائل التي كتبها القاضي الفاضل، وأمثالُه من أبناء عصره كانتْ بياناتٍ سياسيةً واجتماعيةً ومقاماتٍ تحمل جُلَّ المعاني[2]. مدحه شعراءُ عصره فقال عنه العماد الأصفهاني : "رب القلم والبيان، واللسن واللسان، والقريحة الوقادة، والبصيرة النقادة، والبديهة المعجزة، والبديعة المطرزة والفضل الذي ما سمع في الأوائل، بمن لو عاش في زمانه لتعلق بغباره، أو جرى في مضماره، فهو كالشريعة المحمدية التي نسخت الشرائع، ورسخت لها الصنائع، يخترع الأفكار، ويقترع الأبكار، ويطلع الأنوار، وهو ضابط الملك بآرائه، ورابط السلك بآلائه، إن شاء أنشأ في اليوم الواحد بل في الساعة"[3].

ومدحه العماد أيضاً بقوله :

حِلفُ الحصافةِ والفصاحةِ والسماحة والحماسة والتُّقى والنائلِ
بحرٌ مِنَ الفضلِ الغزيرِ، خِضَمُّهُ طامي العُبابِ ومالهُ مِنْ ساحلِ[4]

روى موفق الدين البغدادي[5] عن زيارته له في فلسطين فقال : "دخلنا على القاضي الفاضل فرأيت شيخاً ضئيلاً كله رأس وقلب، وهو يكتب ويملي على اثنين، ووجهه، وشفتاه تلعب ألوان الحركات لقوة حرصه على إخراج الكلام، وكأنه يكتب بجملة أعضائه"[6].

---

(1) المقريزي : الخطط، ج2، ص367.

(2) الصلابي : صلاح الدين، ص304.

(3) العماد : الخريدة قسم شعراء مصر، ج11، ص 35- 36.

(4) أبو شامة : الروضتين، ج1، ص641- 642.

(5) موفق الدين البغدادي : عبد اللطيف بن يوسف بن محمد بن علي بن سعد، العلامة موفق الدين البغدادي الشافعي النحوي اللغوي المتكلم الطبيب الفيلسوف المعروف بابن اللباد؛ لقبه تاج الدين الكندي بالجدي المطجن لرقة وجهه وتجعده ويبسه. ولد ببغداد سنة 555هـ/1160م، وتوفي ببغداد سنة 629هـ/1232م. الكتبي : فوات الوفيات، ج2، ص385.

(6) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ج1، ص687، بدران : منادمة الأطلال، ج1، ص49.

رابعاً : وصف هيئته :

وكان ضعيف البنية، رقيق الصورة، له حدبة يغطيها الطيلسان[1]، فاتخذ بعض أدباء عصره والحاقدين عليه من مظهره الجسماني موضعاً للنقد والسخرية، فقد بعض المعاصرين له، فقال : "كان ذميم الخلقة، له حدبة ظاهرة، يسترها الطيلسان، كيلا تظهر للناس"[2] فقال أيضاً : "دخلت يوماً على القاضي الفاضل فوجدت بين يديه أترجة كبيرة، مفرطة في الضخامة، وهي من الأترج الشمعي، فلما جلست حدقت إليها، فقال القاضي الفاضل : ما هذه الفكرة الطويلة؟ ما أنت مفكر إلا في خلق هذه الأترجة، وما فيها من التكتيل، والتعوج، وتعجب من المناسبة بها، وكيف اتفق الجمع بيننا وبينها، فقال ابن مماتي فدهشت، وانخلع قلبي مني خوفاً، فقلت : لا والله بل افكر في معنى وقع لها فيها"[3].

وذُكر أيضاً أن القاضي الفاضل ذهب إلى صاحب الموصل، فأحضرت فواكه، فقال بعض الكبار منكتاً : "خياركم أحدب، فقال القاضي الفاضل : خسنا خير من خياركم"[4].

ومما لا شك فيه؛ أن الأخلاق، والصفات التي تمتع بها القاضي الفاضل لعبت دوراً كبيراً في وصوله إلى المكانة، والمنزلة العالية التي حظي بها في الدولة الأيوبية.

خامساً : أساتذته :

غادر القاضي الفاضل عسقلان متجهاً إلى مصر سنة 543هـ/1148م، بهدف تعلم فن الكتابة والإنشاء، وهناك تتلمذ على يد أفضل الأساتذة، وأكثرهم خبرة، ودراية بديوان الإنشاء والمكاتبات، ومن أبرزهم :

1- الموفق بن الخلال :

أبو الحجاج يوسف بن محمد المعروف، بابن الخلال الملقب بالموفق، صاحب ديوان الإنشاء بمصر في دولة الحافظ أبي الميمون عبد المجيد العبيدي[5].

كان القاضي الأشرف يعرف ابن الخلال بالسماع وعن طريق المراسلة، لأن ديوان ثغر عسقلان كان من أهم الدواوين المصرية، ومرتبطاً في جميع شؤونه بدواوين القاهرة، مثل ديوان

---

(1) المقريزي : الخطط، ج3، ص 113.

(2) ابن إياس : بدائع الزهور، ج1، ص239.

(3) المصدر نفسه، ج1، ص75.

(4) الذهبي : سير الأعلام، ج21، ص342.

(5) ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج7، ص219.

الإنشاء، والجيش، والمال، والثغور، أما مراسلاته الرسمية فموجهة عادةً إلى ديوان الإنشاء مركز توزيع المراسلات إلى جميع الدواوين، ولقد عرف ابن الخلال بدوره القاضي الأشرف بالطريقة نفسها وبالمراسلات الرسمية[1].

قابل ابن الخلال القاضي الفاضل في ديوان الإنشاء في القاهرة، وكان ابن الخلال قد سمع عن نية عبد الرحيم تعلم فن الكتابة فاستقبله بكل لطف، وبادله الحديث عن عسقلان وأهلها، واستفسر عن أهدافه، فرد عليه عبد الرحيم بأن قصده التدرب على الكتابة، والإنشاء، والإدارة، فطلب منه أن يلازمه ففعل، ثم طالبه بنثر ديوان الحماسة ففعل، فلاحظ ابن الخلال نبوغ تلميذه، فوجهه خير توجيه، وساعده في تنمية مواهبه ودربه على فنون النثر، والكتابة الديوانية. ودرس قواعد اللغة العربية من نحو وصرف، وعلم الغريب من ألفاظ اللغة كما درس الأمثال، والخطب[2].

وحين ضعف ابن الخلال عن القيام بأعباء الوظيفة، لكبره، ومرضه، تولى القاضي الفاضل مكانه وكان يقوم به وبأهله حتى توفي سنة 566هـ/1170م[3].

2- ابن قادوس :

أبو الفتح محمود بن إسماعيل بن قادوس، أصله من دمياط، كاتب الإنشاء بالحضرة المصرية كان من شعراء الدولة، وأدباءها[4]. كان القاضي الفاضل يعظمه، ويثني عليه ويسميه: ذا البلاغتين[5]. درَّب ابن قادوس القاضي الفاضل على فن البلاغة، ولكنه نظراً لكثرة أشغاله في الدواوين لم يكن يعطيه وقتاً كافياً للمناقشة والبحث، فكان الفاضل يرافقه في أثناء ركوبه من الديوان في القاهرة إلى الفسطاط[6]، ويتباحث معه في جميع الأمور المتعلقة بفنون الكتابة والآداب، وعندما توفي ابن قادوس سنة 553هـ/1158م، رثاه القاضي الفاضل بقصيدة أشار فيها إلى أفضاله عليه، قال فيها :

أَيَا نَازِحاً أَفْنى نَوَاظِرَنا نَزْحاً وَيَا بَارِحاً أَفْنى خَوَاصِرِنا بَرْحاً
وَيَامَنْ خَسِرْتُ الْقَلْبَ إِذْ رُمْتُ وَصْلهُ وَيَالَيْتَ لَوْ كَانَتْ سَلاَمَتُهُ رِبحاً[7]

---

(1) ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج7، ص 219.

(2) الدمشقي : الدارس، ج1، ص67.

(3) ابن كثير : البداية والنهاية، ج12، ص328.

(4) الذهبي : تاريخ الإسلام، ج38، ص66.

(5) أبو شامة : الروضتين، ج1، ص 330؛ الكتبي : فوات الوفيات، ج2، 484.

(6) يقصد فيها مصر

(7) بدوي : ديوان القاضي الفاضل، ج1، ص174.

3- ابن حديد :

وهو مكين الدولة أبو طالب أحمد بن حديد، كان قاضي الإسكندرية، وناظرها، وكان فقيهاً عالماً مترسلاً، تتلمذ القاضي الفاضل منذ مغادرته القاهرة سنة 549هـ/1154م، إلى الإسكندرية، ووفق في عمله عند ابن حديد[1]. فاستكتبه ابن حديد، وأطلق له معلوماً، وبقيت كتبه ترد إلى مجلس الخلافة بخط الفاضل، وهي مشحونةٌ بالبلاغة[2].

وفي الديوان حُسد القاضي الفاضل على فضيلته، فقيل للظافر عنه : أنه قصر في المكاتبة، فدخل صاحب ديوان المجلس الأثير بن بنان على الظافر، فأمره أن يكتب لابن حديد، بقطع يد كاتبه، بسبب أنه جعل بين السطرين الأولين مقدار شبر، وهذا سوء أدب، فقال الأثير للظافر : يا أمير المؤمنين، تأمر بإحضار الكتب، فأحضرت فلما قرأها الأثير علم فضل الفاضل، فقال له : هذا الكاتب لم يحصل منه سوء أدب، وإنما حسد على بلاغته، فعمل على أذاه. فقال : اكتب لابن حديد يسيره إلينا، لنستخدمه. فصار من كتاب الدرج، في أواخر الدولة العبيدية[3].

5- العميدي :

هو محمد بن أحمد بن محمد بن سعد العميدي، أديب، نحوي، لغوي، مصنف، له أدبيات مشهورة، مات يوم الجمعة الخامس من جمادى الأخرة سنة 433هـ/1042م[4]، كان يتولى ديوان الترتيب وعزل عنه أيام الظاهر ثم تولى ديوان الإنشاء بمصر في أيام المستنصر[5]، ومن تصانيفه في الأدب "كتاب تنقيح البلاغة" في عشر مجلدات[6]، "وكتاب الإرشاد إلى حل المنظوم والهداية إلى نظم المنثور"، وكتاب "انتزاعات القرآن" الذي لا يخرج عن كونه بياناً لطرق الأخذ من القرآن، والاستعانة به في نظم الأدب.

تدرب القاضي الفاضل على الكتابة الإنشائية بحل أبيات الشعر وجعلها منثورة، وأخذ يتقن فن الكتابة، على الطريقة الشائعة في عصره، حتى اختط لنفسه طريقة عرفت به، وامتاز بها في زمنه، وما تلاه من الزمان، وقد أسس طريقته على طريقة العميدي التي تلتزم السجع والطباق، وتتوسع في

---

(1) ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج2، ص89- 90.
(2) النويري : نهاية الأرب، ج29، ص6.
(3) المصدر نفسه، ج29، ص6.
(4) ياقوت : معجم الأدباء، ج5، ص145.
(5) المستنصر : المستنصرُ بِاللهِ، أَبُو تَمِيْم مَعَدُّ ابنُ الظَّاهِرِ لإِعزَاز دين الله عَلِيِّ بنِ الحَاكِمِ أَبِي عَلِيٍّ مَنْصُوْر بنِ العَزِيْزِ بنِ المُعِزِّ، العُبَيْدِيُّ المِصْرِيُّ. توَلِي الخلافةَ بَعْد أَبِيْهِ، وعمره سبع سنوات، وَذَلِكَ سَنَةَ 527هـ/ 1133م، فَامتَدَّتْ أَيَّامُه سِتِّيْنَ سَنَةً حيث توفي سنة 548هـ/1153م.الذهبي : سير الأعلام، ج 29، ص172.
(6) السيوطي : بغية الوعاة، ج1، ص47.

الخيال[1]، ويزيد على ذلك، أنه أكثر من استعمال فنون البديع المستعملة في الشعر، من تورية، وجناس، وتلميح، واقتباس من آيات القرآن الكريم. حتى أصبح لسان الدولة يكتب على لسان صلاح الدين إلى الخلفاء، والملوك، والأمراء، ويسجل أحداث المملكة، ويصور حوادث الحروب مع الفرنج، ويكتب رسائل الفتوح، والاستنهاض، ولم تقتصر رسائل القاضي الفاضل على الشئون الديوانية، بل له رسائل في الشوق، والشكر، والعتاب، والتعزية، وغيرها، مما يدل على قوة القاضي الفاضل في صناعة الإنشاء[2]. قيل عن رسائله : "لو جمعت في مجلدات لبلغت مائة مجلد"[3]. إلى جانب رسائل القاضي الفاضل له مذكرات أطلق عليها اسم "المتجددات"، روى فيها حوادث زمنه، وهو في تلك المتجددات لا يلتزم السجع، بل سرد حوادث التاريخ والتعليق عليها في طلاقة لا تحدها صناعة[4]. نستنتج مما سبق أن الأساتذة الذين تعلم القاضي الفاضل على أيديهم وجهوا الفاضل خير توجيه، ولم يبخلوا عليه بل أفاضوا عليه من علمهم، وبلاغتهم لما رأوا فيه من طموح، ومواهب، فأصبح أديباً شاعراً فصيحاً متقناً لفنون اللغة، والأدب، ساعدته موهبته تلك في الوصول إلى المناصب المرموقة في الدولة الأيوبية.

سادساً : عصره :

عاصر القاضي الفاضل فترتين حاسمتين في حياته، تمثلتا في الدولة الفاطمية الشيعية، والدولة الأيوبية السنية، التي عاشها بكل حذافيرها، وتفاصيلها من أحوال سياسية، وثقافية، واقتصادية، واجتماعية، كان لها تأثير كبير على حياته وفكره وأدبه، فمن أهم الأحداث التي عاصرها :

1- الحالة السياسية :

تتمثل في الحملات الصليبية على العالم الإسلامي، والتخبط في سياسة الدولة الفاطمية.

أ- الحروب الصليبية :

شهدت البلاد الإسلامية الحملات الصليبية التي انبعثت من الغرب الأوروبي المسيحي، واتخذت شكلَ هجومٍ حربي استعماري على المسلمين، بقصد نهب خيرات الأمة الإسلامية وممتلكاتها، حيث دعا البابا أوربان الثاني[5] إلى قصد بلاد المسلمين واحتلالها، بحجة أن المسلمين

---

(1) الزيات : تاريخ الأدب، ص247.

(2) عبد الظاهر : الدر النظيم، ص5.

(3) ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج3، ص159؛ ابن حجة : طيب المذاق، ج1، ص274.

(4) عبد الظاهر : الدر النظيم، ص5.

(5) أوربان الثاني : ولد أوربان الثاني عام 427هـ/1035م، في شاتيون، واسمه الأصلي أودو، ودرس على يد القديس برنو الذي أسس نظام الكارسوسين، التحق في خدمة البابا جريجوري السابع عام 461هـ/1068م، اتسم بالنشاط الوافر، خدم بالكنيسة في ألمانيا عام 477هـ/ 1084م، وأحكم سيطرته على كافة مناطق نفوذ الكنيسة ولقب بالبابا أوربان الثاني عام 481- 493هـ/ 1088- 1099م. الصلابي : صلاح الدين، ص36.

يسيئون معاملة الحجاج المسيحين إلى الأراضي المقدسة، فوجدت دعوته آذاناً صاغية لدى الأوروبيين، الذين وجدوا في تلك الحملات تحقيقاً لحقدهم على المسلمين، ووجدوا فيها مجالاً لتأسيس إقطاعيات جديدة(1).

كثر عدد الحملات الصليبية إلى البلاد الإسلامية فبلغ عددها ثمانية، أربعة منها اتجهت نحو الأرض المقدسة، وهي الأولى، والثانية، والثالثة، والسادسة، وحملتان اتجهتا نحو مصر وهما الخامسة والسابعة، وحملة ضد القسطنطينية وهي الرابعة، والأخيرة نزلت بشمال أفريقيا وهي الثامنة(2).

وصلت الحملة الصليبية الأولى بقيادة الأمراء والإقطاعيين (490هـ/1097م) وتراوح عدد جنودها بين ستين ألفاً ومائة ألف، استطاعت تلك الحملة المنظمة أن تسير إلى بلاد الشام، والأراضي المقدسة فأسسوا أربعَ إماراتٍ وهي الرُها، وأنطاكية، وطرابلس، ومملكة بيت المقدس واقتسم القواد تلك الإمارات، ونصَّب كل منهم نفسه ملكاً على إمارةٍ من تلك الإمارات(3)، مرتكبين أفظع المذابح الوحشية بحق المسلمين، وصلت الحملة إلى بيت المقدس عام 492هـ/1099م، واقتحموها مرتكبين مذبحة وحشية، وقد قدَّر المؤرخون عدد القتلى المسلمين في المسجد الأقصى بنحو سبعين ألف مسلم(4).

في تلك الفترة الحرجة التي عانى فيها المسلمون في مصر، وبلاد الشام، من توالي الهزائم والإحباطات، ظهر عماد الدين زنكي(5) الذي نادى للجهاد، وكسر الفرنج في الرُها وحررها بعد حصار دام ثمانية وعشرين يوماً سنة 539هـ/1144م(6). كان عمر القاضي الفاضل حينها عشرة

---

(1) عاشور : الحركة الصليبية، ج1، ص26.

(2) المرجع نفسه، ج1، ص27.

(3) أبو خليل : الحروب الصليبية، ص25.

(4) ابن الأثير : الكامل، ج9، ص19.

(5) عماد الدين زنكي : الأتابك زنكي ابن الحاجب قسيم الدولة آقسنقر بن عبد الله التركي، صاحب حلب، فَوَّضَ إِلَيْهِ السُّلْطَانُ مَحْمُوْدُ بنُ مَلِكْشَاه شِحْنَكِيَّة بَغْدَاد سنة 511هـ/1117م، في العام الذي ولد فيه ابنه نور الدين محمود، ثم حوَّله إلى مدينة الموصل، فعظم أمره وافتتح الرُّها سنة 539هـ/1144م، توفي مقتولاً سنة 541هـ/1146م. الذهبي : سير الأعلام، ج39، ص184.

(6) أبو الفداء : تاريخ أبي الفداء، ج2، ص225.

أعوام، وكغيره تفاعل مع انتصارات عماد الدين زنكي، وأصبحت نظرته إلى القائد المجاهد تتمثل في شخصية عماد الدين، ثم في صلاح الدين فيما بعد[1].

عاصر القاضي الفاضل الحملة الصليبية الثانية 542-544هـ/1147-1149م، والحملة الصليبية الثالثة 585-588هـ/1189-1192م، التي جاءت بعد انتصار المسلمين في حطين، وإعادة فتح بيت المقدس 583هـ/1187م[2]. وساهم خلالها بفكره، وفنه، إلى جانب صلاح الدين، فكانت كل كتاباته النثرية تدور حول تلك الحروب وشؤونها، وشهد صلاح الدين بدور القاضي الفاضل الفكري، والإداري البارز في استرداد الأراضي المقدسة من أيدي الفرنج، وقال فيه : "لا تظنوا أني فتحت البلاد بسيوفكم، إنما بقلم القاضي الفاضل"[3].

ب- خلافات الدولة الفاطمية :

تميزت الفترة التي عاصرها القاضي الفاضل في مصر، وقت انتقاله إليها بالصراع الدموي بين أمراء الدولة الفاطمية بشأن منصب الوزارة، واستنجاد أمراء الدولة الفاطمية بالفرنج ضد بعضهم البعض من أجل الحصول على ذلك المنصب، فقد أصبح الوزراء الفاطميون يسيطرون على شؤون البلاد المصرية. في ظل تلك الفترة الحالكة من تاريخ الدولة الفاطمية، فدرس القاضي الفاضل، وعمل في القاهرة، خلال حكم الخليفة الظافر544-549هـ/1149-1154م، وهذا ما سوف نتعرض له ضمن حياته العملية.

2- الحالة الثقافية :

شاهد عبد الرحيم البيساني في كل من مصر والقاهرة حياة علمية مزدهرة، تختلف إلى حدٍ ما عن حياة عسقلان العلمية المحدودة، الموجهة إلى الجهاد، فقد رأى في مصر عدداً كبيراً من الجوامع، كجامع عمرو بن العاص الذي كان مركزاً سنياً[4]، كان علماء السنة يتحلقون به في عهد الفاطميين، يحيط بهم طلاب العلم لقراءة القرآن الكريم، ودراسة الفقه، والنحو، وكان بعض العلماء الوافدين على مصر من الأندلس يدرس في ذلك الجامع، ومن أشهر الفلسطينيين الذين وفدوا على مصر قبل القاضي الفاضل الفقيه" أبو الفتح سلطان ابن إبراهيم بن مسلم المقدسي، إلى أن أدخل

---

(1) النويري : نهاية الأرب، ج8، ص6؛ دجاني : القاضي الفاضل، ص40.

(2) كتاب رقم (78).

(3) ابن الجوزي : مرآة الزمان، ج8، ص304.

(4) المقريزي : الخطط، ج1، ص341.

صلاح الدين الأيوبي المدارس إلى مصر، ونشرها الأيوبيون، وكبار دولتهم بما فيهم القاضي الفاضل[1].

ومن الجوامع التي تجلت فيها الحركة العلمية الثقافية جامع الأزهر الذي كان مدار اهتمام الخلفاء، وكان الحكام يغدقون عليه، وعلى من فيه من أموالهم على هيئة أوقاف تفي حاجات الطلاب المعيشية[2].

كان ديوان الإنشاء بالإضافة إلى مسؤولياته أحد معالم العلم العديدة في القاهرة، ومهمته تدريب الطلبة على الكتابة والإدارة، ثم رفعهم إلى العمل في دواوين مصر [3]. وخير دليل على ذلك القاضي الفاضل الذي لقى بديوان الإنشاء رعاية، وتوجيه سليمين من قبل الأساتذة الذين تتلمذ على أيديهم[4].

لم تقتصر الحياة العلمية على الجوامع وديوان الإنشاء، بل كانت مكتبات القصر من وسائل بث الدعوة العلمية الثقافية، وكانت فيها قاعات يجتمع فيها الناس لسماع المحاضرات، وكانت خزائن القصر تشتمل على مجلدات في كل فن من فنون العلوم الإسلامية، كالفقه على المذاهب الأربعة، النحو، اللغة، كتب التاريخ، الحديث، والفلك، والكيمياء[5].

وعندما دخل صلاح الدين مصر وتولى وزارتها بدأ بإصلاحاته في مصر على الصعيد الثقافي فقام بتأسيس عدد من المدارس على المذاهب الأربعة، فبنى مدرسة للمذهب الشافعي سنة 566هـ/1170م، كما أنشأ في السنة ذاتها مدرسة للمالكية بجوار جامع عمرو بن العاص، كانت تلك المدارس بداية حركة بنائية سنية ساهم فيها الكثير من الأيوبيين وأمرائهم خلال حكم صلاح الدين في مصر [6].

3- الحالة الاقتصادية :

عاش حكام الدولة الفاطمية حياة بذخ وترف واضحين، فكانت خزائنُهم مملوءةً بالتحف والمجوهرات الثمينة، وكانوا يكثرون من إقامة الحفلات في الأعياد والمناسبات وينفقون عليها الأموال

---

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ج6، ص503.

(2) المقريزي : الخطط، ج2، ص273.

(3) المقريزي :اتعاظ الحنفا، ج3، ص266.

(4) ياقوت : معجم الأدباء، ج5، ص421؛ ثابت : القاضي الفاضل، ص31.

(5) ابن أبي جرادة: بغية الطلب، ج2، ص992؛ دجاني : القاضي الفاضل، ص58.

(6) المقريزي : اتعاظ الحنفا، ج3، ص319.

الطائلة، في حين أن أفراد الشعب كانوا يعيشون في أوضاع اقتصادية صعبة بسبب فرض الضرائب عليهم، وبسبب الأحداث والنكبات التي ألمت بهم في عهد شاور وقبله[1].

4- الحالة الاجتماعية :

ضم عصر القاضي الفاضل العديد من المذاهب، فالدولة الحاكمة فاطمية شيعية، وغالبية الشعب يدينون بالمذهب السني، والشام يدين شعبها بالمذهب السني، وكانت تدعو للخليفة العباسي، وكان كلاً من النظامين يرى أنه الأصلح والأحق بالبقاء، وكانت عادات الفاطميين في أعيادهم تختلف عن عادات أهل السنة، فكانوا في يوم عاشوراء يلتقون حكاماً وشعباً يجددون ولاءهم لأهل البيت، وكان يوم عاشوراء يوم حزن وتعازٍ وبكاء، وكان الخليفة يوم عاشوراء يحتجب في قصره، وعند الضحى يذهب قاضي القضاة في لباسٍ خاص إلى مشهد الحسين، فيجلسون معهم قراء القصر والخطباء، فيدخل الوزير وعلى جانبيه القاضي والداعي، ويشرع القراء في قراءة القرآن والجميع خشوع، وبعد الانتهاء من قراءتهم، يقوم الشعراء فينشدون أشعاراً أعدوها لتلك المناسبة[2]، لكن صلاح الدين قضى على ذلك التناقض بين المذهبين يوم أن خلع الخليفة الفاطمي، ودعا في المساجد للخليفة العباسي، ولم يذهب إلى مشهد الحسين كعادة الوزير في الدولة الفاطمية، بل ذهب إلى جامع عمرو بن العاص للصلاة فصلى ومعه جمع كبير من أهالي الشام ومصر، وجلس بعد الصلاة مع القاضي الفاضل يتباحثان ما أنجزاه منذ الجمعة التي تم فيها إلغاء الخلافة الفاطمية[3].

سابعاً : حياته العملية :

عمل القاضي الفاضل في مستهل حياته بالإدارة المصرية في الإسكندرية والقاهرة خلال الفترة الواقعة بين سنة 549هـ/1154م، وسنة 565هـ/1169م، وما لبث أن تدرج في مناصب كثيرة، إلى أن أصبح وزيراً مرموقاً في دولة صلاح الدين سنة 567هـ/1171م، ويمكن تقسيم مراحل عمله كالتالي :

أ- عمله في فترة حكم الدولة الفاطمية :

عاصر القاضي الفاضل فترة حكم الدولة الفاطمية؛ فشهد صراعاً دموياً كان سببه الاقتتال والتناحر من أجل الوزارة بين بعض أمراء الدولة، بالإضافة إلى تدخل النساء في مجال السياسة كما فعلت عمات الخليفة الظافر المشرفات في القصر على شؤونه كما وصى والده، فقامت باختيار

---

(1) المقريزي : الخطط، ج2، ص363.

(2) المصدر نفسه، ج2، ص 364.

(3) المصدر نفسه، ج2، ص384.

الأمير نجم الدين أبا الفتح سليم بن محمد بن مصال 544هـ/1149م، وزيراً له[1]، لكن سرعان ما ظهر لابن مصال منافس وهو الأمير إسحاق بن السلار والي البحيرة والإسكندرية، الذي خطب بالوزارة لنفسه ودخل القاهرة بعد مفاوضات أجراها مع الخليفة الظافر وعماته، فخلع عليه الوزارة[2]، ولكنه لم تمضِ خمسة أعوام على توليه الوزارة حتى قتل على يد ابن عباس نصر[3]، لكن عمات الظافر سرعان ما اتصلن بطلائع بن رزيك يستنجده على عباس، فدخل ابن رزيك القاهرة في التاسع عشر من ربيع الأول سنة 549هـ/1154م، ولقى مصرعه سنة 556هـ/1160م[4].

خدم القاضي الفاضل في ديوان الجيش، وأصبح المشرف الإداري لجيوش الوزير رزيك بن طلائع مدة تقل عن العامين من رمضان 556هـ/1160م، حتى محرم 558هـ/1162م، تلقب زريك بلقب الملك العادل مجد الإسلام، واتبع سياسة التسامح وإسقاط الظلم عن الناس[5]، لكن في تلك الفترة وقع صراع بين شاور والي قوص، وبين الوزير رزيك، وذلك بسبب عزل الأخير لشاور عن ولاية قوص، مما أثار غضب شاور فعاث خراباً في البلاد، فهرب رزيك، واتجه إلى ولاية اطفيح، لكن شاور تمكن من قتله في محرم 558هـ/كانون الثاني 1162م[6]. وبعد وفاته لم ينقطع الفاضل عن عمله في ديوان الجيش فخدم كلاً من شاور وابنه الكامل، حيث قابل شاور عبد الرحيم في ديوان الجيش وضمه إلى حاشيته الجديدة[7].

لم تطل أيام شاور بالوزارة، حيث ثار ضرغام بن سوار عليه في سابع عشر رمضان 558هـ/1163م، وجمع له جموعاً كثيرة، وقتل ولديه سليمان وطيبا، أما الثالث وهو الكامل فقام بسجنه هو والقاضي الفاضل لمدة تسعة أشهر[8] فاضطر شاور للهرب إلى فاقوس، ثم لجأ إلى نور الدين محمود في دمشق وطلب منه عسكراً ليكونوا معه ليفتح الديار المصرية، ومقابل ذلك يكون لنور الدين ثلث دخل مصر[9]، فأرسل نور الدين مع شاور جيشاً شامياً بقيادة أسد الدين شيركوه الذي وصل إلى مصر، واقتتل مع الجيش فهزمهم شيركوه، وقتل منهم كثيراً، وقتل ضرغام واستقر

---

(1) المقريزي : اتعاظ الحنفا، ج3، ص196-198.

(2) أبو شامة : الروضتين، ج1، ص258؛ النويري : نهاية الأرب، ج28، ص204.

(3) المقريزي : اتعاظ الحنفا، ج3، ص196.

(4) ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج2، ص 529.

(5) طقوش : تاريخ الفاطميين، ص 418.

(6) ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج2، ص 528؛ المكي : سمط النجوم، ج4، ص6.

(7) المقريزي : الخطط، ج1، ص401.

(8) الصفدي : الوافي، ج6، ص 127.

(9) الحنبلي : الأنس الجليل، ج1، ص312.

أمر الوزراة إلى شاور وأعيد إليها سنة 559هـ/1164م[1]. وعند دخوله القاهرة كان القاضي الفاضل لايزال معتقلاً هو والكامل ابن شاور فأطلق سراحهما، وسعى للقاضي الفاضل عند والده شاور، فأقَّره عوضاً عن ابن الخلال رئيساً لديوان الإنشاء[2] وكان يصحبه في حروبه بصفته مسؤول عن الاتصال بالجهات المختلفة، ومسؤول عن عرض القوات، وعدَّها، وتسجيل المشتركين بالحرب ومن يموت منهم في المعركة[3].

رجع شاور عما اتفق عليه مع نور الدين محمود، وأمر أسد الدين بالرجوع إلى الشام فامتنع، فاستنجد شاور بالفرنج، وخوفهم من نور الدين إن ملك مصر، فسارعوا إلى تلبيته، وطمعوا في مُلك الديار المصرية، وساروا إلى بلبيس، حيث عسكر شيركوه مع جيشه[4]، وسار نور الدين إلى طرف بلادهم ليمنعهم عن المسير، فلم يلتفتوا، وتركوا في بلادهم من يحفظها[5]. وسار ملك القدس أموري في الباقين إلى بلبيس، واستعان بجمعٍ كثير كانوا خرجوا إلى زيارة القدس، وحاصروا شيركوه، والعسكر المصري ثلاثة أشهر، وهو يغاديهم القتال، ويراوحهم، فلم يظفروا منه بطائل، وتم الاتفاق بعد ذلك على الصلح، على أن يدفع شاور لأسد الدين مبلغ ثلاثين ألف دينار، وأن يعود إلى الشام[6].

وقد أرسل نور الدين قائد جنده شيركوه مرةً ثانية سنة 562هـ/1167م إلى مصر، واستعان شاور بالمقابل بالفرنج الذين قدموا إلى مصر، ورغم انتصار شيركوه في معركة البابين على الفرنج لكنهم نجحوا فيما بعد من محاصرته في الإسكندرية، ووافق الطرفان على توقيع الصلح والعودة عن مصر[7].

وقد عاد أسد الدين شيركوه مرة ثالثة إلى مصر سنة 564هـ/1169م بعد استنجاد الخليفة الفاطمي بنور الدين على الفرنج، الذين قدموا من جديد إلى مصر بهدف احتلالها، وقد استطاع شيركوه تخليصَ مصرَ من خطر الفرنج الذين عادوا عن مصر ما إن سمعوا بقدوم جيش أسد الدين شيركوه[8] وبذلك يكون أسد الدين شيركوه قد تمكن بعد ثلاث حملات على مصر من دخول القاهرة وطرد الفرنج تماماً عن مصر.

---

(1) ابن شداد : النوادر، ص36.
(2) المقريزي : المواعظ، ج3، ص113.
(3) ابن شداد : النوادر، ص37.
(4) أبو شامة : الروضتين، ج1، ص140.
(5) الحلبي : زبدة الحلب، ج 1، ص345.
(6) المقريزي : اتعاظ الحنفا، ج3، ص276، 277.
(7) ابن شداد : النوادر، ص76، 77.
(8) المصدر نفسه ، ص 78، 80.

وكان من بين أعمال شيركوه قتل شاور في السابع عشر من ربيع الثاني564هـ/1169م[1]، وبموته انتهت فترة خطرة من تاريخ مصر، وبعدها دخل أسد الدين شيركوه القاهرة منتصراً، ولقب بالملك المنصور أمير الجيوش[2]، وفي حال توليه الوزارة أخذ يتقرب من رجال الدولة الفاطمية، وكان من بينهم القاضي الفاضل نائب رئيس ديوان الإنشاء، فضمه إليه وأصبح من مستشاريه المقربين بحكم مركزه بديوان الإنشاء في القاهرة، وبحكم علاقاته مع الشاميين عن طريق المراسلات، فأعجب شيركوه بأسلوبه الأدبي، وفصاحة لسانه، وكلامه المليئ بالتشابيه، والاستعارات[3].

ب- دور القاضي الفاضل في وزارة صلاح الدين :

لم يكد القاضي الفاضل يذوق طعم الاستقرار في ظل أسد الدين شيركوه حتى توفي الأخير في الثالث والعشرين من جمادي الثاني 564هـ/الثالث والعشرين من آذار 1169م[4]. وبعد وفاته انقسم اهل القصر الفاطمي وحواشي الخليفة من الأستاذين وغيرهم إلى فرقتين : التفت الفرقة الأولى حول مؤتمن الخلافة، أحد الأستاذين المحنكين في القصر الفاطمي، وطالبت تلك الفرقة بالتخلص من نفوذ القوات الشامية بإبعادها عن القاهرة وعن الحكم فيها. والفرقة الأخرى ضمت أتباع أسد الدين بقيادة بهاء الدين قراقوش[5]، فأصرت على اختيار صلاح الدين خلفاً لعمه في الوزارة[6].

لم يقتصر الاختلاف بشأن منصب الوزارة على الساحة المصرية، بل تعداها إلى الصفوف الشامية من قواد أسد الدين فمنهم من طالب بالوزارة لأنفسهم، وكان من بينهم : شهاب الدين محمود الحارمي خال صلاح الدين، والأمير عين الدولة ياروق الياروقي، وأخوه بهاء الدولة، والأمير سيف الدين علي بن أحمد الهكاري المعروف بالمشطوب[7]. وأمام ذلك الانقسام تدخل

---

(1) أبو شامة : الروضتين، ج1، ص176.

(2) الحنبلي : الأنس الجليل، ج1، ص312.

(3) الدمشقي : الدارس، ج1، ص69.

(4) ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج7، ص151.

(5) بهاء الدين قراقوش : أبو سعيد قراقوش بن عبد الله الأسدي الملقب بهاء الدين كان خادم صلاح الدين، وقيل خادم أسد الدين شيركوه عم السلطان صلاح الدين فأعتقه، ولما أستقل صلاح الدين بالديار المصرية جعله زمام القصر، ثم ناب عنه مدة بالديار المصرية وفوض أمورها إليه واعتمد في تدبير أحوالها عليه، وكانت وفاته في مستهل رجب سنة 597هـ/1200م. ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج4، ص91.

(6) المقريزي : اتعاظ الحنفا، ج3، ص307،308.

(7) المصدر نفسه، ج3، ، ص 308.

الخليفة الفاطمي العاضد[1]، وسأل عمن يصلح للوزارة فسار إليه شهاب الدين محمود الحارمي خال صلاح الدين وأرشده إلى تولية صلاح الدين، وكان العاضد قد مال إليه فقال : "والله إني لأستحي من تسريح صلاح الدين، وما بلغت غرضاً في حقه لقرب عهد مقام عمه. فأرسل إليه، وخَلُعَ عليه خُلْعَ الوزارة بالعقد والجوهر، ونعته بالملك الناصر، فتسلم صلاح الدين الوزارةَ في الخامس والعشرين من جمادى الآخرة 564هـ، آذار 1169م[2]، فكانت كلمة العاضد هي الفاصلة بأمر الوزارة، ولقد كتب القاضي الفاضل سجل تولية صلاح الدين بالوزارة، وأبدع خلاله، فافتتحه بمقدمة طويلة تشير إلى صلاح الدين، وأحقيته بالوزارة، وأنَّ اختياره كان بقرار من الخليفة العاضد، وتناول السجل كذلك العديد من القضايا التي تستوجب الرعاية، والاهتمام مثل الأوضاع الاقتصادية لمصر، وحثه على الجهاد[3].

ظل القاضي الفاضل يعمل في ديوان الإنشاء نائباً لرئيسه احتراماً لأستاذه ابن الخلال، إلى أن توفي ابن الخلال سنة 566هـ/1171م، وعين بعدها القاضي الفاضل رئيساً للديوان، وكان ذلك المنصب أقصى ما تمناه بعد صراع دامَ واحداً وعشرين عاماً في مصر، تعرض خلالها لأنواعٍ شتى من المآسي، وأصبح يلقب بالسيد الأجل وبالشيخ الأجل، وكاتب الدست الشريف، وصاحب ديوان الإنشاء[4].

علاقة القاضي الفاضل بصلاح الدين :

استعان صلاح الدين الأيوبي بالقاضي الفاضل في إدارة وزارته في مصر، فجعله وزيره ومستشاره، وأدرك صلاح الدين أن القاضي الفاضل إنسانٌ عظيم عقلاً وعلماً، وفي إمكانه أن يوصله إلى أهدافه في مصر من خلال مصادره الوافرة، وكان الفاضل المتحدث الرسمي بلسان صلاح الدين في الداخل والخارج، وكان أعز عليه من أهله، وولده، فكان لا يقدم على أمر إلا استشاره فيه، ولا يحكم في قضية إلا بتدبيره[5].

أخذ صلاح الدين يعمل على إعداد جيش أيوبي، ليكون نواةً لجيش جديد في مصر، فكان القاضي الفاضل خير دليل لمعرفته التامة بقوات الجيش المصري الفاطمي، من السودان، والأرمن،

---

(1)العاضد : أبو محمد عبد الله الملقب العاضد بن يوسف بن الحافظ بن مهدي بن المستنصر ابن الظاهر بن الحاكم بن العزيز بن المنصور، آخر ملوك مصر من العبيدين، ولد سنة 546هـ/1151م، وتوفي سنة 567هـ/1171م، كان شديد التشيع متغالياً في سب الصحابة. ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج3، ص 109-111.

(2) المقريزي : اتعاظ الحنفا، ج3، ص308؛ طقوش : تاريخ الزنكيين، ص370.

(3) طقوش : تاريخ الزنكيين، ص 370.

(4) المقريزي : الخطط، ج1، ص402.

(5) المصدر نفسه، ج2، ص366.

والمصريين، والديلم، والأتراك، والعربان. وعن طريق عمله في ديوان الجيش وفي ديوان الإنشاء الذي كان يتعامل مع ديوان الجيش، ويشرف على العيون، والرسل، فألم بتلك القوات، ولم يبخل على صلاح الدين بالمعلومات عنهم، بل وجهه في تنظيم الجيش الأيوبي وإدارته، وساعده في إحلال عناصر جديدة فأحلَّ الأكراد والأتراك محل السودان، والأرمن، والبربر[1]، وظل طوال مدة عمله مع صلاح الدين يشرف على عساكرِهِ، ويراقبُ إعدادَها وتنظيمَها ومواردَها المالية، ويصحبها من مصر إلى الشام لتحارب مع صلاح الدين، ومن الشام إلى مصر لتستعد وتتجهز لحملاته ضد الفرنج[2].

دور القاضي الفاضل في الجيش الأيوبي وكشف مؤامرة مؤتمن الخلافة :

استمد القاضي الفاضل أسس تحركاته السياسية في بداية وزارة صلاح الدين من خبرته في القصور الفاطمية، وكانت جهوده التي بذلها في مراقبة كتّاب ديوان الإنشاء، والمسرحين منهم بصفة خاصة، لها دورها الكبير في كشف مؤامرة (مؤتمن الخلافة) قائد جند السودانَ الذي أدرك أن استمرار صلاح الدين في الوزارة، يعني القضاء على الدولة الفاطمية، فاتصل بالفرنج للإحاطة بصلاح الدين، واتصل بملك بيت المقدس عموري الأول و حرَّضه على مهاجمة مصر، وفي حال الاستجابة يخرج صلاح الدين للقائه، فيقبض هو على من تبقى من أصحاب صلاح الدين في القاهرة، ويثب على منصب الوزارة، ويتقاسم البلاد مع الفرنج[3]، لكنه لم يعلم أن الأمور قد تغيرت، وأصبحت العيون مبثوثة في كل ناحية، فكانت تلك العيون على اتصال مباشر بالقاضي الفاضل، الذي كشف المؤامرة التي يدبرها مؤتمن الخلافة، للإطاحة بوزارة صلاح الدين، فعندما علم مؤتمن الخلافة أن مؤامرته كشفت، غادر القاهرة، فأرسل له صلاح الدين من قام بقتله في الخامس والعشرين من ذي القعدة سنة 564هـ/1169م[4].

كان مقتل مؤتمن الخلافة إيذاناً لصراع عنيف بين القوات الفاطمية وصلاح الدين، فقام جند السودان في إثره بثورة كادت تقضي على صلاح الدين، وحكمه، فتجمع السودان في السادس عشر من ذي القعدة 564هـ/1169م، وساروا إلى مركز حكم صلاح الدين، وانضم إليهم الأرمن فوقعت بينهم أكثر من مرة معركة تغلب فيها السودان على قوات صلاح الدين، وفي أثناء تلك المعارك كان الخليفة العاضد في المنظرة ويشرف على الوقعة بنفسه مشجعاً السودان، لكن أخو صلاح الدين شمس الدولة تورانشاه، انتبه إلى تواطؤ القصر مع السودان، فأمر بحرق المنظرة

---

(1) المقريزي : الخطط، ج1، ص86.

(2) المصدر نفسه، ج1، ص87.

(3) ابن الأثير : الكامل، ج11، ص 345، 346؛ طقوش : تاريخ الفاطميين، ص 509، 510.

(4) المقريزي : اتعاظ الحنفا، ج3، ص312.

الجالس فيها العاضد، وعندما رأى السودان ما حدث وكانوا قد فقدوا أحد مقدميهم، هربوا من الموقعة، لكن قوات صلاح الدين تتبعتهم تحرق كل مكان ينزلون فيه[1].

وبذلك يكون صلاح الدين أضعف الخلافة الفاطمية، وواجه كل التمردات التي قامت ضده، وخلال عامين تم تغيير النظام الإداري المصري وتحويله إلى نظام أيوبي سني، ولقد ساهم القاضي الفاضل بذلك التغيير الذي مهد لحكم صلاح الدين المطلق في مصر.

ففي بداية عام 567هـ/1171م، قطع صلاح الدين الخطبة للفاطميين، وحذف اسم العاضد من الخطبة، وخطب باسم الخليفة العباسي المستضيء بأمر الله، وكان العاضد قد اشتد مرضه وتوفي في العاشر من محرم سنة 567هـ/1171م[2].

ج- دوره في توحيد الشام بعد وفاة نور الدين محمود :

بعد وفاة نور الدين محمود 569هـ/1174م، بدأت القيادة الدمشقية تنقسم على نفسها، فنور الدين محمود لم يخلف سوى الملك الصالح إسماعيل، الذي كان بحاجة إلى راعٍ، أو كافل يكفله، ومجموعة من الموظفين العسكريين والمدنيين الذين كان يعتمد عليهم في حياته، وهم شمس الدين ابن المقدم، والقاضي كمال الدين الشهرزوري[3]، وغيرهم فقد حاولوا في أول الأمر أن ينظموا أنفسهم، بتعيين ابن المقدم مقدماً عليهم، وتوكيله بكفالة الملك الصالح إسماعيل، ولكن لم تمض أيامٍ قليلة حتى بدأوا يتنافسون ويتصارعون حول كفالة الملك الصالح، وحول أملاك نور الدين وإرثه[4]. لكن تلك الأفعال لم تعجبْ كمال الدين الشهرزوري، وقال لهم : "المصلحة أن نشاوره (أي صلاح الدين) في الذي نفعله ولا نخرجه من بيننا، فيخرج عن طاعتنا، ويجعل ذلك حجة علينا؛ وهو أقوى منا، لأنه قد انفرد اليوم بملك مصر. فلم يوافق هذا القولُ أغراضُهم، وخافوا أن يدخلَ صلاحُ الدين ويُخرجهم"[5].

---

(1) المقريزي : الخطط، ج1، ص87.

(2) أبو شامة : الروضتين، ج2، ص189.

(3) كمال الدين الشهرزوري : محمد بن عبد الله ابن القاسم أبو الفضل، قاضي القضاة بدمشق، كمال الدين الشهرزوري، الموصلي، وكان فاضلاً ديِّناً أمينًا ثقة، ولد سنة 492هـ/ 1099م، ولى القضاء بدمشق زمن نور الدين محمود، وتوفي سنة 572هـ/ 1176م، بعد تولي صلاح الدين أمور مصر بسنتين. الصفدي : الوافي بالوفيات، ج1، ص 432.

(4) ابن الأثير : الكامل، ج10، ص58.

(5) أبو شامة : الروضتين، ج 2، ص333؛ ابن واصل : مفرج الكروب، ج2، ص3.

ولم يمضِ غير وقتٍ قليل حتى بدأ القاضي الفاضل مهمته بكتابة مجموعة من الرسائل عن صلاح الدين إلى قادة دمشق، وفقهائها، ومن بينهم القاضي كمال الدين الشهرزوري، والقاضي شرف الدين بن أبي عصرون قاضي حلب، معزياً بوفاة نور الدين ومنبهاً إلى ضرورة الوحدة والتعاون، لصد العدو الفرنجي، واتقاء خطره، كما بعث الرسائل إلى الملك الصالح إسماعيل، خليفة نور الدين محمود، يعلمه بأن الخطبة والطاعة في مصر له كما كانت لوالده، ومع الرسالة دنانير مصرية عليها اسم الصالح[1]، وكانت رسائل القاضي الفاضل إلى الملك الصالح إسماعيل تهدف إلى ضرورة استشارة صلاح الدين، كبير قادة نور الدين في أي أمر يتخذونه أو سياسة يتبعونها في الشام[2].

توجه صلاح الدين إلى دمشق سنة 570هـ/1173م، وهناك اجتمع مع أعيان دمشق، وزاره القاضي كمال الدين الشهرزوري الذي قارب القاضي الفاضل بينه وبين صلاح الدين، وتركه قاضياً لدمشق لكن كمال الدين توفي بعد قدوم صلاح الدين إلى الشام بأقل من عامين سنة 572هـ/1176م[3]، كما قارب بين صلاح الدين، وبين ابن المقدم أكبر قادة نور الدين الذين ثاروا على صلاح الدين وعقد الهدنة مع الفرنج ضد، صلاح الدين، فحالما استقر صلاح الدين في دمشق، حتى بدأ القاضي الفاضل ينظم إدارته فيها[4].

قام القاضي الفاضل باختيار أحد كُتاب عصره، لينوب عنه في الكتابة، والإدارة خلال ابتعاده عن صلاح الدين، وهو عماد الدين الأصفهاني الذي غادر دمشق بعد وفاة نور الدين محمود، بسبب نقمته على السلطات الدمشقية، وما سببته من تفرقة، ومؤامرات، إلى بغداد وأقام بالموصل، وهناك مرض فلما شفا من مرضه، وبلغه خروج صلاح الدين من مصر قاصدًا دمشق ليستولي عليها فعزم على الرجوع إلى الشام وخرج 570هـ/1174م، فوصل إلى دمشق، وسار منها إلى حلب، وصلاح الدين يومئذ نازل عليها، فلاقاه في حمص، وقد استولى على قلعتها فلزم بابه، ، وعينه القاضي الفاضل في خدمة صلاح الدين، وقال له : "أنا لا يمكنني الملازمة الدائمة في كل سفرة، وغداً يكاتبك ملوك الأعاجم، ولا تستغني في الملك عن عقد الملطفات، وحل التراجم، والعماد يفي بذلك، ولك أختاره، وقد عُرف في الدولة النورية مقداره"[5].

---

(1) كتاب رقم (9).

(2) ابن الأثير : الكامل، ج11، ص406؛ كتاب رقم (7)

(3) ابن واصل : مفرج الكروب، ج2، ص49.

(4) أبو شامة : الروضتين، ج2، ص333.

(5) ياقوت : معجم الأدباء، ج5، ص425.

شهد القاضي الفاضل مع صلاح الدين، فتح كل من حمص وحماة، ثم عاد بعد إبرام الهدنة مع الفرنج، والصلح مع الحلبيين إلى دمشق في أوائل سنة 571هـ/1175م، وكان الوضع الاقتصادي بالشام سيئاً فطلب صلاح الدين من قواته أن تعود إلى مصر لتشغل إقطاعاتها ثم تعود ثانية إلى دمشق، وأرسل القاضي الفاضل، برفقة العساكر للإشراف عليها في أثناء عودتها إلى مصر، وفي أثناء وجود عساكر صلاح الدين بمصر حدثت بعض الأحداث، التي اضطرت صلاح الدين إلى استدعاء القاضي الفاضل والجنود، وهي تحركات الحلبيين ضد صلاح الدين بالشام، فكتب إليهم مستدعياً، فوصل إليه من مصر الأمراء والفرق وعلى رأسهم القاضي الفاضل الذي وصل بالعساكر المصرية إلى الشام، وتوجه إلى الشمال وشاهد معركة تل السلطان سنة 571هـ/1175م[1]، بين صلاح الدين، وآل زنكي من حكام حلب، والموصل، والتي انهزم فيها آل زنكي الذين كانوا قد استنجدوا بالفرنج[2].

ووقف القاضي الفاضل إلى جانب صلاح الدين يسانده، في صراعه مع حامية حلب ويحثه على أخذها، فحاصر حلب، وضيق عليها، فبادر صاحبها عماد الدين إلى طلب الصلح، فوافق صلاح الدين على ذلك، تم الاتفاق بين الطرفين على أن يتنازل عماد الدين عن حلب مقابل تعويضه من بلاد الجزيرة بسنجار ونصيبين، والخابور، وسروج، والرقة، إلى جانب شرط اشترطه صلاح الدين على عماد الدين بأن يشارك معه بنفسه، وعساكره إذا دعاه للجهاد، وبذلك يكون صلاح الدين تسلم حلب، ووحد بتسليمها جميع الشام، وكان ذلك سنة 578هـ/1182م[3]. وقد عبر القاضي الفاضل في عدد من رسائله عن ارتياحه، لأخذ حلب، لأنها مدخل الفرنج إلى باقي الشام[4].

د- دوره في الجهاد ضد الفرنج :

شكلت مسألة الوحدة، والجهاد حيزاً مهماً، في فكر القاضي الفاضل جاعلاً فتح بيت المقدس، وتحريره من أيدي الفرنج سبباً موجباً لتلك الوحدة، فوجه جُل اهتمامه على الوحدة بين الشام ومصر، واتخذ القاضي الفاضل من احتلال الفرنج لبيت المقدس دافعاً، ومحرضاً قوياً صلاح الدين، وجنوده، والمسلمين عامة، للجهاد في سبيل الله لتحريره منهم. لما له من أهمية دينية عند المسلمين، فقد ركز في كتابته عن صلاح الدين، وإليه على قضيتين أساسيتين للجهاد الحقيقي، وهما : التقيد بالولاء للخليفة العباسي الحاكم، وجهاد الفرنج دفاعاً عن مصر واسترداد للأراضي

---

(1) كتاب رقم (22).

(2) الذهبي : تاريخ الإسلام، ج40، ص236.

(3) ابن واصل : مفرج الكروب، ج2، ص142.

(4) كتاب رقم (36).

المحتلة، وأمضى ما يقارب الثلاثين عاماً من حياته في سبيل تحقيق ذلك الهدف[1]. ولقد عبر عن رؤية موسعة للجهاد في رسالتين : كتب إحداهما إلى الخليفة المستضيء سنة 570هـ/1174م، يطلب تفويضاً لصلاح الدين بكل ما فتحه من بلاد؛ مصر واليمن وبعض الشام[2]، والأخرى إلى المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بالمغرب، يطلب نجدة عسكرية في أثناء معركة عكا سنة 586هـ/1190م[3]، ولم تقتصر مساهمة القاضي الفاضل في الدعوة للجهاد لتحرير ما احتل من أراضي المسلمين، بل كان له مساهمة فعالة في رفع معنويات صلاح الدين وعساكره، واستنهاض هممهم بعد الهزائم والمحن، ومنها ما كان خلال هزيمة معركة تل الصافي عام 573هـ/1177م[4]، حيث كتب رسالة عن صلاح الدين، حاول من خلالها التقليل من قيمة الخسائر وأثرها فعكست تلك الرسالة المعنويات العالية التي كان يتمتع بها صلاح الدين، وبينت دور القاضي الفاضل في التهوين عليه، وتبشيره بالنصر المنتظر[5].

صحب القاضي الفاضل صلاح الدين في جميع غزواته ببلاد الشام، ثم أقام بمصر ليشرف على الإدارة المالية، ويعمل على تجهيز الجيش، والأسطول، وبعدئذٍ عاد إلى الشام بجوار صلاح الدين، وظل بالقرب منه حتى مرضه الخير ووفاته سنة 589هـ/1193م[6]، فقد رافق القاضي الفاضل صلاح الدين في غزواته الأولى في العهد الفاطمي إلى غزة وعسقلان، وأيلة سنة 566هـ/1170م، وكانت تلك الغزوةُ أولُ عملية حربية يشترك فيها القاضي الفاضل مع صلاح الدين ضد الفرنج، وكانت تلك الحملة التي وجهها صلاح الدين إلى غزة، وعسقلان بنصيحة من القاضي الفاضل لأهميتها الاستراتيجية، وإلى حنينه إلى تلك المنطقة المهمة في العلاقة بين مصر والفرنج، فذهب القاضي الفاضل مع صلاح الدين محاطاً بأدلائه، وبعض كتابه من الديوان، متوجهين إلى عسقلان وغزة فهاجم صلاح الدين غزة، ثم اشتبك مع الفرنج على الداروم، فهزم الفرنج وملكهم أموري، وعاد صلاح الدين ومن معه مظفراً غانماً[7].

وهناك مواقف حاسمة للقاضي الفاضل تؤكد مكانته وعلو منزلته في الدولة الصلاحية، فعندما كان السلطان صلاح الدين مقيماً على مرج الصفر في بلاد الشام 571هـ/1176م، طلب الصليبيون الهدنة

---

(1) المقريزي : اتعاظ الحنفا، ج3، ص320.

(2) كتاب رقم (18).

(3) كتاب رقم (98).

(4) ابن شداد : النوادر، ص120؛ البواغنة : دور العلماء، ص 167.

(5) كتاب رقم (90-96).

(6) أبو شامة : الروضتين، ج4، ص359- 364.

(7) المقريزي : اتعاظ الحنفا، ج3، ص320.

منه، فأجابهم إلى ذلك مضطراً لأن الشام كان مجدباً، ثم أرسل جيشه بصحبة القاضي الفاضل إلى الديار المصرية حتى يستريح أفراد الجيش بها من ناحية، وخوفه من حدوث أي اضطرابات في مصر فترة غيابه عنها من ناحيةٍ أخرى[1]، لذلك كان إرساله للجيش بصحبة القاضي الفاضل غاية الحزم والتدبير، ليحفظ ما استجد من الممالك خوفاً عليها ممن هناك.

وكانت الغزوة الثانية التي اشترك فيها القاضي الفاضل، في جنوب فلسطين، معركة الرملة وعسقلان سنة 573هـ/1177م، والذي شجع صلاح الدين على القيام بتلك الحملة، أن فرنج الشام هاجموا حصن حارم الذي كان نور الدين محمود قد استرده أثناء حملة أموري الثانية على مصر سنة 563هـ/1166م، فأراد صلاح الدين أن يخفف الضغط الفرنجي عن الشام وينتهز فرصة خلو مملكة الفرنج من قسمٍ كبير من محاربيها، فاتجه إلى جنوب فلسطين محاطاً بعساكره ومستشاريه، فرافقه القاضي الفاضل في تلك الغزوة مصطحباً معه عدداً من الأدباء والكُتَّاب[2].

توجه كذلك القاضي الفاضل مع صلاح الدين إلى حصن الكرك حيث حاصره حصاراً شديدًا استمر مدة شهر، وراسل أخاه الملك العادل في مصر، وطالبه بالقدوم إلى الكرك، وخرج هو على رأس قواته إلى أن وصل إليها وحاصرها، ورماها بالمنجنيق، ووافاه الملك العادل، وعلم صلاح الدين بخروج الفرنج لنجدة الكرك فانسحب عنها منتصف شعبان 579هـ/1183م[3] راجعاً إلى دمشق وأرسل ابن أخيه تقي الدين إلى مصر نائباً، وفي صحبته القاضي الفاضل، وبعث أخاه على مملكة حلب، وأعمالها[4]. لكن لم يكد القاضي الفاضل يرتاح حتى استدعاه صلاح الدين مع تقي الدين عمر فعاد إلى الشام أوائل سنة 580هـ/1184م، لأنه كان ينوي محاصرة الكرك مرةً ثانية، وقد التقت القوات المصرية بقيادة تقي الدين، والقاضي الفاضل مع قوات صلاح الدين في الكرك في جمادى الأولى 580هـ/أيلول(سبتمبر) 1184م، فحاصر صلاح الدين القلعة مدة قصيرة ثم تخلى عنها بسبب تجمع الفرنج من شتى جهات المملكة لمؤازرتها[5]. وكان القاضي الفاضل، قد بعث الكتب والرسائل إلى الخليفة في بغداد، يشرح فيها أحوال حصار المسلمين للحصن[6].

أما في معركة حطين 583هـ/1187م، فكان القاضي الفاضل في دمشق بسبب الأمراض التي كانت متراكمة عليه، ولمراقبة ما يجري فيها، لأنها أصبحت مركز تجمع قادة المملكة اللاتينية

---

(1) ابن الأثير : الكامل، ج10، ص79.

(2) دجاني : القاضي الفاضل، ص 246.

(3) ابن شداد : النوادر، ص 134، 135؛ أبو شامة : الروضتين، ج3، ص190.

(4) ابن كثير : البداية والنهاية، ج12، ص385.

(5) المصدر نفسه، ، ج4، ص202-209.

(6) المصدر نفسه، ج3، ص205، 206؛ كتاب رقم (69-73).

الأسرى الذين اقتيدوا إلى دمشق، يتقدمهم ابن القاضي شرف الدين بن عصرون، فكان القاضي الفاضل يشاهد تلك الأفواج، ويشاهد الغنائم، وكان يعد ويحصي كعادته أن كل شيء مسجل ومحصى، فأرسل إليه صلاح الدين رسائل تبشره بالنصر، فلما قرأ القاضي الفاضل رسائل صلاح الدين المعلنة نصره، وكانت تصل إليه مترادفة، ذرف الدمع فرحاً، وأسف لأنه لم يحضر ذلك النصر الكبير[1]، فكتب مهنئاً ومشجعاً[2].

كان للقاضي الفاضل دور بالغ الأهمية أثناء حصار الصليبيين لعكا سنة 586هـ/1190م، فقد كان مموجوداً بمصر يدير شؤونَها نيابةً عن صلاح الدين، وكان من عبر موقعه يرتب لصلاح الدين أمورَه، من تجهيز العساكر، وتعمير الأسطول، وحمل المال، ونقل الميرة إلى عكا، وإرسال الكتب السلطانية، ومراسلة صلاح الدين مشيراً ناصحاً، فكان يشجعه، ويحثه على الصبر، ويقوي من عزيمته لمواصلة الجهاد، وعدم اليأس، أو القنوط من رحمة الله تعالى[3].

وقرر القاضي الفاضل في 586هـ/1190م التوجه إلى عكا، والوقوف بجانب صلاح الدين، وكان قد طال شوق كل منهما إلى صاحبه، فأفضى كل منهما إلى الآخر بما كان يسره، ويكتمه من الآراء التي فيها مصالح المسلمين. واصطحب معه بعض موظفي ديوانه في مصر، استعداداً لاستدعاء النجدات، وللقيام بالمفاوضات في حال حدوثها، وإعداد نسخ المعاهدات إذا ما عقد الصلح بين صلاح الدين والفرنج. وقام بمهمات عديدة، على الرغم من الأمراض التي أعاقته عن صحبة صلاح الدين في بعض المعارك، لكن الفرنج كانوا في تلك المعركة أقوى من المسلمين، بسبب الإمدادات التي كانت تصلهم عن طريق البحر، بالإضافة إلى وصول ملك انجلترا ريتشارد إلى عكا في جمادى الأولى 587هـ/مايو 1191م[4]، فكان له الأثر الكبير في رفع الروح المعنوية للفرنج، وتنظيم هجومهم، وزيادة قوتهم مقابل حالة القلق، والارتياب في صفوف المسلمين بعد قدومه فاشتد الحصار على المدينة. وكان صلاح الدين يشن الهجوم محاولاً مشاغلتهم عن مهاجمة المدينة لكنه لم يفلح وزاد الفرنج من هجومهم، فبعث أهل عكا يطالبون بالتسليم، لأن أمل الحفاظ على المدينة أصبح مستحيلاً[5]، فجلس صلاح الدين للمشورة مع كبار رجاله بمن فيهم القاضي

---

(1) ابن كثير : البداية والنهاية، ج3، ص353.

(2) كتاب رقم (78).

(3) أبو شامة : الروضتين، ج4، ص173؛ كتاب رقم (89-95).

(4) ابن شداد : النوادر، ص285.

(5) المصدر نفسه ، ص296- 297.

الفاضل، والعماد الأصفهاني، وابن شداد، لكن سرعان ما رفعت أعلام الفرنج وصلبانهم على سور المدينة، وحدث ذلك في يوم الجمعة 17 جمادى الثانية 587هـ/14تموز(يوليو) 1191م[(1)].

القاضي الفاضل بعد وفاة صلاح الدين :

ظل القاضي الفاضل محافظاً على مكانته المعنوية في البلاد، بعد وفاة السلطان صلاح الدين الأيوبي ليلة الأربعاء السابع والعشرين من صفر 589هـ/شباط 1193م[(2)]، فاهتم العزيز عثمان ملك مصر بأمره وأكرمه، واتخذ منه ناصحاً ومشيراً، إلا أن القاضي الفاضل لم يُظهِرْ تهافتاً أو اندفاعاً في التدخل في شؤون الدولة، فقد آثر الانعزال عن العالم السياسي، وتكريس الأعوام الباقية من حياته لمدرسته الفاضلية، فقد تقسمت الدولة وتقسم العمل في ديوان الإنشاء بين أشخاص عديدين، بينهم أشخاصٌ لم يكنْ راضياً عن تصرفاتهم زمن تنفذه، كصفي الدين بن شكر[(3)] وَزير الملك العادلَ، وضياء الدينَ[4] وزير الملك الأفضلَ، الذي حاول أن يبعده عن أصحاب أبيه ومستشاريه، وعبر عن مشاعره ببعض رسائله الإخوانية، فذكر في إحداها : "وقد تبرمت بالحياة، فبعد أن كنت ممن أخدمه بمكان العين صرت بمكان القذاة"[(5)]. فأدرك القاضي الفاضل أنه بوفاة صلاح الدين تبدد حلمٌ كبير كرّس له قسطاً كبيراً من حياته، فقد تقسمت البلاد التي طالما سعى لتوحيدها بين أبناء صلاح الدين، الذين راحوا يتنافسون في شأنها، ويتناحرون، مندفعين بأنانيتهم، مغفلين أمر العدو الرابض على حدودهم. فراح يدعوهم إلى التحالف وحاول التقريب بينهم، ولم يتركَ مناسبةً تمر من دون أنْ يذكرَهم بضرورة توحيد الصف[(6)].

وقال فيهم : "يسرُّني أن يمد الله ظلَّهم، وأن يجمع شملهم، كما يسوؤني أن تختلف آراؤهم ولا تنتظم أهواؤهم"[(7)].

---

(1) للمزيد انظر أبو شامة : الروضتين، ج4، ص 262- 265.

(2) ابن شداد : النوادر، ص 244.

(3) صفي الدين بن شكر : الوزير صفي الدين عبد الله بن عبد الله بن علي حسين الدميري المالكي ابن شكر، ولد سنة 548هـ/ 1153 م، وتوفي سنة 622هـ/ 1225م. الذهبي : تهذيب سير الأعلام، ج3، ص215- 216.

(4) ضياء الدين : أبو الفتح نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري الكاتب البليغ صاحب المثل الساير انتهت إليه كتابة الإنشاء والترسل ومن جملة محفوظاته شعر أبي تمام والبحتري والمتنبي وزر بدمشق للملك الأفضل فأساء وظلم ثم هرب. ابن العماد: شذرات الذهب، ج5، ص187.

(5) الصلابي : صلاح الدين ، ص305.

(6) ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج7، ص205.

(7) النويري : نهاية الأرب، ج8، ص8.

قام القاضي الفاضل بدور في الصلح بين العزيز عثمان ملك مصر، والأفضل ملك الشام، عندما قصد العزيز الشام لاحتلالها، واضطر إلى أن يعود إلى مصر بعد وصوله إلى أبوابها، بسبب اضطراب العسكر الأسدية فيها، فتتبعه الملك الأفضل أخوه والملك العادل أخو صلاح الدين إلى بلبيس، والملك الأفضل لا يزال مُصِّراً على دخول القاهرة، فأرسل الملك العادل إلى القاضي الفاضل ليصلح بين الأخوين، وكان قد اعتزِل التدخل في أمورهم، لِما رأى من فساد أحوالهم، فسار إلى الملك العادل، واجتمع معه، وأصلح بين الأخوين، ثم اعتزل التدخل في أمورهم نهائياً[1].

وبعد وفاة صلاح الدين لم يجد القاضي الفاضل الحماسة الدينية، أو الوحدة، التي نادي بها صلاح الدين، بل شاهد خلفاءَه يتنازعون على الحكم، تاركين الفرصة للفرنج لاستغلالها في إعادة سيطرتهم على البلاد، واسترجاع ما كان صلاح الدين قد حرَّره من سيطرتهم.

ثامناً : وفاته :

كان للأمراض التي تراكمت على القاضي الفاضل أثرٌ في ابتعاده عن الجو السياسي، فقد كان ضعيفَ البنية كثيرَ المرض، وكان مرضُه يؤخره عن الاشتراك في بعض الغزوات، عندما كان صلاح الدين حياً، وفي رسائله إشاراتٍ كثيرة إلى مرضه وضعفه اللذين ازدادا بعد وفاة صلاح الدين. توفي القاضي الفاضل بعد كل تلك الآلام الجسيمة، والمعنوية في السادس من ربيع الآخر سنة 596هـ/1199م[2]، في القاهرة ودفن في سفح المقطم في القرافة الصغرى[3]، وكانت وفاته في أول يوم لدخول الملك العادل إلى القاهرة الذي استوزر صفي الدين بن شكر، فعندما علم القاضي الفاضل بذلك دعا الله أن لا يحييه إلى تلك الدولة، لما بينهما من علاقات سيئة ومنافسة، فمات ولم ينل أحد منه أذى[4].

ذُكر أنه صلى العشاء في مدرسته الفاضلية، وجلس مع الفقيه ابن سلامة مدرسها، وتحدث معه، وذهب بعد ذلك إلى بيته صحيح البدن، فصيح اللسان، فذهب ابنه إليه فوجده ساكتاً باهتاً، فعرف أن القدر باغته[5]. كما نقل أبو شامة عن العماد : "ثم قضي سعيداً، ومضى شهيداً حميداً، فوفاه الله تعالى الوصية، فكانت له بسيد الأولين والآخرين أسوة، وإن يُعرى عن رداء العمر فله من حلل البقاء في عليين كسوة، ولأنه لم يُبق في مدة حياته عملاً صالحاً إلا وقدمه، ولا عهداً في

(1) المقريزي : السلوك، ص146.
(2) الحنبلي : الأنس الجليل، ج1، ص400.
(3) ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج3، ص162.
(4) ابن كثير : البداية والنهاية، ج13، ص24.
(5) أبو شامة : الروضتين، ج4، ص473.

الجنة إلا أحكمه، ولا عقداً في البر إلا أبرمه، فإن صنائعه في الرقاب، وأوقافه على سبيل الخيرات متجاوزة عن الحساب، لا سيما أوقافه لفكاك أُسارى المسلمين إلى يوم الحساب"[1].

---

(1) أبو شامة : الروضتين، ج4، ص473.

الفصل الثاني

رسائل القاضي الفاضل حول توحيد صلاح الدين مصر والشام والموصل

كتاب رقم (1)[1]

إقامة الخطبة للخليفة العباسي سنة 567هـ/1171م [2]

أرسل صلاح الدين هذا الكتاب بقلم الفاضل مع الخطيب شمس الدين بن أبي المضاء إلى وزير بغداد ، وجاء فيه :

كتب الخادم هذه الخدمة من مستقرِّه، ودينُ الولاء مشروع، وعَلَمُ الجهاد مرفوع، وسُؤْدُدُ السَّواد متبوع، وحكم السَّداد بين الأمَّة موضوع، وسَبَبُ الفساد مقطوع ممنوع، وقد توالت الفتوح غرباً، ويمناً، وشاماً. وصارت البلاد، بل الدُّنيا، والشهر، بل الدهر، حَرَماً حَرَاماً، وأضحى الدين واحداً بعدما كان أدياناً. والخلافة إذا ذُكّر بها أهلُ الخلاف لم يخرُّوا عليها صُمَّاً وعُمياناً، والبِدْعة خاشعة، والجمعة جامعة، والمذلَّة في شيع الضَّلال شائعة؛ ذلك بأنهم اتخذوا عباد الله من دونه أولياءً، وسمّوا أعداءَ الله أصفياءً، وتقطعوا أمرهم بينهم شِيَعاً، وفرَّقوا أمرَ الأمة وكان مجتمعاً، وكذَّبوا بالنَّار فعُجِّلَتْ لهم نارُ الحتوف[3]. ونثرت أقلامُ الظُّبى حروفَ رؤوسهم نَثْرَ الأقلامِ للحروف، ومُزِّقوا كل ممزَّق، وأُخذ منهم كل مُخَنَّق، وقُطِعَ دابرهم، ووعظ آتيهم غابِرُهم، ورَغِمَتْ أنوفهم ومنابرهم، وحقَّتْ عليهم الكلمة تشريداً، وقتلاً، وتمَّتْ كلماتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً، وليس السيف عمن سواهم من كُفَّارِ الفرنج بصائم، ولا الليل عن سير إليهم بنائم، ولا خَفَاء عن المجلس الصَّاحبي، أن من شَدَّ عَقْد خلافةٍ، وحَلَّ عُقَدَ خِلاف، وقام بدولة وقعد بأخرى قد عَجَزَ عنها الأخلاف، والأسلاف. فإنه مفتقرٌ إلى أن يُشْكَرَ ما نَصَحَ، ويُقلَّد ما فتح، ويبلَّغ ما اقترح، ويقدَّمَ حقّه ولا يُطرَّح ويقرَّب مكانه وإن نَزَح، وتأتيه التَّشريفات الشَّريفة، وتتواصل إليه أمدادُ التقويات الجليلة اللطيفة، وتُلبّى دعوته بما أقامَ من دعوة، وتُوصل غزوته بما وصل من غزوة، وترفع دونه الحجب المعترضة، وترسَلَ إليه السحب المروَّضة، فكلُّ ذلك تعود عوائده، وتبدو فوائده، بالدولة التي كشف وَجْهَهُ

---

(1) أبو شامة : الروضتين، ج2، ص 195-197.

(2) كتب نور الدين محمود لصلاح الدين يطلب منه قطع الخطبة للخليفة الفاطمي العاضد لدين الله وإقامة الخطبة للخليفة العباسي المستضيء بأمر الله، فاعتذر صلاح الدين عن ذلك خوفاً من وثوب أهل مصر لميلهم إلى الفاطميين، لكن نور الدين أصر على ذلك، واستشار صلاح الدين أمراءه في ذلك فمنهم من أيد ذلك، ومنهم من عارض خوفاً من أمر المصريين. لكن صلاح الدين قرر الامتثال لنور الدين وكان قد دخل إلى مصر رجل أعجمي يعرف بالأمير العالم رأى ما بهم من الإحجام، فصعد إلى المنبر في أول جمعة من المحرم، ودعا للمستضيء بأمر الله، وفي الجمعة الثانية أمر صلاح الدين الخطباء بمصر، والقاهرة بقطع خطبة العاضد، وإقامة الخطبة للمستضيء بأمر الله، وكان العاضد قد اشتد مرضه فلم يعلمه أهله وأصحابه بذلك، وقالوا إن سَلِم علم بذلك، وإن توفي فلا ينبغي أن ننغص عليه هذه الأيام، وتوفي في يوم عاشوراء سنة 567هـ/1171م، ولم يعلم بشيء. أبو شامة : الروضتين، ج2، ص190، 191؛ابن الأثير : الكامل، ج11، ص368، 369.

(3) الحتوف : جمع حتف وهو الموت. ابن منظور : اللسان، ج1، ص770.

لنصرها، وجرَّد سيفه لرفع منارها، والقيام بأمرها، وقد أتى البيوت من أبوابها، وطلب النُّجعة[1] من سحابها، ووعد آماله الواثقة بجواب كتابها، وأنهض لإيصال ملطفاته وتنجُّز تشريفاته خطيب الخطباء بمصر، وهو الذي اختاره لصعود درجة المنبر، وقام بالأمر قيام من بَرّ، واستفتح بلباس السَّواد الأعظم، الذي جمع الله عليه السَّواد الأعظم، آملاً أنه يعود إليه بما يطوي الرجاءُ فَضْلَ عَقِبه، ويخلِّد الشَّرفَ في عَقِبه.

(1) النُّجعة : طلب الكلأ ومساقط الغيث. ابن منظور : اللسان، ج 5، ص4353.

كتاب رقم (2)[1]

تذكير صلاحِ الدين بدوره في إعادة الخطبةِ بمصر للخلافة العباسية 567هـ/1171م

أرسلَ صلاحُ الدين هذا الكتابَ بقلم الفاضل إلى الخليفة العباسي المستضيئ بأمر الله، سنة 570هـ/1173م .، وجاء فيه:

حتى أتى الدُّنيا ابنُ بَجْدتها[2]، فقضى من الأمر ما قضى، وأسخط مَنْ لله في سُخطه رضا، وجعل وجهَ لابسي السَّوادِ مُبيضاً، فأدرك لهم بثأرٍ نامت عنه الهممُ، ودوَّخت عليه الأممُ، وشفى الصُّدورَ، وجاء بالحق إلى من غَرَّه بالله الغَرورُ، واستبضعَ إلى الله تعالى تجارةً لن تبور[3].

---

(1) أبو شامة : الروضتين، ج2، ص 366–367.

(2) بجدتها : العالم بالشيء المتقن له. ابن منظور : اللسان، ج1، ص27.

(3) تبور : تكسد في السوق. ابن منظور : اللسان، ج1، ص385.

كتب حول فتحُ بلاد النوبة[1] 568هـ/1172م [2]

كتاب رقم (3)[3]

أرسلَ صلاحُ الدينَ هذا الكتاب بقلم الفاضل إلى الخليفة العباسي المستضيئ بأمر الله ، وجاء فيه :

"وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ"[4] : **"سَلَامٌ قَوْلًا مِن رَّبٍّ رَّحِيمٍ"**[5] : **"فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ"**. وصلاةٌ يتبعها تسليم، وكأسٌ يمزُجُها تَسْنِيم. وذِكرٌ من الله سبحانه في الملإِ الأعلى، ورحمةُ الله، وبركاته معلومةٌ من النشأة الأولى، على مولانا الإمام "المستضيء بالله"، المستضاءِ بأنواره، المستضاف بداره، الداعي إلى الحقِّ وإلى طريقٍ مستقيم، الراعي للخَلْق كما يَرْعى النسيم النَّسِيم، العامِّ فضلُه، التامِّ عدلُه، المطروقِ مَوْرِدُ فِنائِه، المصدوقِ في مَوْرِدِ ثنائه؛ المحقوقِ من كل وَلِيٍّ بولائِه، ابنِ السادة الغُرّ، والقادرة الزُّهْر، والذَّادةِ الحُمْس[6]، والشادةِ للحق على الأسّ[7]، سُقاةِ الكَوْثر، وزمزَمَ والسَّحاب، ووُلاَةِ الموْسِم والمَوْقِف والكِتَاب، والموصولِ الأنساب إذا نُفِخ في الصور فلا أنسابَ، والصابِرُون على حساب أنفُسِهم فهم الذين يُؤْتَوْنَ أجْرَهم بغيرِ حِسَاب.

مملوكُ العَتَبات الشريفة وعبْدُها؛ ومن اشتمل على خاطره وَلاَؤُها ووُدُّها، وكانت المشاهدةُ لأنوارِهِ العليةِ التي يوَدُّها، ومَنْ يَقْرُن بفرض الله سبحانه فَرْضها، ويُسابِقُ بطاعته إلى جنةٍ وصفها الله تعالى بقوله **"وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا"** : يَلْثُم وجهَ تُرابها، ويرى على بُعْد دارِهَا الأنوارَ التي تُرى بها، ويقِفُ لدَيْها وقُوفَ الخاضِع، ويَضَع أثقالَ الآثام عن ظهره منها بأشرف المَوَاضِع للواضِع، ويُخْبِتُ إليها إخباتَ الطائح الطائع، ويرجو فضْلَها رجاءَ الطامح الطامِع. ولولا أنَّ الكتابَ حجابٌ بينه وبينَ المَهَابة التي تحُولُ بني المرءِ وقلبهِ، والجلالةِ التي هو في تعظيمها على نُورٍ من رَبِّه، لكان خاطِرُه

(1) بلاد النوبة : جزء من السودان تقع في الجزء الجنوبي من مصر.

(2) اهتم صلاح الدين بفتح بلاد النوبة لحماية مصر من التعدي عليها من جهة الجنوب، فأرسل إليها أخاه الأكبر وهو شمس الدولة تورانشاه بن أيوب في شهر جمادي الآخرة سنة 568هـ/ كانون الثاني 1173م، ففتح إبريم، وسبي وغنم، ثم عاد إلى قوص، ودخل الإسلامُ إلى أماكنِ لم تطرقها سنابكَ خيل المسلمين من قبل، وعين إبراهيم الكردي والياً عليها. ابن الأثير : الكامل، ج11، ص 386، 387؛ طقوش : تاريخ الأيوبيين، ص49- 50.

(3) القلقشندي : صبح الأعشى، ج6، ص506-511 .

(4) سورة الأنبياء : آية 105.

(5) سورة يس : آية 58.

(6) الحُمْس : هم قريش، لأنهم كانوا يتشددون في دينهم وشجاعتهم.ابن منظور : اللسان، ج2، ص995.

(7) الأُسّ : أصل البناء ابن منظور : اللسان، ج1، ص78.

في قَبْضة الهَلَع أسيراً، ولانْقَلَبَ إليه البصَرُ خاسِئاً حَسِيراً[1]، ولكنَّ قلَمَه قد تَشَاجَع، أن كانَ لسانهُ عن الإبانةِ قد رَاجَع. فيقول :

إنَّ اللهَ قد رَفَع مِلَّةَ الإسلام على المِلَل، وكَفَل نَصْرَها وكفى ما كَفَل، وحمى مُلْكَها وحَمَل، وجعل لها الأرضَ في أيْدي المخالِفِين وَدَائع، ومَكَّن يَدَه من أعناقهم فهِي إمَّا تَعْقِد الأغلال أو تَصُوغ الصَّنائع، والحقُّ بها قائمُ العَمُود، والسيفُ الكِفَايةُ لازِمُ الغُمُود[2]؛ والبشائرُ تُمَسّك الصَّباح وتُخَلِّقُ الدُّجى، والخيلُ على طُول ما تشتَمِلِ الوَحَا تنتَعِل الوَجى، والأيامُ زاهرة، والآياتُ باهرة، وعِزَّةُ أوليائها قاهرة، وذِلَّةُ أعدائها ظاهرة، وعناياتُ الله لَدَيْها متوالِيَةٌ متظاهرة. إذا تغرَّب اسمُها يوماً عن مِنْبرٍ أُعِيد إلى وَطَنِه غَدا، وإذا أُوقِدَتْ نارُ فتنةٍ في معصيتها أُوقِدَتْ في طاعتها نارُ هُدىً.

وقد كان النيلُ قِدْما فَرتْ عن الفُرات أبناؤه، وتحصَّنت غُلَل المؤمنين عنه فلم يتغلْغَل إليها ماؤُه، وكادتِ السماءُ لا تُعينه بمطَرها، والأرضُ لا تُوشِّيه بزَهَرها، والأعناق قد تقاصرَ دُون الراجين بدو معصها، والقلوبُ قد لاذَتْ بأستار الجدار معضها، والأوثانُ مَنْصوبة، الآيات مغصوبة، والتِّيجان بغير أكفائِها من الهامات مَعْصُوبة، والدِّين أديانا، والمذَكَّرون بالآياتِ يَخِرّون عليها صُمّاً وعُمْيانا؛ والعادلُونَ بالله قد وَطَّنوا ألسِنَةً وصَرَّحوا عقائد، والمعتدون قد أضَلُّوا فِعالا وضَلُّوا مَقَاصِد، وكراسِيُّ خلافة اللهِ قد أُلْقِيَ عليها أجسادٌ كانت تَقْعُد منها مَقَاعِد، ومنابِرُ كلماتِ الله قد كاد كَيْدُهم يأتِي بُنْيانَها من القواعد، وجَرَتْ على بُنُوة النُّبُوة أشدُّ نَبْوه، وقَصُرَت الأيدي فلا حَدُّ سَوْط ولا حدُّ سَطْوة، ثم قَسَتْ قُلُوبٌ "**فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً**"[3] وغَرَّت الأيَّام وما وعدت، وأوردتِ الهِمَمُ وما أصدَرَتْ، وطغى طُوفان الطُّغْيان ولا عاصِمْ، وسَمَا بناءُ البُهْتان ولا هادم، وضاقتِ الصُّدُور، ورحَلَتْ بِغَلِيلها إلى القُبور، وظُنَّ أن طيّ دولتهم معدُوقٌ بالنُّشُور؛ حتّى إذا جَلاَّها اللهُ لوَقْتِها، وأنْجزَ جموعَ الضَّلال إلى ميعاد شَتَّها، وأراهم آيةَ مَعْدِلته "**وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا**"[4] "**جَاء الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ**"[5] : "**وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ**"[6].

كانت نعمةً من الله يمُنُّها على المملوك أنِ انتَخَبه من بينِ أهلِ أرضه، وانتَخَبَه لإقامة ما أمات الباطلُ من فَرْضه، ويَسَّره لما يَسَّره من نُصْرة الحق وأهلِه، وبَشَّره بما بَشَّره من لواء النصر ومَدَّ من ظِلِّه، وألهمه الهِمَّة التي افترَعَ منها بكرا، ومنحه النُّصرة فما يستطيع العدوُّ صَرْفا ولا نَصْرا.

---

(1) فيه اقتباس من قوله تعالى : "ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ" سورة المُلك : آية 4.

(2) الغمود : جمع غمد وهو جَفن السيف. ابن منظور : اللسان، ج4، ص3292.

(3) سورة البقرة : آية 74.

(4) سورة الزخرف : آية 48.

(5) سورة التوبة : آية 48.

(6) سورة هود : آية 16.

مكَّنه من صَيَاصيهم[1] فحلَّها، ومن دِمَائهم فطَلَّها، ومن سيوفهم ففَلَّها، ومن أقدامهم فاستَزَلَّها، ومن مَنابِرِ دُعَاتهم فعجَّل تَداعِيهَا، ومن أنْفُسِ أعدائهم فأكثر تَنَاعِيهَا، وأبْرزَ الذين كُتِبَ عليهم القتلُ إلى مَضَاجعِهم، ويَسَّر الذين كُتبَ لهم العفوُ إلى مَنَافِعِهم، ونَثَر خَرَزاتِ المُلْك من تِيجانِها، وفَضَح على يدِه وبلسانِه ما زوّرَتْه من أنسابها، وحاسَبَها فأظهر زَيْفَ حِسَابها، ونقَلَها من ظهور أسِرَّتها إلى بُطُون تُرابها، وعمَدَ إلى أهل دَعْوتِها الذين بَسَقُوا بُسُوق النخل فأعلاهم على جُذُوعِها، وحملتْ قلوبُهم فُوفَ[2] الحقد فأخرجها من أكمام[3] طُلُوعِها، فهل ترى لهم من باقِية، أو تسْمَعُ لهم من لاغية، أو تَجِدُ إليهم من صاخية، فأصبَحُوا لا تُرى إلا مساكِنُهم أو مَساكِينُهم، وحُصِدوا حَصْد الحشيش ثم لا تُخافُ سُيُوفهم ولا سكاكِينُهم، واستُنْزِلوا من عِقاب اللُّوح، وسُجِنوا في الهَمِّ من طول مُداوَمة عِقَاب الرُّوح؛ ثم تداركُوا إلى الدَّرْك[4]، واشتركُوا في الشِّرْك، وأقفَرت منهم عِراص[5]، وزَهِدَتْ فيهم خَوَاص، وعُلِم أنْ ليس لله غالِبْ، وأن ليس يفُوته طالِب، وأنَّ الملكَ لله وحده، وأن الويْلَ لمن تجاوز أمْره وحَدَّه.

وكان المملوكُ ممن عَطّل من أوثانهم، وأبْطلَ من أديانهم، فائزاً بحسنة ينظُر إلى حسناتِ خليلِ الله صلى الله عليه وسلم في كَيْده الأصنام وتكسيرِها، وتضليلِهِ عابِدِيها وتكفِيرِها. وعمد المملوك إلى المحاضر فجمَعَها، وإلى المنابر فَرَفعها، والجمعةِ فأطاع من شَرَعها، وأسماءِ صَحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم فوَصَلَها باسمه وما قَطَعها، وعمومتِه رضوانُ الله عليهم فتلاها له وأَتبعها؛ وأشادَ باسم أمير المؤمنين لتكون الصلاةُ جامعة، والذِّكْرى شاملةً والإمامةُ للجماعة شارعة، والهدايةُ للضَّلالة صارعة، فعادتْ للملَّة أعياد، واخضَرَّت للمنبر أعواد، وأُنْجِز للأمة ميعاد.

وبعد ذلك تحاشدتْ أولياءُ الذاهبين وتنادَتْ، وتسَاعتْ نحو مستقَرّ المملوك وتعادَتْ "**وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لاَ غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ**"[6] وكانوا حِميَّة حامِيةً من بني حامٍ كالجراد أرْجُلا، إلا أنَّ الله أصلاها بِنيرانِه، وكالماء مَدًّا إلا أنَّ الله أغرقها بطُوفانِه، وكالنمل لوناً وطُرُقا إلا أنَّ اللهَ حَطَمها بسُلَيْمانه، مع مَنِ انضَمَّ إليهم من ألفافٍ وأطراف، وأوشابٍ[7] وأوباش[1] : من جُنديٍّ كسَبَه سيفُه

---

(1) صياصيهم : حصونهم. ابن منظور : اللسان، ج3، ص2537.

(2) فُوف : القشرة التي على حبَّة القلب. ابن منظور : اللسان، ج4، ص3486.

(3) أكمام : برعومة الشجرة أو الطلع. ابن منظور : اللسان، ج4، ص 3931.

(4) الدَّرْك : اللحاق والوصول إلى الشيء. ابن منظور : اللسان، ج2، ص1364.

(5) عراص : العرصة هي البقعة الواسعة بين البيوت. المصدر نفسه، ج7، ص52.

(6) سورة الأنفال : آية 48.

(7) أوشاب : الأخلاط من الناس. الفراهيدي : العين، ج6، ص291.

ذُلَّة، وطَرَده عن مواقف الكِرام وبمحال الخِزْي أحَلَّه، ومن أرمنيٍّ كانوا يفْزَعُون إلى نُصْرة نَصْرانيَّته، ويعتمِدُون منه على ابن معمودِيَّته، ومن عامِّيّ أجابهم لفَرْط عَمَاه وتَفْرِيط عامِّيَّته؛ فملأ العيونَ سوادُهم الأعظَم، ووراءهم بأسُ اللهِ الذي لا يُرَدّ عمن أجْرَم، فأمطرتهم السيوفُ مطراً كانوا غُثاءً لسيوله الجَوَارف، وعصفَتْ بهم الأعنَّةُ عَصْفا كانوا هَبَاءً لهُوجِهِ العواصِف؛ "**فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ**"[2] وعُوتبت الأنفُس والأرؤس "**قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ**"[3]. وظلَّتْ قِحافُ بني حامٍ تحتَ غِربان الفَلاَ غِرْبانا، وشُوهدتْ ظُلُماتٌ بعضُها فوق بعضٍ أفعالا وألْوانا؛ وصفَتْ مواردُ السلطان من القَذى، وطَفِئَ ذلك الفَحْمُ فلا يَجِدُ النِّفاقُ بعده ما تتعلَّق به الجُذى[4]، وبُلِغت الغاياتُ في كَشْف كلِّ أذى، لا بضَرْب بموعِدٍ يقال فيه إذا.

وكاتب المملوكُ، واسمُ أمير المؤمنين قد كُتب سطرُه على جبين النقديْن، وسُمِع لفظُه من فَم المنبرين بالبلدين، ومدّ كلُّ مِنْبر يدا بل يَدَيْن؛ فحينَ سمع الناسُ قالوا حقّاً ما قاله ذو اليَدَيْن، وصارت تلك الأسماءُ دَبْرَ الآذان ووراءَ الظُّهور، وحصَّلتِ المحبَّةُ العباسية سِرّاً من أسرارِ القلوبِ إذا حُصِّلَ ما في الصُّدُور، والخلائقُ مبايِعةٌ متابعةٌ وافيةٌ بعهده متوافِيَة، داخلون في الحق أفواجاً، سالكون منه شرْعة ومنْهاجا.

والحمد لله الذي جعل أميرَ المؤمنين إماماً لخَلْقه، ووارثا لأرضه ولم يَذَرْ فوق الأرض منازعاً لحقِّه، ولا مناهبا لأرضه، وارتجع له الحقَّ الذي كان نادّا، وردّ عليه الأَمْر الذي لم يكن له غيرُ الله رادّا، وبلَّغ كلَّ مؤمن من إعلاء كلمةِ الإيمان به ما كان له وَادّا، وأخَّذَ بيد انتقامه مَنْ كان عن سبيله صادّا، والإسلام قد استنار كنَشْأته، والزمان قد استدار كهيْئَته، والحقُّ قد قَرَّ في نِصَابه، والأمر قد فَرَّ عن صَوَابه. فقد وفى اللهُ القَرَار له بضمانه، وأخذ بيده ما روى عن ابن عمه صلى الله عليه وسلم وأصفى من لسانه.

فالحمدُ لله الذي صدَقَه وعْدَه، وأورثه الأرضَ وحْده، وجدّدَ عُلاه وأعلى جَدّه، وأسعد نجمَه وأنجمَ سَعْده، ووعده نُجْحه وأنجحَ وَعْده، وأورده وَصْفه وأصفى وِرْدَه.

المملوك ينتظر الأمثلةَ ليتمَثَّلها، والأمانةَ ليتحمَّلَها، والتقليداتِ المطاعةَ ليتلُوَها، والتشريفات الشريفةَ ليَجْلُوَها، والسوادَ ليَجْلِي الحَلَكَ[5] عن ضمائر المبْطِلين، والسيفَ الحالِي لحُكْمه في رقاب

---

(1) الأوباش : الجماعة الكثيرة. ابن منظور : اللسان، ج5، ص4753.

(2) سورة الشعراء : آية 4.

(3) سورة فصلت : آية 11.

(4) الجُذى : القبسة من النار أي الجمرة. ابن منور : اللسان، ج1، 581.

(5) الحلك : شدة السواد. ابن منظور : اللسان، ج1، ص971.

المعَطِّلين، وللآراءِ الشريفةِ فَصْل برهانِها، وفضلُ سلطانها، وأمرها الذي لا يُخْرُج حين يخرج عن عزِّ الملة وتوطيدِ بُنْيانها، وعَزْمها الذي يَرْفَع حين يُرْفَع ظُلمةَ أدخانها. إن شاء الله تعالى".

كتاب رقم (4)[1]

أرسل صلاح الدين هذا الكتاب بقلم الفاضل إلى الخليفة العباسي المستضيئ بأمر الله مذكراً بدوره في فتح النوبة، وجاء فيه :

صلواتُ الله التي أعدّها لأوليائه وذَخّرها، وتحيَّاتُه التي قَذَف بِشُهُبِها شياطينَ أعدائه ودَحَرَها، وبركاتُه التي دَعَا بها كلَّ موحِّد فأجاب، وانقَشَع بها غَمامُ الغَمِّ وظَلاَم الظُّلْم فانجاب عن أَنْجاب، وزكاتُه التي هي للمؤمنين سَكَن، وسلامةُ الذي لا يعتَرِي المُوقِنين في ترديده حَصَرٌ ولا لَكَن –على مولانا عاقِدِ أَلْويةِ الإيمان، وصاحبِ دَوْر الزمان، وساحبِ ذَيْل الإحسان، وغالبِ حِزْب الشيطان؛ الذي زَلْزَلتْ إمامتُه قدَمَ الباطل، وحَلَّت خلافَتُه ترائبَ الدَّهْر العاطل، واقتَضت سيوفُهُ ديونَ الدِّين من كل غرِيمٍ ماطِل، وأمضْت غَرْبَ كل عزم للحقِّ مفلول وأطلعت غاربَ نَجْم كلِّ هُدىً آفِل[2]، وشفَعَتْ يَقَظات استغفاره إلى غافِرِ ذَنْبِ كلِّ غافل؛ وعلى آبائِهِ الغايةِ والمَفْزَعِ، والمَلاَذ في وقتِ الفَزَع، والقائمين بحقوق الله إذْ قَعَد الناس، والحاكمين بعَدْل اللهِ إذ عُدِم القِسْطاس[3]، والمستَضِيئين بأنوار الإلهام الموروُثةِ من الوَحْي إذا عَجَز الاقْتباس؛ والصابرين في البَأساء والضَّرَّاء وحِينَ الباسِ؛ خُزَّانِ الحِكَم، وحُفَّاظها، ومَعانِي النِّعَم، وألفاظِها، وأعلامِ العُلُوم المنشورةِ إلى يوم القيامة، وكالِئِي السُّروح المنتَشرة من كلا سديد الإمامة؛ ومن لا ينفُذُ سهم عَملٍ إلا إذا شُحِذَ بموالاتهم، ولا يتألقُ صبْحُ هدايةٍ إلا إذا استَصْبَح الساري بِدلاَلاتهم.

المملوك يقبِّل الأرضَ بمَطَالع الشَّرَف ومنَازِله، ومرابع المَجْد ومعاقِلِه؛ ومجالس الجُود، ومَحَالِّ السجود؛ ومختَلَفَ أنباء الرحمة المنزَّلة، ومَرْسى أطواد البسيطة المتَزلْزِلة؛ ومفْتَرِّ مباسم الإمامة، ومَجَرّ مساحِب الكرامة؛ ومكانِ جُنُوح أجنحة الملائك، ومشتَجَرِ مناسك المناسك، حيثُ يدخُلون من كل بابٍ مسلِّمين، ويتبعُهمُ ملوكُ الأرض مستسلمين؛ ومَشَاهد الإسلام كيومٍ أنزل فيه الْيَوْمَ أكملْتُ لَكُمْ دِينكُمْ– وينْعقِد الوِلاَية فأما غيره فله قوله : قاتِلُوا الذِّينَ يَلُونَكُمْ؛ ويناجيها بلسان جلّى الإخلاصُ الصادقُ عقِيدتَه، وأنْشَط الولاءُ السابقُ عقيلته؛ وأرهفَ الإيمانُ الناصعُ مَضَارِبَه، وفَسَّح المعتَقَد الناصحُ مذاهِبَه؛ فأعربَ عن خاطِرٍ لم يَخْطُرْ فيه لغيرِ الولاء خَطْره، وقلبٍ أعانه على وُرُود الولاء صفاء المصافاةِ فيه فِطْره – ويخبر أنه ما وَهَنَ عمَّا أوجبتَهْ آلاؤُه ولا وَهي، ولا انْثَنى عزمُه عن أن يقِفَ حيث أظلَّتْ سِدرةُ المنتهى، ووضَحت الآياتُ لأُولي النُّهى. والله سبحانه يزيل عنه في شَرَف المُثُول عوائقَ القَدَر وَموانِعَه، ويكشِفُ له عن قِنَاع الأنوارِ التي ليست همَّتُه بما دُونَ نظرها قانِعة– وكان توجَّه منصوراً بجيشِ دعائِه، قَبْل جيش لِوائه، وبعسكر إقباله، قبل عَسكَرِ قِتاله، وبِنِصَال سُلْطانه، قبل نِصَال أجفانِه؛ لا جَرَمَ أنَّ كتائبَ

---

(1) القلقشندي : صبح الأعشى، ج6، ص511– 515.

(2) آفل : كل شيئٍ غاب. الفراهيدي : العين، ج8، ص337.

(3) القسطاس : أعدل الموازين وأقومها. ابن منظور : اللسان، ج4، ص3626.

الرُّعْب سارت أمامَ الكتائب، وقواضبَ[1] الحَذَر غُمِّضتْ في جُفُونها عيونُ القَوَاضب– وسار أولياءُ أمير المؤمنين الذين تَجَمَّعوا من كلِّ أُمَّة، وتداعَوْا بلسان النِّعمة، وتصرَّفُوا بيد الخِدْمة، وصالوا بسَيْف العَزْمة؛ متواخِيةً نِيَّاتُهم في الإقدام، متآلفةً طَوِيَّاتهم في طاعة الإمام؛ كالبُنْيان المرصوص انتظَاما، وكالغاب المُشْجِر أعلاما؛ وكالنَّهار المانع حديداً وهاجاً، وكالليل الشامل عَجَاجاً عَجَّاجا؛ وكالنهر المتدافِع أصْحابا، والمُشْط المطَّرِد اصطِحابا؛ والأرض ترجل برَجْلهم لما ترفعه الحوافِرُ من غيومها، والسماءُ تَنْزِل نُزولَهم لما تضعه الذَّوابِلُ من نُجُومها؛ فما انتشرت رياضُها المُزْهِرة، وغياضُها المُشْجِرة؛ إلا دَلَّت على أن السَّحاب الذي سَقَاهم كريم، والإنعامَ الذي غَمَرهم عَظِيم والدُّنْيا التي وَسِعتهم من عزمتهم تظْعَنُ[2] وتُقِيم.

ولما عَلِم العدوّ أنَّ الخَطْب المظنونَ قد صَرَّح خطَابُه، والأملَ المخدُوع قد صَفِر وطَابُه؛ راسل ورأى سلَّ السُّيوف يُغْمِده، وماكَرَ وماكَرَّ لعلمه أن الحَتْف يَعْمِده، واندفع هاربا هائِبا، وخَضَع كائِبا كاذبا؛ فمضى المملوك قُدُما، وحَمَّله ظُلْمَه وقد خاب مَنْ حَمَل ظُلْما؛ وأجابه بأنه إن وَطِئَ البِساطَ بِرجْله وإلا وَطِئه برَأسه، وإن قَدم على المملوك بأمله وإلا أقدمه بيَأْسِه، وإن لم يُظهِر أثَرَ التوبة وإلا أقام عليه الحَدَّ بسَكْرة الموت من كأسه؛ فلم يَخْرُجْ من مُرَاوغة تحتها مُغَاوَره، ومُكاسَرة وراءَها مُكاشَرة؛ فاستخار اللهَ في طَلَبه، وانتهز فيه فُرصةَ شَغْل قَلْبِه بريبَة، ولم يَغُرّه ما أُمْلِي له في البلاد من تَقَلُّبِه؛ وسار ولم يَزِلْ مقتحِما، وتقدّم أوّلَ العسكر محتَدِما؛ وإذّا الدار قد ترحَّل أهلُها منها فبانُوا، وظعَنُوا عن ساحتها فكأنَّهم ما كانُوا؛ ولم يبقَ إلا مَواقِدُ نِيرانٍ رحلّتْ قلوبُهُم بضِرَامها، وأثافيُّ[3] دُهمٌ أعجلَتِ المهابةُ ما ردّ سَغَبهم عن طعامِها؛ وغِرْبانُ بَيْنٍ كأنها في الديار ما قُطِع من رؤوسَ بنِي حامِها، وَعَوافِي طير كانت تنتَظِر من أشلائهم فِطْرِ صيامها؛ وعادتِ الرُسلُ المنفِّذة لاقتفاء آثارهم وأداءِ أخبارهم؛ ذا كَرَةَ أنهم لَبِسُوا الليلِ حِدادا على النعمةِ التي خُلِعت، وغسَلُوا بماء الصبح أطامع نفسٍ كانتْ قد تطلعت؛ وأنهم طَلَعُوا الأوعارَ أوعالاً والعِقابَ عِقْبانا، وكانُوا لمَهَابط الأودية سُيُولا ولأعالي الشَّجر قُضْبانا – فرأى المملوك أن الكتابَ فيهم قد بَلَغَ أجَلَه، والعزمَ منهم قد نال أمَلَه، والفَتْك بهم قد أعمل مُنْصُلَه؛ وأن سيوفَ عساكر أمير المؤمنين منَزَّهةٌ أنْ تُرِيق إلا دماءَ أكفائها من الأبطال، وأن تَلْقَى إلا وُجوهَ أنظارِها من الرجال؛ وأن المذكورين نَمْلٌ حَطَمه سليمانُ عليه السلام وجنودُه، ورَمْل أطاره العاصفُ الذي يَسْحَفُه ويَقُده – وأصدر هذه الخدمةَ والبلادُ من معَرَّتهم عارية، والكلمةُ بانخفاضهم غاليةٌ عالية؛ ويدُ الله على أعدائه عادِية، وأنفُسُ المَخَاذيل في وَثَاق مَهَابته العالية عانِيَة – فرأى المملوك أن يُرتِّب بعده الأميرَ فلانا ليبْذُل الأمانات، لسُوقِه أهل البلاد ومُزارِعيها، ويفصل المحاكَماتِ، بين مُتابعي السلطنة ومُطاوِعيها، ويُفَسِّح مجالَ الإحسان لمُعاوِدِي المواطن ومُراجِعيها؛ فيَعْمُر من البلاد ما قد شَغَر، ويُشْعِر

(1) قواضب : قواطع. المعجم الوسيط، ج2، ص741.

(2) تظعن : تسير وترتحل. المعجم الوسيط، ج2، ص 576.

(3) أثافي : الجماعة والعدد من الناس. ابن منظور : اللسان، ج9، ص3.

بالأمنةِ مَنْ لاشَعَر؛ فإنَّ مُقَام المملوك ومَنْ معه من عساكر تمنَعُ الشمسَ من مَطْلَعِها، وتردُّ حرْية البحر عن موقِعِها؛ مما يَضُرُّ بالغلال ويَنْسِفها، ويُجْحِف[1] بالرَّعايا ويُعْسِفها.

فالحمد لله الذي جعل النصرَ لائذاً بأعطاف اعتزامه، وأنامِلَ الرُّعْب السائر إلى الأعداء محرّكةً عَذَباتِ أعلامه؛ والعساكِرَ المناضلةَ بسلاح ولائه، تُغْنِي بأسمائها عن مُرْهَفَاتها، والكتائب المقاتلةَ بشعارِ عَلاَئه، تقرأ كُتُبَ النَّصر من حُمَاتها.

---

(1) يجحف : أي تناول بعضهم بعضاً بالسيوف. ابن منظور : اللسان، ج1، ص551.

كتاب رقم(5)[1]

غزوةُ الكرك سنة 568هـ/1172م [2]

أرسلَ صلاحُ الدين هذا الكتاب بقلم الفاضل إلى نور الدين، وجاء فيه :

"سَبَبُ هذه الخدمة إلى مولانا الملك العادل، أعزَّ الله سلطانه، ومدَّ أبداً إحسانه، ومكن بالنَّصْر إمكانه، وشَيَّد بالتأييد (أركانه)[3]، ونصر أنصاره، وأعان أعوانه، علم المملوك بما يؤثرُه المولى بأن يقصد الكُفَّار بما يَقُصُّ أجنحتهم، ويقلُّ أسلحتهم، ويقطع موادَّهم، ويخرِّب بلادهم. وأكبر الأسباب المعينة على ما يرومُه من هذه المصلحة ألا يبقى في بلادهم أحدٌ من العُرْبان، وأن ينتقلوا من ذُلِّ الكُفْر إلى عِزِّ الإيمان. ومما اجتهد فيه (غاية)[4] الاجتهاد، وعَدَّه من(أعظم)[5] أسباب الجهاد ترحيلُ كثير من أنفارهم، والحرصُ في تبديل دارهم، إلى أن صار العدوُّ اليوم إذا نهض لا يجد بين يديه دليلاً، ولا يستطيع حيلة، ولا يَهْتَدي سبيلاً".

---

(1) أبو شامة : الروضتين، ج 2، ص 239–240 (أ)؛ ابن واصل : مفرج الكروب، ج2، ص225(ج).

(2) روى ابن الأثير أن صلاح الدين رحل بجميع عساكره من مصر سنة 568هـ /1173م، يريد قصد بلاد الفرنج وحصار الكرك، فأرسل إلى نور الدين، ليتفقا على قصد بلاد الفرنج من جهتين كل واحد منهما في جهة بعسكره خاصةً بعد أن أنكر نور الدين عودة صلاح الدين من حصار حصن الشوبك سنة 567هـ/ 1171م، وأراد حينها نور الدين قصد مصر وأخذها من صلاح الدين فأرسل صلاح الدين يعتذر لنور الدين ويعد نفسه بالحركة على ما يقرره نور الدين، لذلك بعث صلاح الدين رسالةً للاتفاق على خروج كلٍ منهما من جهته والالتقاء لقتال الفرنج، فلما وصل كتاب صلاح الدين إلى نور الدين فرق الأموال وحصَّل الأزواد، وسار إلى الكرك فوصل إلى الرقيم ولما سمع صلاح الدين بقربه خافه هو، وجميع أهله واتفقوا على العودة إلى مصر، وترك الاجتماع بنور الدين، لأنهم علموا أنه إن اجتمعا كان عزله على نور الدين سهلاً، فلما عاد صلاح الدين إلى مصر، أرسل يعتذر لنور الدين بأنه استخلف والده نجم الدين بن أيوب على ديار مصر، وأنه مريض جداً، فخاف أن يموت وتخرج البلاد من أيديهم، فلما وصل الرسول إلى نور الدين عظم عليه وعلم المراد من العودة. الكامل، ج11، ص 393.

إن هذه الوثيقة غاية في الأهمية لأنها تتعارض مع رواية ابن الأثير وتنسفها لأن صلاح الدين حسب الوثيقة ذهب إلى الكرك منفرداً، ولما انتهى من الحملة أرسل هذا التقرير إلى نور الدين حول هدف الحملة ونتائجها. وما يؤكد على صحة وثيقة الفاضل ما ورد عند وليام الصوري، المؤرخ الصليبي الذي كان موجوداً في المنطقة بأن نور الدين لم يظهر في المنطقة وإنما تحدث عن صلاح الدين بأنه اجتاح الإقليم المحيط بالكرك وأشعل فيه النيران. الصوري : الحروب، ج4، ص 154.

(3) أ : مكانه.

(4) ج : عامة.

(5) ج : أفضل.

كتاب رقم (6)[1]

مؤامرةُ عمارة اليمني الشاعر وأصحابُه وصلبُهم سنة 569هـ/1173م [2]

أرسل صلاح الدين هذا الكتاب بقلم الفاضل إلى نور الدين، وجاء فيه :

قصر هذه الخدمة على متجددٍ سار للإسلام وأهله، وبشارة مؤذنة بظهور وعد الله في إظهاره على الدين كُلِّه، بعد أن كانت لها مقدِّمات عظيمة، إلا أنها أسفرت عن النُّجْح، وأوائل كالليلة البهيمة[3] إلا أنها انفرجت عن الصُّبْح، فالإسلام ببركاته البادية وفتكاته الماضية قد عاد مستوطناً بعد أن كان غريباً، وضرب في البلاد بجِرَانه[4] بعد أن كاد الكفر يتم عليه تخيلاً عجيباً، إلا أنَّ اللهَ سبحانه أطلَعَ عَلى أمرها من أوَّله، وأظهر على سِرِّها من مستقبله، والمملوك يأخذ في ذكر الخبر، ويعرض عن ذكر الأثر.

لم يزل يُتوسم من جُنْد مصر، ومن أهل القصر، بعدما أزال الله من بِدْعتهم، ونقضَ من عُرى دولتهم، وخفض من مرفوع كلمتهم، أنهم أعداءٌ وإن قعدت بهم الأيام، وأضدادٌ وإن وقعت عليهم كلمةُ الإسلام، وكان لا يحتقر منهم حقيراً، ولا يستبعد منهم شراً كبيراً، وعيونه لمقاصدهم موكَّلة، وخطراته في التحرز منهم مستعملة. لا تخلو سنةٌ تمر، ولا شهر يكرّ، من مكرٍ يجتمعون عليه، وفساد يتسرَّعون إليه، وحيلةٍ يبرمونها، ومكيدةٍ يتمِّمونها، وكان أكثر ما يتعللون به، ويستريحون إليه المكاتبات المتواترة، والمراسلات المتقاطرة، إلى الفرنج خذلهم الله تعالى، التي يوسِّعون لهم فيها سُبُلَ المطامع، ويحملونهم فيها على العظائم الفظائع، ويزيِّنُون لهم الإقدام والقدوم، ويخلعون فيها رِبْقة الإسلام خلع المرتدِّ المخصوم. ويدُ الفرنج بحمد الله قصيرة عن إجابتهم، إلا أنهم لا يقطعون حَبْلَ طمعهم على عادتهم.

---

(1) أبو شامة : الروضتين، ج2، ص 286–287.

(2) عمارة اليمني : هو أبو محمد عمارة بن أبي الحسن علي بن زيدان بن أحمد المكي اليمني، الملقب بنجم الدين الشاعر المشهور، كان موطنه تهامة باليمن، حج بيت الله الحرام سنة 549هـ/1154م، وفي الثاني من رمضان سنة 569هـ/1173م، قبض صلاح الدين على جماعة من أعيان الدولة الفاطمية، كان عمارة اليمني من بينهم هو، وعبد الصمد الكاتب، وداعي الدعاة وغيرهم من جند مصر ورجالتهم من السودان، بلغه أنهم يجتمعون على إثارة الفتن واتفقوا مع السودان وكاتبوا الفرنج، أدخل الجماعة المصريين معهم في تلك المؤامرة الأمير زين الدين على بن نجا الواعظ، فلما علم ابن نجا بذلك أعلم صلاح الدين بحقيقة الأمر فطلب منه صلاح الدين ملازمتهم ومخالطتهم وتعريفه بما يتآمرون عليه أولاً بأول، وبعد التأكد من حقيقة أمرهم أمر صلاح الدين بصلبهم. ابن الأثير : الكامل، ج11، ص398–400؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج3، ص 432؛ بن تغري بردي : النجوم الزاهرة، ج 6، ص 64- 65.

(3) الليلة البهيمة : هي الليلة التي لا ضوء فيها إلى الصباح. المعجم الوسيط، ج1، ص74.

(4) جرانه : أي ثبت واستقر. المعجم الوسيط، ج1، ص119.

وكان ملك الفرنج كلما سَوَّلت له نفسه الاستتار في مراسلتهم، والتحيُّلَ في مفاوضتهم، سَيَّرَ جُرجُ[1] كاتبُه رسولاً إلينا ظاهراً وإليهم باطناً، عارِضاً علينا الجميل الذي ما قبلته قَطُّ أنفسنا، وعاقداً معهم القبيح الذي يشتمل عليه في وقته علمنا، ولأهل القَصْر، والمصريين في أثناء هذه المدد رسل تتردَّد، وكتب إلى الفرنج تتجدَّد.

والمولى عالمٌ أنَّ عادة أوليائه المستفادة من أدبه؛ ألا يبسطوا عقاباً مؤلماً، ولا يعذِّبوا عذاباً محكماً، وإذا طالَ لهم الاعتقالُ، ولم ينجعْ السؤالُ، أَطلق سراحهم، وخَلَّى سبيلهم، فلا يزيدهم العفو إلا ضراوة، ولا الرِّقَّة عليهم إلا قساوة. وعند وصول جُرج في هذه الدفعة الأخيرة رسولاً إلينا بزعمه، ورد إلينا كتابٌ ممن لا نرتاب به من قومه، يذكرون أنه رسولُ مخاتلة[2]، لا رسول مجاملة، وحامل بَلِيَّة، لا حامل هديَّة، فأوهمناه الإغفال عن التيقُّظ لكل ما يصدر منه وإليه، فتوصَّل مرَّة بالخروج ليلاً، ومرَّة بالركوب إلى الكنيسة، وغيرها نهاراً، إلى الاجتماع بحاشية القصر وخُدَّامه، وبأمراءِ المصريين وأسبابِهم، وجماعةٍ من النصارى واليهود، وكلابهم، وكُتَّابهم، فدسسنا إليهم من طائفتهم مِنْ داخلِهم، فصار ينقل إلينا أخبارَهم، ويرفعُ إلينا أحوالَهم. ولما تكاثرتْ الأقوالُ، وكاد يشتهرُ علمُنا بهذه الأحوال، استخرنا الله تعالى، وقبضنا على جماعة مفسدة، وطائفة من هذه الجنس متمرِّدة، قد اشتملت على الاعتقادات المارقة، والسَّرائر المنافقة، فكُلاًّ أخذ الله بذنبه، فمنهم من أقرَّ طائعاً عند إحضاره، ومنهم من أقرَّ بعد ضربِه، فانكشفت أمورٌ أُخَرُ كانت مكتومةً، ونُوَبٌ[3] غير التي كانت عندنا معلومة، وتقريراتٌ مختلفة في المراد، متفقةٌ في الفساد.

ثمَّ إنهم عيَّنوا خليفةً ووزيراً مختلفين في ذلك، فمنهم من طلب إقامة رجل كبير السن من بني عم العاضد ومنهم من جعل ذلك لبعض أولادِ العاضد، وإنْ كانَ صغيراً، واختلفَ هؤلاء في تعيين واحدٍ من ولدين له، وأما بنو رُزِّيك، وأهل شاور فكلٌّ منهم أراد الوزارة لبيتهم من غير أن يكون لهم غرض في تعيين الخليفة.

وكانوا فيما تقدَّم، والمملوك على الكَرَك[4]، والشَّوْبك[5] بالعسكر، قد كاتبوهم، وقالوا لهم: إنه بعيدْ، والفرصةُ قد أمكنت، فإذا وصلَ الملكُ الفرنجيُّ إلى صَدْر، أو إلى أَيْلةَ، ثارت حاشية القَصْر، وكافة الجُنْد، وطائفة السُّودان، وجموع الأرمن، وعامة الإسماعيلية، وفتكتْ بأهلنا وأصحابِنا بالقاهرة.

---

(1) جُرجُ : جُرْج هو كاتب الملك الفرنجي عموري، وصل إلى القاهرة في مراسلة إلى صلاح الدين. الحياري،: صلاح الدين وعصره، ص 170.

(2) مخاتلة : مخادعة. ابن منظور : اللسان، ج2، ص 1100.

(3) نُوبٌ : جمع نائبة وهي المصيبة. ابن منظور : اللسان، ج5، ص1569.

(4) الكرك : قلعة حصينة جداً، في طرف الشام من نواحي البلقاء. ياقوت : معجم البلدان، ج4، ص415.

(5) الشوبك : قلعة حصينة في أطراف الشام، بين عمان وأيلة. ياقوت : معجم البلدان، ج3، ص420.

ولما وصل جُرج كتبوا إلى الملك الفرنجي، أن العساكر متباعدة في نواحي إقطاعاتهم، وعلى قرب من موسم غلاَّتهم، وأنه لم يبقَ في القاهرة إلا بَعْضُهم، وإذا بعثتَ أسطولاً إلى بعض الثغورِ أنهضَ فلانٌ مَنْ عنده وبقيَ في البلد وحدَه، ففعلنا ما تقدَّم ذكره من الثورة.

وفي أثناء هذه المدة كاتبوا سِناناً[1] صاحب الحشيشيَّة[2] بأن الدَّعوة واحدة والكلمة جامعة، وأن ما بين أهلها خلاف إلا فيما لا يفترقُ به كلمة، ولا يجب به قعودٌ عن نُصْرة. واستدعوا منه من يُتمّم على المملوك غيلة، أو يبيت له مكيدة وحيلة، "**وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ**"[3] وكان الرسول إليهم عن المصريين خالُ ابنِ قَرْجَلَّة، المقيم الآن هو، وابن أخته عند الفرنج.

ولما صحَّ الخبرُ، وكان حكمُ الله أولى ما أخذ به، وأدبُ اللهِ أمضى فيمن خرجَ عن أدبه، وتناصرتْ من أهل العلم الفتاوى، وتوالتْ من أهل المشورة بسبب تأخيرِ القتل فيهم المراجعاتُ والشكاوى. قتل اللهُ بسيف الشَّرْعِ المطهَّر جماعةً من الغُواة الغُلاة، الدُّعاة إلى النَّار، الحاملين لأثقالهم وأثقال من أضلوه من الفُجَّار، وشنقوا على أبواب قصورهم، وصُلبوا على الجُذُوع المواجهة لدورهم، ووقع التتبُّعُ لأتباعهم، وشُرِّدت طائفة الإسماعيلية[4] ونفوا ونودي بأن يُرَّحلَ كافَّةُ الأجنادِ وحاشيةُ القصرِ وراجلُ السُّودان إلى أقصى بلادِ الصَّعيد. فأما مَنْ في القصر فقد وقعتْ الحوطة[5] عليهم، إلى أن ينكشف وَجْهُ رأي يمضي فيهم. ولا رأي فوق رأي المولى، والله سبحانه مستخار، وهو مستشار، وعنده من أهل العلم من تطيب النفس بتقليده، وتمضي الحدود بتحديده، ورأى المملوك إخراجهم من القصر، فإنهم مهما بقوا فيه، بقيت مادَّةٌ لا تنحسم الأطماعُ عنها، فإنه قِبْلة للضَّلال منصوبة، وبِيْعَة للبدع محجوبة.

---

(1) سنان : هو سنان بن سلمان بن محمد بن راشد ابن البصري، كبير الحشيشية. الذهبي : سير الأعلام، ج21، ص 182، 183.

(2) الحشيشية : فرقة من الإسماعيلية الباطنة، كانت الجناح العسكري للإسماعيلية النزارية التي كان داعيها الأكبر هو الحسن بن الصباح، وأصل التسمية بالحشاشين؛ لأنهم كانوا يتعاطون الحشيشة؛ ليسهل على الحسن قيادتهم وأن يمتثلوا لأوامره. الحفني : موسوعة الفرق والمذاهب الإسلامية، ص 185، 186.

(3) سورة البروج : آية 20.

(4) الإسماعيلية : إحدى فرقِ الشيعة الباطنية، زعموا أن الإمامُ بعد جعفر الصادق هو ابنُه إسماعيل وكان أبوه شديدَ المحبة له والبرَّ به، وكان قومٌ من الشيعة يظنون في حياة أبيه أنه القائمُ بعده والخليفة له، توفي إسماعيل سنة 133هـ/750م، في حياة أبيه؛ فزعم الإسماعيلية أن إسماعيل لم يمت، ولا يموت حتى يملك الأرض ويقوم بأمر الناس. الحفني : موسوعة الفرق، ص43.

(5) الحوطة : من حاط وهي بمعني الحيطة والحذر. المعجم الوسيط : ج1، ص 207.

كتاب رقم(7)[1]

تعزيةُ صلاحِ الدين للصالحِ إسماعيل[2] بوفاة نور الدين سنة 569هـ/1173م [3]

أرسل صلاح الدين هذا الكتابَ بقلم الفاضل إلى الصالح إسماعيلَ لتعزيتِه بوفاة والده وجاء فيه :

ورد خبرٌ من جانب العدوِّ اللعين، عن المولى نورِ الدين، أعَاذ الله تعالى فيه من سماع المكروه، ونوَّر بعافيته القلوبَ والوجوه، واشتدَّ به الأمر، وضاق به الصَّدْر، وانقصم بحادثه الظَّهر، وعَزَّ فيه التثبتُ وأعوزَ الصَّبرُ. فإن كان –والعياذ بالله– قد تَمَّ، وخَصَّه الحكم الذي عَمَّ، فللحوادث تُذخرُ النِّصالُ، وللأيام تُصطنعُ الرِّجالُ، وما رَتَّبَ الملوكُ ممالَكها إلاّ لأولادِها، ولا استودعتْ الأرضُ الكريمة البذَر إلا لتؤديَ حَقَّها يومَ حَصَادِها، فاللهَ اللهَ أنْ تختلفَ القلوبُ والأيدي، فَتبْلُغَ الأعداءَ مرادها، وتَعْدَمَ الآراء رشادَها، وتنتقلَ النِّعَمُ التي تعبثْ الأيام إلى أن أَعْطَتْ قيادَها، فكونوا يداً واحدةً، وأعضاداً متساعدة، وقلوباً يجمعها وُدّ، وسيوفاً يضمُّها غِمْد، ولا تختلفوا فتتكلوا ﴿**وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ**﴾[4] وقوموا على أمشاطِ الأَرْجُل، ولا تأخذوا الأَمْرَ بأطراف الأَنْمُل، فالعداوة محدقة بكم من كلِّ مكان، والكُفْرُ مجتمعٌ على الإيمان. ولهذا البيتِ منا ناصرٌ لا يخذُله، وقائمٌ لا يسلمه، وقد كانتْ وصيتُه إلينا سبقتْ، ورسالته عندنا تحَقَّقَتْ، بأن ولدهَ القائمَ بالأمر، وسعدَ الدين كُمُشْتِكِين الأتابك بين يديه، فإن كانتْ الوصيةُ ظهرت وقُبِلَتْ، والطَّاعة في الغيبةِ والحضورِ أُدِّيتْ وَفُعلَتْ، وإلا فنحنُ لهذا الولد يدٌ على من ناواه، وسَيْفٌ على من عاداه. وإنْ أسفرَ الخبرُ عن معافاةٍ فهو الغرض المطلوب، والنذر الذي يحل على الأيدي والقلوب.

---

(1) أبو شامة : الروضتين، ج2، ص 319–320.

(2) الصالح إسماعيل : الملك الصالح أبو الفتح إسماعيل ابن صاحب الشام نور الدين محمود ابن الأتابك، تملك الشام وهو ابن إحدى عشر سنة، كان مقيماً في دمشق؛ ثم رحل إلى حلب، وكان شاباً ديِّناً، خيِّراً، مرض بالقولنج خمسة عشر يوماً، عرض عليه طبيبه خمراً للتداوي فأبى وقال : "قد قال نبينا صلى الله عليه وسلم "إنَّ الله لم يجعل شفاء أمتي فيما حرم الله"، ولعلي أموت وهو في جوفي، وتوفي في رجب سنة 577هـ(نوفمبر1181م). الذهبي : سير الأعلام، ج21، ص 110، 111؛ ابن كثير : البداية والنهاية، ج12، 295.

القولنج هو : ألم في القولون . المقري : المصباح المنير، ج2، ص518.

(3) أرسل صلاح الدين كتاب إلى الملك الصالح إسماعيل يستوثق من خبر وفاة نور الدين، ويؤكد تبعيته للبيت الزنكي، يدعو الأمراء إلى احترام وصية نور الدين محمود في ولده الصالح، والتأكيد على ضرورة الوحدة والحذر من مخاطر الفرنج. أبو شامة : الروضتين، ج2، ص320.

(4) سورة الأنفال : آية 46.

كتاب رقم(8)[1]

إقامة صلاح الدين الخطبة للصالح إسماعيل سنة 569هـ/1173م

أرسل صلاحَ الدينِ هذا الكتابَ بقلم الفاضلِ إلى الصالح إسماعيلَ ، وجاء فيه :

(وأما العدوُّ –خذله الله تعالى–، فوراءه من الخادم من يطلبه طلبَ ليلٍ لنهاره، وسيلٍ لقَراره، إلى أن يزعجَه من مجاثمِه، ويستوقِفَه عن مواقف مغانمِه، وذلك مِنْ أقلِّ فروضِ البيت الكريم وأيسر لوازمه)[2]، أصَدَرَ هذه (المكاتبة)[3] يومَ الجمعة رابعَ ذي القعدة، وهو اليومُ الذي أقيمت فيه الخطبةُ بالاسمِ الكريم، وصرَّح فيه بذكرِهِ في الموقفِ العظيم، والجمعُ الذي لا لغوَ فيه ولا تأثيم. وأشبه يومَ الخادم أمسَه في الخدمة، ووفَّى ما لزَمه من حقوقِ النِّعمة، وجمع كلمةَ الإسلامِ عالماً أنَّ الجماعة رحمةٌ. واللهُ تعالى يخلِّد مُلْكَ المولى الملكِ الصَّالح، ويُصلحُ به وعلى يديه، ويؤكد عهود النَّعْماءَ الراهنةِ لديه، ويجعلُ للإسلامِ واقيةً باقيةً عليه، ويوفّق الخادمَ لما ينويه من توثيقِ سُلْطانه وتشييدهِ، ومضاعفةِ مُلكه ومزيدِه، وتيسيرِ منالِ كلّ أملٍ صالحٍ وتقريبِ بعيدَه، إن شاء الله تعالَى[4].

---

(1) أبو شامة : الروضتين، ج2، ص 320(أ)؛ ابن واصل : مفرج الكروب، ج2، ص4 (ج).

(2) زيادة في أ.

(3) أ : الخدمة.

(4) يؤكد صلاح الدين في هذا الكتاب على دخوله في طاعة الصالح إسماعيل والخطبة له وأنه ماضٍ على طريق مجاهدة الفرنج.

كتاب رقم (9)[1]

تأكيد صلاح الدين على الطاعة للصالح إسماعيل سنة 569هـ/ 1173م [2]

أرسل صلاحُ الدين هذا الكتاب بقلم الفاضل إلى الصالح إسماعيل، وجاء فيه :

الخادِمُ مستمرٌ على بَدْأته من الاستشرافِ لأوامرها، والتعرُّضِ لمراسمها، والرَّفْع لكْلمتها، والإيالة[3] لعسكرها، والتحققِ بخدمتها، في بواطنِ الأحوال وظواهرِها، والترقُّبِ لأنْ يُؤمر فَيُمتَثَلَ، ويُكلفَ فيحتمل، وأن يُرْمى به في نحرِ عدوهِ فيتسدَّد بجهده، ويُوفي أيامَ الدولة العالية يوماً يكشفُ اللهُ فيه للمولى ضميرَ عبدِه.

---

(1) أبو شامة : الروضتين، ج2، ص 321.

(2) بعث صلاح الدين إلى الملك الصالح إسماعيل بتأكيد الطاعة له في مصر وضرب السكة باسمه والخطبة له فيها، وأرسل يهنئه بالملك وأرسل دنانير مصرية عليها اسمه ليعرفه أن الطاعة له كما كانت لأبيه. ابن الأثير: الكامل، ج11، ص405.

(3) الإيالة : السياسة. المقري : المصباح المنير، ص23.

كتاب رقم (10)[1]

إستنكار صلاح الدين الهدنة بين الفرنج والدمشقيين سنة 569هـ/1173م [2]

أرسلَ صلاحُ الدين هذا الكتابَ بقلم الفاضل إلى الشيخِ شرفِ الدين بن أبي عصرون بدمشق وجاء فيه :

(لو كاتبنا حضرةَ سيدِنا أدامَ اللهُ الإمتاع ببقائِه، وأحسن الدفاع عن حوبائِه، ولا أعدَم الإسلامُ ما لبسَه من أنوارِه، وأضوائِه، وأحيا العلمَ وأهله بما يجودهم من صوب صوابه، وفيض أنوائه. بقدر ما نفترضه من تعظيمِه وإكبارِه، وتعرفه من فضلهِ الذي يشقُ على الغابرين فضلاً عن فضلاء الحاضرين شق غُباره. لملأنا الطُرُقات رُسلاً، ولم نجعل له غير قراءتها شغلاً، ولكننا نستشهد من قلبِه شاهداً عدلاً، ونضمر فيهِ حباً من تمام لذته أنَّا لا نسمع فيه عدلاً، ونبذل له وداً لا تدخل لولا عليه ولا إلا. ونصف من حسناته التي يتعطل بها المسكُ والكافور، وتتعطر بها السهول والوُعور، ويقولُ فيها المؤمن ما قال الكفُور، ولا يستطيع جحدها وهل يستطيع ظلام الليل إخفاء النور؟ ولا يتعاطى السابق مجاراتها إلا أضرب سالياً أو ضرب بينها وبينه بسور، ولاتزال آثارها من المحبوب المؤثر وأخبارها م المنقولِ المأثور. وقد علم ما كان من نفوذ قضاء الله السابق، وتمام وعده الصادق، في الملك العادل نور الدين لقاه اللهُ ذخائر تقواه، وسقاهُ من كأسِ الرِضوانِ فَرَواه. فأي مصاب حدثت الحوادث أنفسها بمثله، وهدةُ جبلٍ يخال أن الجبال سيرت يوم حمله. فلا حول ولا قوة إلا بالله العليِّ العظيم قولٌ من عزَّ عزاؤُه، ورجا أن يكون بحسب مصابِه جزاؤه. ولمَّا سمعنا بالخبر الذي تكادُ تخِّرُّ له الصمم، وعمنا من الجزع بل خصَّنا ما عمَّ الأمم، وفقدنا روضةَ النعيمِ فلا جرَم، إنَّا ودعناها من الدموع بديم دمٍ. قمنا بالحق الواجب، وأظهرنا الأسف الغالب، ولبسنا شعار الحزن المسود الغياهِب، وأسلنا الدمع الصادق لا الكاذب. وعقدنا محافل شرعية لإقامةِ الذكر وإهدائه، وأمرنا بالصلاة عليه رحمة الله في كلِ مصر على قربه ونأيه. وأوعزنا بأن تُقام الخطبة على رسمِها لولده، وأن تؤدى في محفلِ الإسلام ومشهده، رغبةً أن يستسن الناس بسنتنا في الوفاء، ويتشَّبهوا بنا في إبداء وإخفاء الصفاء. ولتجتمع كلمة المسلمين وتنتظم، وتنقطع أسباب الخلاف وتنحسم. وخرجنا بعساكر الإسلام المسلمة، وجموع المِلَّة المعلمة، وخيل الله المُسَّومَّة. وقد اجتمعت على الغزو غُزاتها، وريعت بأخبارِها عُداتها، فوردنا كتاب أجك والي بانياس

---

(1) أبو شامة : الروضتين، ج2، ص329؛ ابن نباتة : كتاب فيه من كلام الفاضل، ص86–89(و)

(2) تحركت الفرنج سنة 569هـ/ 1174م، لقصد دمشق، فخرج ابن المقدم شمس الدين مقدم العساكر، ونزل على بانياس في عساكر نور الدين محمود، وراسل الفرنج، وخوفهم بقصد صلاح الدين لبلادهم، وأنه قد عزم على جهادهم، فوقعت الهدنة بين الفرنج وابن المقدم، فعندما علم صلاح الدين بخبر الهدنة استصغر أمر أهل الشام وعلم ضعفهم، فوجه صلاح الدين هذا الكتاب إلى ابن أبي عصرون محاولة منه لإثارة العلماء وذوي التأثير في الرأي العام ضد أمراء دمشق الذين قبلوا بمثل هذه الهدنة. أبو شامة : الروضتين، ج2، ص322.

يذكر أنَّ الفرنج نزلوا عليها محاصرين، وضايقوها مزاحفين ومغاورين، ومراوحين للقتال ومباكرين، وأنَّ الدِّمشقيين قد شُغلوا عن إجابةِ الصريخ، وأعجز مناديهم أن يجد عندهم سمع المصيخ. فاستنفرنا للمحاماة عن الثغر، والمراماة التي يقترن بها النصر. فرحلنا أربع مراحل عن الدِّيار المصرية، فبينما نحن للطريق راكبون، وللهوينا ناكبون، إذ)[1] ورد الخبرُ بصلحٍ بين الفرنج والدمشقيين، (وبقيةُ بلادِ المسلمين ما دخلتْ في العقد، ولا انتظمتْ في سلكِ هذا القصد)[2]، والعدو لهما واحد، وصُرِف مالُ الله الذي أُعدَّ لمغنمِ الطاعة، ومصلحةِ الجماعة، في هذه المعصِيَةِ المغضبةِ لله ولرسولِه ولصالحي الأُمة، وكان مذخوراً لكشف الغُمَّة، فصار عَوْناً(على الغُمَّة)[3]. وأنَّ أُسارىً من طبرية وفُرسانَها كانت وطأتُهم شديدةً، وشوكتُهم حديدةً، ودُفعوا في القطيعة، وجعلوا إلى السِّلْم السبب والذريعة، فلما بلغنا هذا الخبرُ، وقفنا به بين الوِرْد والصَّدر، إن أتممنا ظُنَّ بنا غير ما نريد، وإن قعدنا فالعدوُّ من بقية الثغور التي لم تدخل في الهُدْنة غير بعيد، وإن فرَّقْنا العساكرَ(المجموعة)[4] لدينا فاجتماعُها بعد افتراقِها شديدٌ.

فرأينا أن سَيَّرنا إلى حضرةِ الأمير شمسِ الدين أبي الحسن عليٍّ وإخوته مَنْ يُعَرِّفُهم قدرَ خطر هذا (الإمساك)[5]، وأنه أمرٌ ربما عُجزَ عن الاستدراك، وأن العدوَّ طالبٌ لا يغفل، وجادٌّ لا يَنْكُل، (وليثٌ لا يضيع الفُرْصة، مُجِدٌّ لا يميلُ إلى الرُّخصة)[6]، فإنْ كانت الجماعةُ ساخطين، فيُظهرَ أماراتِ السخطِ والتغيير، (ولا يُمسكْ في الأول فيعجزَ عن الأخير)[7]، لا سيما ونحن نغارُ لله ونُغير، ونَقصد للمسلمين ما يُجْمَعُ به صلاحُ الرأي وصوابُ التَّدْبير(فإنَّ المسلمين قد أشرقوا على أشد الخطر، وعاد الإسلامُ كما بدأ بلا وطن، ولا وطر. ولله غيب وهو شاهد، أمر هو بالغه، ويوم تنقطع بعده الأيام، ومقام بين يديه ينقضي فيه الخِصام. وسيدنا أولى من جرَّد لسانه الذي تغمد له السيوف وتجرد، وتحصص بحسن التحريض على اجتماع الكلمة وتفرد، وقام في سبيل الله قيام من يقسط عاديةَ من تعدَّى وتمرَّد. وقد أخذ الله عليه وعلى أمثاله الوارثين لأنبيائه، المترجمين عن أغراض أصفيائِه. ليبينه للناس ولا يكتمونه، وليصدعنَّ بالحق الذي يعلمونه. فليُوفَّ لله عهدَه، وليقل ما عندَه، وليبذلُ في الجهادِ المضاعف جهدَه، وكتب في المنزل بفاقوس، والفجر قد هم أن

(1) زيادة في و

(2) زيادة في أ

(3) زيادة في و

(4) زيادة في و

(5) أ : الإرتباك

(6) زيادة في أ

(7) زيادة في أ

يشق ثوب الصباح، لولا أنَّ الثُّريا تعرضت تعرض أثناء الوشاح[1]، (وقد منعنا عساكرَنا أن تفترقَ خوفاً أن يقصدَ العدو ناحية حارِم[2] بالمال الذي قويت به قوَّته، وثَرَت به ثروَتُه، وانبسطت به خطوتُه، فإنه ما دامَ يعلمَ أنَّا مجتمعون، وعلى طلبه مُجمعون، لا يمكنه أن يزايلَ مراكزَه، ولا يُبادرَ مناهزَه)[3].

(1) زيادة في و

(2) حارم : بلدة من أعمال حلب. ياقوت : معجم البلدان، ج2، ص237.

(3) زيادة في أ

كتاب رقم (11)(1)

إعلان صلاحُ الدين عزمِه التوجه من مصرِ إلى الشامِ سنة570هـ/1173م (2)

أرسل صلاحَ الدين هذا الكتاب بقلم الفاضل إلى ابنِ المقدِم والي دمشقَ، وجاء فيه :

إنَّا لا نؤثرُ للإسلام وأهله إلا ما جَمَعَ شملَهم وألَّف كلمتَهم، وللبيتِ الأتابكي(3) –أعلاه الله تعالى– إلا ما حفظ أصلَه وفَرْعه، ودفع ضرَّه وجلب نفعه. فالوفاء إنما يكون بعد الوفاة، والمحبَّة إنما تظهر آثارها عند تكاثر أطماع العُداة، وبالجملةِ إنا في واد، والظَّانون بنا ظَنَّ السَّوْءِ في واد، ولنا من الصَّلاح مُرَاد، ولمن يبعدُنا عنه مراد، ولا يقالُ لمن طَلَب الصَّلاحَ إنك قادحٌ، ولمن ألقى السِّلاح إنك جارحٌ.

---

(1) أبو شامة : الروضتين، ج2، ص 333.

(2) بعد وفاة نور الدين محمود، وتولي ابنه الملك الصالح إسماعيل من بعده، سار سيف الدين غازي الثاني ابن أخ صلاح الدين، وصاحب الموصل، وملك البلاد الجزرية، فأرسل صلاح الدين إلى الملك الصالحِ؛ يعتبه حين لم يعلمه قصد سيف الدين بلاده وأخذِها. وكتبَ إلى كمال الدين الشهرزوري يقول : "لو أن نور الدين يعلم أن فيكم من يقوم مقامي، أو يثقُ به مثلَ ثقته بي لسلَّم إليه مصرَ التي هي أعظم ممالكه وولاياتِه، ولو لم يعجلْ عليه الموت لم يعهد إلى أحد بتربية ولده والقيام بخدمته غيري". كما كتب إلى ابن المقدم، ينكر ما أقدموا عليه من تفريقِ الكلمة وكيفَ تجرؤوا على أعضادِ الدولة وأركانها، فكتب إليه ابن المقدم يردعه عن تلك العزيمة، ويقول له: لا يقال عنك إنك طمعت في بيت من غرَسك ورباك، وأسسك وأصقى مشربك وأصفى ملبسك؛ فقرر صلاح الدين حينذاك التوجه إلى بلاد الشام، وتوحيدها تحت رايته حتى يتمكن من مواجهة الغزو الفرنجي. أبو شامة: الروضتين، ج2، ص333؛ ابن الأثير : الكامل، ج11، ص406.

ورغم رفض ابن المقدم في البداية لاتجاه صلاح الدين إلى الشام، فإن موقفه تغير فيما بعد بسبب كثرة الصراعات بين الأمراء في بلاد الشام وخوف بعضهم من بعض، ولذلك راسل صلاح الدين ودعاه لاستلام دمشق. ابن شداد : النوادر، ص92،93؛ ابن الأثير : الكامل، ج12، ص416.

(3) الأتابكي : الأتابكة جمع أتابك وهي كلمة مركبة من لفظين تركيين أتا أي الأب أو المربي، وبِك أي الأمير، فيكون معنى الكلمة مربي الأمير. البقلي : مصطلحات الأعشى، ص14، ويقصد هنا البيت الزنكي الذي ينتسب إلى الأتابك عماد الدين زنكي.

كتاب رقم(12)[1]

ضم بُصرى[2] سنة 570هـ/1173م [3]

أرسل صلاحُ الدين هذا الكتابَ بقلمِ الفاضلِ إلى أخيه العادلِ ملكَ مصر .، وجاء فيه :

يومَ وصولنا إلى بُصْرى، وقَبْله وفَدَتْ، وهاجرت، وتزاحمتْ وتكاثرتْ، وتوافتْ، الأمراءُ والأجنادُ والأتراكُ، والأكرادُ، والعُرْبانُ، وراجلُ الأعمال، وأعيانُ الرجال. وورد كتابٌ من دمشقَ بعد كتاب، وكلٌّ مخبرٍ وذاكر، وهو غائبٌ بكتابه حاضر، يَذكر أنَّ البلادَ ممكنةُ القياد، مُذْعنةٌ إلى المراد. وأما الفرنجُ– خذلهم الله تعالى– فإنّا في هذه السفرةِ المباركة نزلنا في بلادهِم نزولَ المتحكم، وأقمنا بها إقامة الحاضرِ المتخيم، وأدلجنا، وعيونهم متناومة، وجُزْنا؛ وأنوفهم راغمة، ووطئناً؛ ورقابهم صُغُر، ومررنا؛ وعيشهم مُرّ، والله يزيدهم؛ ذُلاً، ويجعل عداوة الإسلام في صدورهم غِلاً، وفي أعناقهم غُلاً.

---

(1) أبو شامة : الروضتين، ج2، ص 341.

(2) بُصرى : من أعمال دمشق، مشهورة عند العرب قديماً وحديثاً، فتحها المسلمون سنة 13هـ. ياقوت : معجم البلدان، ج1، ص 522.

(3) كانت بُصرى أولَ مجطة وصلَها صلاح الدين خلال مسيرته إلى دمشق، وفد دخل صاحبها في طاعتِه وأعلنَ انضمامُه إلى صلاح الدين. أبو شامة : الروضتين، ج2، ص340.

كتب حول ضمُ دمشقَ سنة 570هـ/1174م [1]

كتاب رقم (13)[2]

أرسل صلاحُ الدين هذا الكتابَ بقلمِ الفاضلِ إلى أخيه العادلِ ملكِ مصرَ، وجاء فيه :

وكان رحيلُنا من بُصْرى يومَ الأربعاء الرَّابعِ والعشرين مِنْ ربيعِ الأول، وقد توجَّه صاحبُها من بين أيدينا قائماً بشروط الخدمةِ ولوازِمِها، ثم لقينا الأَجَلّ ناصر الدين بن المولى أسد الدين رحمة الله عليه وأدام نعمته، والأميرُ سعد الدين بن أُنَر في السبت السابع والعشرين. ونزلنا يومَ الأحدِ بجسر الخشبِ والأجنادِ الدِّمشقية إلينا متوافية، والوجوهُ على أبوابِنا مترامية، ولم يتأخرْ إلا من أبقى وجهَه وراقب صاحبَه، ومن اعتقد بالقعود أنه قد نظر لنفسه في العاقبة. ولما كانَ يومُ الاثنين التاسع والعشرين من الشهر[3] ركبنا على خيرة الله تعالى، وعرضَ دون الدُّخول عَدَدٌ من الرِّجال، فدعستهم عساكرُنا المنصورةُ، وصدمتهم، وعرَّفتهم كيف يكون اللِّقاء، وعَلَّمتهم، ودخلنا البلد، واستقرَّت بنا دار والدنا رحمة الله عليه، قريرةً عيونُنا، مستقراً سكونُ الرعيةَ وسكونُنا، وأَذَعْنا في أرجاءِ البلد النداء بإطابة النُّفوس، وإزالةِ المكوس. وكانت الولاية فيهم قد ساءتْ وأسرفتْ، واليد المتعدِّية قد امتدَّت إلى أحوالهم وأجحفت[4]، فشرعنا في امتثال أمر الشَّرْع برفعها، وإعفاء الأمة منها بوضعها

كتاب رقم (14)[5]

دخول صلاح الدين مدينة دمشق 570هـ/1174م

أرسل صلاح الدين هذا الكتاب بقلم الفاضل إلى الخليفة العباسي المستضيئ بأمر الله وجاء فيه :

---

(1) ملك الصالح إسماعيل دمشق بعد وفاة والده نور الدين، وكان سعد الدين كمشتكين، قد هرب من سيف الدين غازي إلى حلب، فأقام بها عند شمس الدين ابن الداية، استبد سعد الدين بتدبير الملك، فخاف ابن المقدمِ وغيره من الأمراء الذين بدمشق، فكاتبوا صاحب الموصل سيف الدين غازي ليعبر؛ الفرات إليهم ليسلموا إليه دمشق، لكنه لم يفعل وخاف أن تكونَ مكيدةً، فراسلوا صلاح الدين واستدعوه ليملكوه عليهم، فلما وصلت الرسل إلى صلاح الدين سار في سبع مائة فارس، والفرنجُ في طريقه فلم يبالِ منهم، فسار إلى دمشق فخرج كل من بها من العسكر إليه فلقوه، فنزل في دار والده المعروفة بالعقيقي، وكانت القلعة بيد خادم اسمه ريحان، فأرسل له صلاح الدين كمال الدين بن الشهرزوري قاضي البلد، فسلمه القلعة، فصعد صلاح الدين إليها وأخذ ما فيها من الأموال، وثبت قدمه وقويت نفسه، وأظهر الطاعة للملك الصالح. ابن الأثير : الكامل، ج11، ص415- 417.

(2) أبو شامة : الروضتين، ج2، ص 341-342.

(3) المقصود به ربيع الأول.

(4) أجحفت : كلفتهم مالا يطيقون. الزبيدي : تاج العروس، ج23، ص69.

(5) مكاتبات من الترسل : ص 56.

أدام الله سلطان مولانا الملك الأجل الأفضل، وأنجد عزائمه بنصرها، ووصل مكارمه بشكرها، وحمل منه سماء المملكة الناصرية ببدر صدرها، وواحد دهرها، وكبير أملاكها ومدير أفلاكها، وقوام أمورها، وملاكها، ولا برحت دولته عالية ويده بالمؤمنين بره وعلى الكافرين عادية، وممالك الدنيا في أيدي ملوكها له وديعة وعارية، وسيوفه ضوامن لأحساب أعطافه ملابس النصر، إذا أصبحت في يده عارية ـ كتاب كريم، وقف به على الكرم حقيقة، وعلى الفعل الذي هو في الخلق تخلق، وفيه خليقة، وعلى الإنعام الذي يرجوه وترجوه، ولله الحمد بهذه الخليقة، ولا عدم تلك اليد التي الأيادي منها مستمدة، وفوائت الفوائد بها مستردة، وأقلامُها على السيوف تصول، وتطول، وسيوفُها ألسنةٌ في أفواهها من قمم الأعداء يقولومكارمها لها غرر في وجوه الأيام لا تنقضي وجحول.

والمملوك يهنئ مولانا بدخول الركاب الناصري إلى دمشق، في يوم احتفل له الإسلام، وأضاءت به الليالي، فكأنها أحلام، وضاهت السماء الأرض فكان نضاله شهب، وعجاجه غمام.ودخلها مستقرا بحمد الله على كرسي ملكه، فقال له الإسلام : ادخلوها بسلام، وزال كل شك وبطل كل إفك، وقرت عين كل موحد، وقصرت يد كل متمرد، وعقم من الإرجاف كل متولد، ولله الحمد.وقد صدرت الكتب الشريفة باستدعاء مقدم ركاب مولانا إلى عرشي النعمة، والعصمة، وانتظر الشام هذا المقدم، وشامه كما ينتظر، وبشام سحب الرحمة، وعين من العسكر من يسير في خدمته، ويصل في صحبته فيفوز باستخدامه ويستظل بظل أعلامه :

هنتك ولا زالت إليك فقيرة ولاية سلطان وطاعة أمه فإذا عزم فيتوكل وإذا أمر فيتعجل[1]

هنيئـا لأهـل الشـام أنـك فـيهم   وأنـــك حـــزب الله صـــرت لهـــم

وأنـــك رعـــت الـــدهر وريبـــه   وإن شـــك فليحـــدث بســـاحتها

طالع المملوك بذلك والرأي أعلى إن شاء الله تعالى.

---

(1) كلام مسجوع وليس شعراً.

كتاب رقم (15)[1]

وصف قلعة حمص[2] وفتحها سنة 570هـ/1174م [3]

أرسل صلاح الدين هذا الكتاب بقلم الفاضل إلى زين الدين بن نجا الواعظ[4] بمصر .، وجاء فيه :

(كان صدرُ كتابنا إلى الشيخ الفقيهِ زين الدين جمال الوعاظ، وقدوة الحفاظ، أدام الله تأييده وتوفيقه، وسدد إلى خواطر العاقلين توفيقه، ونهج إلى الخيرات الطريقَ به، وطريقه مضمناً، ما فتح الله من دمشق المحروسة، وقلعتها، وما من به من إسفار وجه الستره، وخصب نجعتها، وما أعمدناه فيها من أحوالٍ خوالٍ بمثلها أيام الخوالى، بسياسات فصلت ما من ساساتها، لا جرم أن الشركَ متوقعُ الوقوع والإسلام يوافق الخواطر بعد الأخطار العظيمة وبعد أن استقرت الأمورُ الدمشقية أحسنَ استقرارٍ، وانجلتْ عن الأعمار غمرةُ الاستغرابِ، وعلم أن حركتَنا لم تكنْ لعنايةِ مملكةٍ نعتصبها، بل لراية جهاد ننصبُها وأذلَّ اللهُ الكفرَ وأغنى عن هجنه هدنتُه وأجرانا على عوائدِ النصر، الذي لا يطلبه إلا من مظلته، نهضنا إلى حمص نهضة، بدقها إلى الذين بها، وما يليها مِنْ مُنجزٍ في الخواطر، وما يليها صاروا خصوما يمنعون تمامَ المرادِ في الجهاد، وذخائرُ عداوة يقعون في صدر الاجتهاد، وغدت منهم نواقض وعوارض فاستخرنا الله تعالى ونزلنا عليها يوم الأحد حادي عشر جمادى الأخرة وقد... إلينا من العساكر منتظمُ السهلِ والجبل، وختموا على أنفاس الرياح، فلا يتسلسل بين الأسل من رجال معددة، وكفاه إذا تخير المتخير لم يتجاوز أقلهم، ولم يتعده، وملأنا الأعداء والأيقاظ، فإذا الأفئدةُ لا تَخفى عليه من حمص، غلاظٌ وأنفاسُ تلك النفوس الشريرةِ شهر، وشواظ. فلم يمنعنا الامتناع من المعاودة ولم يمنعنا الاندفاع من المعاودة، فإذا نضرب من حديد بارد، ونضرب عن حديد واقدٍ، فلما كان يوم الثلاثاء استخرنا الله سبحانه،

---

(1) أبو شامة : الروضتين، ج2، ص 352(أ)؛ مكاتبات من الترسل : ص 135، 136 (هـ).

(2) حمص : بلد مشهور قديم مسور، وفي طرفه القبلي قلعة حصينة على تلٍ عالٍ كبير، وهي بين دمشق وحلب، بناه رجل يقال له حمص بن المهر بن حان بن مكنف. ياقوت : معجم البلدان، ج2، ص 347. وهي مدينة سورية تقع بين مدينتي دمشق وحماة. العدناني : معجم الأغلاط، ص 168.

(3) بعد أن استقر ملك صلاح الدين بدمشق، واستخلف عليها أخاه سيف الإسلام بن أيوب، سار إلى مدينة حمص مستهل جمادى الأولى، وكانت حمص في إقطاع الأمير فخر الدين مسعود الزعفراني، فلما مات نور الدين لم يمكنه المقام بها لسوء سيرته في أهلها، فلما نزل صلاح الدين على حمص راسل من فيها بالتسليم، فامتنعوا؛ فقاتلهم، وملك البلد وأمن أهلها، وامتنعت عليه القلعة، وبقيت ممتنعة إلى أن عاد من حلب فحاصر القلعة حتى ملكها في شعبان سنة 570هـ(فبراير 1175م). ابن الأثير : الكامل، ج11، ص 417-420.

(4) زين الدين بن نجا الواعظ : ولد سنة 508هـ بدمشق ونشأ بها، وقدم بغداد مراراً، وانتقل قبل وفاته إلى مصر وحدَّث بها، وتوفي يوم الأربعاء 8 رمضان سنة 599هـ(21 مايو/1203م)، وكان صلاح الدين الأيوبي يسميه بعمرو بن العاص لصواب رأيه. ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج2، ص 530.

ومن نرغب في العافية منه، وله، وركبنا ركوب من لم يجعل إلا الله لا عباده معوله، فلما أحدقت العساكرُ المنصورةُ بالصور العاصمِ إحداقَ السور بالمعاصم، وطارت السهام إلى أوكارها من الضلوع، وترفقت نطف الأسنة فكأنها مد بحار الدروع[1]. واكتنفت بها عقارب منجنيقات لا تطبع طَبْعَ حمْصَ في العقارب، وضربت حجارةً بها الحجارة، فأظهرت فيها العداوةَ المعلومة بين الأقارب، فلم يكن غير ثالثة من الحد، إلا وقد أثَّرت فيها جُدَرِياً بضربها، ولم تصل إلى السابع إلا والبحران منذرٌ بنَقْبها. واتَّسع الخَرْقُ على الراقع، وسقط سَعْدُها عن الطالع، إلى مولد من هو إليها الطّالع، وفُتحت الأبراج فكانت أبواباً، وسُيِّرت الجبال بها فكانت سرابا. فهنالك بدت نقوبٌ[2]، يَرى قائم مِنْ دُونها ما وراءها، وحُشيت فيها النَّار، فلولا الشُّعاع من الشعاع أضاءها[3] وحصحص الحقُّ، واتسع الخرط، وعلم أن ما أراده الخالق لا يرده الخلق، فارتفع الضجيج وعلى تحت العجاج العجيج، وأدوكتنا رقة نفضت من أيدينا الرقاق، وخشية لنت لها أعمة العتاق، فرفعنا على الأسوار أعلاما منشورة، ورتبنا أمرا بالكف والإمساك مأمورة، وضعت الحرب أوزارها وحلت الأمنية أزرارها، ورفعت السيرة الحسنة منارها، وأخمدت الفتنة الجشنة نارها، وعدنا عليهم بالعوائد الجميلة، التي قصدنا الله إجمالَها، وشفعنا الوجوه المستورة بالخفر من نسوانها بالوجوه المكشوفة بالمعصية من رجالها، وعدنا وقد أجزنا ما وعدنا، وأظهرنا عدلا سار به البلدة عَدَناً[4] وما كنا على نيةِ نكايةٍ في هذا الثغر لمعلمنا بمجاورته الكفرَ ورغبنا في حفظ حرمته لليوم والدهر. بل كان الإرهاب مقنعا في هذا المكان، ومقنعا رأس العاصي بصوت من هوان وحمدنا الله على تلك السريرة، وأعدنا عنها الصدر المنشرح، والعين القريرة، ورسمنا في أمرها ما لم يزل لنا رسُمنا من تعطيل أسبابٍ منكرة، ومظالمَ مستنكرةٍ، فأمن من كان الهمُّ نجياً لوساده، وأخلص من كان النفاقُ نزيلَ لفؤاده. وقيل الحمد لله رب العالمين، الذي تستأنس النعم بحمده، ويتعرف التوفيق في قصده، ويغدق الكفايةَ بُعَيْدَه، وينزل النصر الذي لا يطمع فيه إلا من عنده، أثرانِ تسرَّ الشيخَ زينَ الدينِ بهذا الفتح، الذي زين به هذا الدين، وهذا الأبقى الذي يبقى حديثا حسنا، لنا في الغابرين، لينطقَ في الحديثِ المفصِّلِ وينظم ببلاغته في عقدِ درِّه ويحمد عما طائفة من شكر الله، فإن عذبة لسانه أعذب شكرا، وأفضل، وهو لما قبلنا يقول ويفصلَ والله الموفقَ)[5].

(1) زيادة في هـ.

(2) النقوب، جمع النقب وهو الثقب. ابن منظور : اللسان، ج5، ص4513.

(3) زيادة في أ.

(4) عدناً : الجنة. الأزهري : تهذيب اللغة، ج2، ص129.

(5) زيادة في هـ.

كتاب رقم (16)[1]

توجهُ صلاحِ الدين إلى حماةَ[2] بعد ضمِ حمصَ سنة 570هـ/1174م [3]

أرسل صلاحُ الدين هذا الكتابَ بقلم الفاضل إلى أخيه العادلِ ملكِ مصر، وجاء فيه :

قد اجتمعَ عندنا إلى هذه الغاية ما يزاحم سبعةَ آلافِ فارسٍ، وتكاثفت الجموعُ إلى الحد الذي يخرج عن العَدّ، وبعد أن نُرَتِّب أحوالَ حمصَ -حرسها اللهُ تعالى- نتوجَّهُ إلى حماة، والله المعينُ على ما ننويه من الرَّشادِ، وننظِّفه من طُرُق الجهاد.

---

(1) أبو شامة : الروضتين، ج2، ص 353.

(2) حماة : مدينة كبيرة من أعمال الشام، كثيرة الخيرات، بها سور محكم، فيه أسواق كبيرة. ياقوت : معجم البلدان، ج2، ص 344.

(3) سار صلاح الدين بعد ضم حمص إلى حماة، في جمادى الآخرة 570هـ(ديسمبر 1174م)، فخرج إليه صاحبها عز الدين جُريدك، واجتمع إليه، واتفق معه على تسليم المدينة إليه. أبو شامة : الروضتين، ج2، ص347.

كتاب رقم (17)[1]

محاولات فتح حلب[2]، وتراجع الفرنج عن حصار حمص

أرسل صلاح الدين هذا الكتاب بقلم الفاضل إلى الخليفة العباسي المستضيئ بأمر الله وجاء فيه :

ورد كتابا المجلس العالي أدام الله أيامه، وخلدها، ونصر أعلامه، وأيدها، وأنفذ أحكامه، وسددها، ومنها ما هو بخطه الذي للعين منه وللقلب خطان هذه يكحل بأثمده، وهذا ينفع بمورده، وعرف ما أودعه فيها من أشواق مثلها في الضمير إلا أنه قد أعطى قدره على الإبانة عنها، والتعبير، ومن مسرته بما جدده الله من فتح قلعة فلانة، التي هي من بركات قدومه ومن سعادات نظره الذي أعفى كل قلب من تباريح همومه. فأما المتجددات بعد آخر ما صدر من جهتنا فإن الخبر ورد بتاريخ الفلاني، بأن الفرنج الفلانيين بعد أن وصلوا إلى مكان يعرف بفلانة، على مرحلتين من فلانة، وكان معهم فلان، وفلان عادوا على أدراجهم، وانثنوا على أعقابهم، وتكررت بينهم وبين فلان، وأنه حصل بأيديهم كالأسير المحكوم عليه، وكالمرتهن الذي أمره بغير يديه، ووقعت شناعة بأنه عدر به، واحتيط عليه، ومهما كان فقد كفى الله المؤمنين القتال، ووكل بالكافرين الضلال. فأما الحلبيون فإذا أراد الله بقوم سوءاً، فلا مرد له وما لهم من دونه من والٍ، ولقد نزلنا لهم عن بلاد، وقلاع، وأعمال، وأموال، وطلبنا المصالحة بكل حيلة وحال، والقوم لا يخفضون جناحا إلا ازدادوا جماحاً، ولا يلوح لهم لائحة أجل إلا خفت لهم طامحة أمل، ولا يكون لنا عليهم يومْ إلا يشتد علينا فهم سوم حتى كانوا المحصورين وهم الحاصرون، وكانواالمكسورين وهم الكاسرون ولا عدمنا ولا عدموا هذه العقول فنعم الوكيل لنا عليهم في استنزاع ما في أيديهم الغارمة، وغير بعيد أن يأخذهم الله سبحانه أخذ القرى وهي ظالمة.

والرسل متوالية إلى أبوابنا من جهة أمراء ديار بكر، وغيرهم، ومنهم من يبذل الخدمة في وقت إمكانها، ويتسرع في المعاقدة التي يبالغ في تأكيد إيمانها، والله المشكور، لا زال مطاع الإيثارة والمشورة، ولا برحت الأيام بعزماته منهية، ومأمورة، إن شاء الله تعالى.

---

(1) مكاتبات من الترسل : ص54.

(2) حلب : إحدى المدن الكبرى في سوريا، عاصرت دول إيبلا والدولة الأكادية في الألف الثالث ق.م، فتحها الإسكندر الأكبر سنة 333ق.م، ثم آل أمرها إلى السلوقيين ودعيت بيرهة، وسيطر عليها الرومان عام 64ق.م، وأعقبهم البيزنطيون إلى أن انتزعها منهم خاللد بن الوليد وعبيدة عامر بن الجراح سنة 16هـ/637م. الحاج : معجم محمود درويش، ص268.

كتاب رقم(18)[1]

مطالبة صلاح الدين تقليده ما يضمه من بلاد وتذكيره بدوره في فتح مصر، واليمن، والمغرب

كتبَ صلاحُ الدين هذا الكتابَ بقلم الفاضل، إلى الخليفة العباسي المستضيئ بأمر الله، وحمله الخطيب شمس الدين بن أبي المضاء سنة 570هـ/1174م، وجاء فيه:

(تَذْكِرةٌ مباركة، ولم تزل الذِّكْرى للمؤمنين نافعة، ولعَوارِض الشكِّ دافعة؛ ضُمِّنت أغراضاً يُقَيِّدها الكِتَاب، إلى أن يُطْلِقَها الخِطاب. على أن السائر سَيَّار البيان، والرسولَ يَمْضِي على رِسْل التبيان؛ والله سبحانه يُسدّده قائلاً وفاعِلاً، ويحفَظُه بادئاً وعائداً ومُقِيماً وراحِلاً.

الأميرُ الفقيهُ شمسُ الدين خطيبُ الخطباء –أدام الله نعمتَه، وكتب سلامتَه، وأحسن صَحَابَته– يتوَجَّه بعد الاستخارة ويقْصِد دارَ السلام، والخِطَّةَ التي هي عُشُّ بيضةِ الإسلام؛ ومجتَمَعُ رجاءِ الرِّجال، ومتَّسَع رحاب الرِّحال؛ فإذا نظَر تلك الدارَ الدارَّ سَحابُها، وشافَهَ بالنظر مَعَالَم ذلك الحَرَم المحرِّم على الخُطوب خِطابُها؛ ووقَفَ أمامَ تلك المواقِف التي تحْسُد الأرجلَ عليها الرُّؤُوسُ، وقام بتلك المنازِلِ التي تُنافِس الأجسامَ فيها النُّفُوسُ، فلو استطاعَتْ لزارَتِ الأرواحُ محرِمةً من أجسادِها، وطافَتْ بكَعْبتها متجرّدةً من أغْمادِها، فلْيُمْطِر الأرضَ هناك عَنَّا قُبَلا تُخَضِّلها، بأعداد لا نُحصِّلها؛ ولْيُسَلِّم عليها سلاماً نعْتَدُه من شعائر الدين اللازِمة، وسُنَن الإسلام القائمة، ولْيُورِدْ عنا تحيَّةً يستنْزِلها من عند الله، تحيةً مباركةً طيِّبة، وصلاةً تخترِق أنوارُها الأستارَ المحجَّبة، ولْيُصافح عنَّا بوجْهه صَفْحة الثَّرى، وليستَشْرِفْ عنَّا بنظره فقد ظَفِر بصباح السُّرى، ولْيستلِم الأركانَ الشريفة، فإن الدِّين إليها مستَنِد، وليستدِم الملاحظاتِ اللَّطِيفة، فإنَّ النُّور منها مستَمَدّ)[2]، فإذا قضي التسليم حَقَّ اللقاء، واستدعى الإخلاص جهد الدُّعاء، فلْيُعدْ وليعدَّ حوادث ما كانت حديثاً يفترى، وجواري أمور إن قال (فيها)[3] كثيراً فأكثرُ منه ما قد جرى، وليشرح صدراً منها لعلَّه يشرح منا صدراً، وليوضح الأحوال المستسرَّة فإن الله لا يُعبد سِرّاً:

ومن الغرائبِ أن تسِير غرائِبٌ	في الأرض لم يَعلَم بها المأمولُ
كالعيسِ أقتل ما يكون لها (الظَّما)[4]	والماءُ فوقَ ظهورِها محمولُ

---

(1) أبو شامة : الروضتين ، ج2، ص 357، 366 (أ)؛ القلقشندي : صبح الأعشى ، ج 13، ص 81– 90 (ب)؛ ابن واصل : مفرج الكروب، ج 2، ص 25– 29 (ج)

(2) زيادة في ب

3ب : منها

(4) أ : الصدى

فإنا كنا نَقْتبس النارَ بأكفنا وغيرنا يستنير، ونستنبط الماءَ بأيدينا وسوانا يستمير، ونَلْقى السِّهام بنحورنا وغيرنا يعتمدُ التصويُر، ونصافح الصِّفاحَ بصدورنا وغيرنا يدَّعي التَّصْديرَ، ولا بد ان نستردَّ بضاعتنا بموقف العدل الذي تُرد به الغُصوب، وتظهر طاعتنا فنأخذ بحظ (الألْسنِ)[1] كما أخذنا بحظِّ القلوب. وما كان العائقُ إلا أنا كنا ننتظر ابتداءً من الجانب الشريف بالنعمة، يضاهي ابتداءنا بالخدمة، وإيجاباً للحق، يشاكل إيجابنا للسَّبْق (إلى أن يكون سَحابُها بغيرِ يدٍ مستَنْزَلا، وروْضُها بغير غَرْس مُطْفِلا)[2].

كان أولُ أمرنا أنَّا كنا في الشام نفتتح الفتوح مباشرين بأنفسنا، ونجاهدُ الكُفَّارَ مُتقدِّمين لعساكرنا، نحن ووالدنا وعمنا. فأيُّ مدينة فُتحت، أو مَعْقِل مُلك، أو عسكرٍ للعدوِّ كُسِرَ، أو مصافٌّ للإسلام معه ضُرب لم نكن فيه؟ فما يجهل أحدٌ (صُنْعنا)[3]، ولا يجحد عدونا أنَّا نصطلي الجمرة، ونملك (الكَرَّة)[4]، ونتقدم الجماعة، ونُرتِّب المقاتلة، وندبر التَّعبئة، إلى أن ظهرت في الشَّام الآثارُ التي لنا أجرُها، ولا يضرنا أنْ يكون لغيرنا ذكرُها.

وكانت أخبارُ مصر تتصل بنا بما الأحوال عليه فيها من سوء تدبير، وبما دَوْلتها عليه من غلبة صغيرٍ على كبير، وأن النظامَ بها قد فَسَد، والإسلامَ بها قد ضَعُفَ عن إقامته كلُّ من قام وقَعَد. والفرنج قد احتاج من يدبرها إلى أن يقاطعَهم بأموالٍ كثيرة، لها مقاديرُ خطيرة، وأنَّ كلمة السُّنَّة بها وإن كانت مجموعة فإنها مقموعة، وأحكام الشَّريعة وأن كانت مسماة فإنها متحاماة.
وتلك البدعُ بها على ما يُعلم، وتلك الضَّلالات فيها على ما يُفتى فيه بفراق الإسلام ويُحكم. وذلك المذهب قد خالط من أهله اللَّحم والدم، وتلك الأنصاب قد نصبت آلهةً تُعْبَدُ من دون الله تُعظَّم وتُفخَّم، فتعالى الله عن شَبه العباد، وويلٌ لمن غَرَّه تقلُّبُ الذين كفروا في البلاد. فسمت هِمّتُنا دون همم (أهل)[5] الأرض إلى أن نستفتح مُقفلها، ونسترجع للإسلام شاردها، ونعيد على الدين ضالَّته منها. فسرنا إليها في عساكر ضخمة، وجموع جمة، وبأموالٍ انتهكت الموجود، وبلغت منا المجهود، أنفقناها من (خالص)[6] ذممنا وكسب أيدينا، وثمن أُسارَى الفرنج الواقعين في قبضتنا. فعرضت

---

(1) ب : الألسنة
(2) زيادة في ب
(3) زيادة في أ
(4) ب : الكسرة
(5) ب : ملوك
(6) أ : حاصل

عوارض منعت، وتوجَّهت للمصريين (رُسلٌ)[1] باستنجاد الفرنج (قطعت)[2]،﴿و لكُلّ أجَلٍ كِتَابٌ﴾[3] ولكلِّ أملٍ باب.

وكن في تقدير الله تعالى أنّا نملكها على الوجه الأحسن، ونأخذها بالحكم الأقوى الأمكن، فغَدَرَ الفرنج بالمصريين غدرة في هدنة عَظُمَ خَطْبُها وخَبْطها، وعُلم أن استئصال كلمة الإسلام محطُّها، فكاتَبَنا المسلمون من مصر في ذلك الزمان، كما كاتبَنا المسلمون من الشَّام في هذا الأوان، بأنَّا إنْ لم ندرك الأمر وإلا خرج عن اليد، وإن لم ندفعْ غريمَ اليوم لم نمهل إلى الغد. فسرنا بالعساكر المجموعة، وأمراء الأهل المعروفة، إلى بلاد قد تمهَّد لنا بها أمران، وتقرَّر لنا في القلوب وُدَّان : الأول ما علموه من إيثارنا للمذهب الأقوم، وإحياء الحقّ الأقدم، والآخر ما يرجونه من فكِّ إسارهم، وإقالة عِثارهم. ففعل الله ما هو أهلُه، وجاء الخبر إلى العدو فانقطع حَبْلُه، وضاقتْ به سُبله، وأَفرجَ عن الديار بعد أن كانت ضياعها ورساتيقها، وبلادها وأقاليمها، قد نفذت فيها أوامره، وخفقت عليه صُلْبانه، ونُصبت بها أوثانه، (وأُيس)[4] من أنْ يُسترجع ما كان بأيديهم حاصلاً، وأن يُستنفذ ما صار في ملكهم داخلاً، ووصلنا البلاد وبها أجناد عددهم كثير، وسوادهم كبير، وأموالهم واسعة، وكلمتهم جامعة، وهم على حرب الإسلام أقدر منهم على حرب الكفر، والحيلة في السِّرِّ فيهم أنفذ من العزيمة في الجهر. وبها راجل من السُّودان يزيد على مائة ألف (رجل)[5] ، كلهم أغتامٌ أعجام لا يعرفون ربَّاَ إلاّ ساكن قصره، ولا قِبْلةً إلاّ ما يتوجهون إليه من ركنه، وامتثال أمره، وبها عسكرٌ من الأرمن باقُون على النَّصْرانية، موضوعةٌ عنهم الجِزْية، كانت لهم شوكة وشِكَّة، وحُمة وحَمِيَّة. ولهم حواشٍ لقصورهم من بين داعٍ تَلْطُفُ في الضلال مَداخلُه، وتصيب القلوبَ مخاتلُه، ومن بين كُتَّاب تفعل أقلامهم أفعال الأسَل، وخُدَّام يجمعون إلى سواد الوجوه سواد النِّحَل، ودولة قد كبر(عليها)[6] الصَّغير، ولم يَعرف غيرها الكبير، ومهابة تمنع من خَطَرات الضَّمير، فكيف بخطوات التدبير. هذا إلى استباحةٍ للمحارم ظاهرة، وتعطيل للفرائض على عادةٍ جائرة، وتحريفٍ للشريعة بالتأويل، وعدول إلى غير مُراد الله بالتنزيل، وكُفْرٍ سُمي بغير اسمه، وشرعٍ يُتَسَتَّرُ به ويُحكم بغير حكمه. فما زلنا نَسْحَتُهم سَحْت

(1) ب : حيل

(2) ب : تمت

(3) سورة الرعد: أية 38

(4) ب : أمن.

(5) زيادة في ب، ج.

(6) أ : أنملها

(المبارد)[1] للشِّفار، ونتحيَّفهم تحيُّف الليل والنهار للأعمار، بعجائب تدبير لا تحتملها المساطير، وغرائب تقدير لا تحملها الأساطير،

وشرعنا في تلك الطوائف من الأرمن والسُّودان والأجناد، فأخرجناهم من القاهرة، تارةً بالأوامر المرهقة لهم، وبالأمور الفاضحة منهم، وبالسيوف المجرَّدة، وبالنار المحرقة، حتى بقي القصرُ ومن به من خدم وذُرِّية قد تفرَّقت شِيَعُه، وتمزَّقت بدعه، (وخفَتت)[2] دعوته، وخفِيَت ضلالته، فهنالك تَمَّ لنا إقامة الكلمة، والجهر بالخُطْبة، والرفع للواء الأسود المعظم، وعاجل الله الطاغية الأكبر (بهلاكه)[3]، وبرأنا من عُهدة يمين كان إثم حِنْثها أيسر من إثم إبقائه، لأنه عوجل لفرط روعته، ووافق هلاك شخصه هلاك دولته.

وكان باليمن ما عُلِمَ من ابن مهدي[4] الضالّ (الملحد، المتبدع المتمرِّد)[5]، وله آثار في الإسلام، وثأر طالِبُهُ النبيُّ عليه الصَّلاة والسلام، لأنه سبى الشرائف الصَّالحات، وباعهن بالثمن البَخْس، واستباح منهن كل ما لا يقر لمسلم عليه نفسه، (ودان)[6] ببدعةٍ، ودعا إلى قبر أبيه وسمَّاه كعبة، وأخذ أموال الرَّعايا المعصومة وأجاحها، وأحلَّ الفروج المحرَّمة وأباحها.

(فأنْهَضْنا إليه أخانا بعسكرنا بعد أن تكلَّفنا له نفقات واسعة، وأسلحة رائعة، وسار فأخذناه ولله الحمد، وأنْجح الله فيه القَصْد، والكلمة هنالك بمشيئة الله إلى الهند سامية، وإلى ما يقتضُّ الإسلام عُذْرته متمادية)[7].

---

(1) أ : المبادر.

(2) ب : خفقت، وج أُخفيت.

(3) ب، ج : بفنائه.

(4) ابن مهدي : عبد النبي ابن المهدي علي بن مهدي. كان والده ممن دعا لنفسه، وغلب على اليمن وعسف وظلم، وكان من دعاة الباطنية، فقام بعده ابنه عبد النبي فسبى الحريم وتزندق، وبنى على قبر أبيه قبة عظيمة وزخرفها، وأمر الناس للحج إليها، وفي سنة 569هـ/1174م، أخذ شمس الدولة أخ صلاح الدين اليمن فأمر بأسره وتم شنقه سنة 570هـ/1174م. (ابن كثير : البداية النهاية : ، ج12، ص 295؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج6، ص 63).

(5) زيادة في أ، ج.

(6) ب : وكان.

(7) زيادة في أ، ج.

ولنا في المغرب [1] أثرٌ أغرب، (وفي أعماله أعمالٌ دون مطلبها مهالكُ كما يكون المهلكُ دون المطلب؛ وذلك أن بني عبد المؤمن قد اشتهر أنَّ أمْرَهم قد أَمِر، وملكهم قد عَمِر، وجيوشهم لا تُطاق، وأمرهم لا يُشاق)[2]، ونحن بحمد الله قد تملكنا مما يجاورنا منه بلاداً تزيد مسافتها على شهر، وسَيَّرْنا إليها عسكراً بعد عسكر، فرجع بنصر بعد نصر. ومن البلاد المشاهير، والأقاليم الجماهير : بَرْقة، قَفْصة[3]، قَسْطِيلِية، تَوْزرَ[4]. كلُّ هذه تقام فيها الخُطْبة لمولانا الإمام المستضيء بأمر الله –أمير المؤمنين سلام الله عليه– (ولا عهد للإسلام بإقامتها، وينفَّذ فيها الأحكام بعَلَمها المنصور وعلامتها)[5].

(وفي هذه السنة كان عندنا وَفْدٌ قد شاهده وفود الأمصار، ورموه بأسماعٍ وأبصار، مقداره سبعون راكباً، كلُّهم يطلب لسلطان بلده تقليداً، ويرجو منا وعداً ويخاف وعيداً، وقد صدرت عنا بحمد الله تقاليدها، وأُلقيت إلينا مقاليدها، وسَيَّرنا الخِلَعَ والمناشيرَ والألوية، بما فيها من الأوامرُ والأقضية)[6].

(ولما قضى الله سبحانه بالوفاة النوريَّة، وكنا في تلك السنة على نِيَّة الغَزَاة، والعساكرُ قد تجهَّزت، والمضاربُ قد برّزت، ونزل الفرنجُ بانياس، وأشرفوا على احتيازها، ورأوها فُرْصةً مدُّوا يَدَ انتهازها، استصرخ بنا صاحبها، فسرنا مراحل اتصل (العدوِّ)[7] أمرها، وعوجل بالهُدْنة الدمشقِيَّة التي لولا مسيرنا ما انتظم حكمها)[8].

(ثم عدنا إلى البلاد، وتوافت إلينا الأخبار بما المملكة النورية عليه من تشعُّب الآراء، وتشتُّت الأمور وتقطُّعها)[9]، وأنَّ كلَّ قلعةٍ قد حصل فيها صاحبٌ، وكل جانب قد طمحَ إليه طالبٌ، (والفرنج قد بنوا (قلاعاً)[10] يتحيَّفونَ بها الأطرافَ الإسلامية، ويضايقون بها البلاد الشَّامية، وأمراءُ

---

(1) أرسل صلاح الدين قوة عسكرية 586هـ/1173م، إلى المغرب الأدنى بسبب هجمات الليبيين، والمغاربة على حدود مصر الغربية، وقد استطاع قراقوش أن يدخل طرابلس، وبرقة حتى آخر الحدود الليبية، وكذلك مدينة تونس. أبو شامة : الروضتين، ج2، ص 267.

(2) زيادة في أ، ب،

(3) قفصة : بلدة صغيرة في طرف إفريقية من ناحية المغرب. ياقوت : معجم البلدان، ج4، ص434.

(4) توزر : مدينة في أقصى إفريقية من نواحي الزاب الكبير، وهي مدينة حصينة لها أربعة أبواب، كثيرة النخل والبساتين. ياقوت : معجم البلدان، ج2، ص 428.

(5) زيادة في أ، ب.

(6) زيادة في أ، ب.

(7) ب : بالعد.

(8) زيادة في أ، ب.

(9) زيادة في أ، ب.

(10) ب : بلاداً

الدولة النُّورية قد سُجن كبارُهم، وعُوقبوا وصودروا، والمماليك (الأغمار)[1] الذين خُلقوا للأطرافِ لا للصُّدور، وجُعلوا للقيام لا للقعودِ في المجلس (المحصور)[2]، قد مدُّوا الأيدي والأعين والسيوف، وساءت سيرتُهم في الأمر بالمنكر والنَّهي عن المعروف، وكل واحدٍ يتخذُ عند الفرنج يداً، ويجعلهم لظهره سنداً)[3] (ويرفَع عنهم ذخيرةً كانتْ للإسلام، ويُفَرِّج لهم عن أسر من أكابر الكُفَّار كان مُقامُه مما يدفَعُ شراً، ولا يَزِيدُ نارُ الكفر جَمْراً، وإطلاقه يجلُب قطيعةً تُقوِّي إسلاماً وتُضْعِف كفرا؛ فكثُرت إلينا مكاتباتُ أهلِ الآراء الصائبة، ونظرْنا للإسلام ولنا ولبلاد الإسلامِ في العاقبة)[4] وعلمنا أن البيتَ المقدَّسَ إن لم تَتَيسَّر الأسبابُ لفتحه، وأمرَ الكُفر إنْ يُجرد العزم في قَلْعه، وإلا نبتتْ عروقُه، واتَّسعت على أهل الدين خُروقهُ، وكانت الحُجَّةُ لله قائمةً، وهممُ القادرين بالقعودِ آثمة. وإنّا لا نتمكنُ بمصر منه مع بُعْد المسافة، وانقطاعِ العمارة، وكَلالِ الدَّواب التي بها على الجهاد قُوَّة، وإذا جاورناه كانتْ المصلحةُ باديةً، والمنفعةُ جامعَة، واليدُ قادرةً، والبلادُ قريبَةً، والغزوةُ ممكنةً، والميرةُ متسعةً، والخيلُ مستريحةً، والعساكرُ كثيرةَ الجموعِ، (والأوقات مساعدة. وأصلحنا ما في الشام من عقائدٍ معتَلَّةٍ، وأمورٍ مختَلَّة، وأراءَ فاسدةٍ، وأمراءَ متحاسدةٍ، وأطماعٍ غالبةٍ، وعقولٍ غائبةٍ، وحفظنا الولدَ القائمَ بعد أبيه، فإنَّا به أَوْلى من قومٍ يأكلون الدُّنيا باسْمِهِ، ويُظهرونَ الوفاءَ في خدمته، وهم عاملون بظلمه)[5].

(والمراد الآن هو كل ما يقوي الدولةَ، ويؤكدُ الدعوةَ، ويجمعُ الأمةَ، ويحفظُ الألفةَ، ويضمنُ الرأفةَ، ويفتحُ بقيةَ البلاد، وأنْ يطبَّقَ بالاسْمِ العباسيِّ كلَّ ما (تطبقه)[6] العهادُ، وهو تقليدٌ جامعٌ بمصرَ، واليمنِ، والمغربِ، والشَّامِ، وكلِّ ما تشتملُ عليه الولايةُ النورية، وكل ما يفتحه الله تعالى للدولة العَبَّاسية بسيوفنا، وسيوف عساكرنا، ولمن نقيمه من أخٍ أو ولد من بعدنا، تقليداً يضمن للنعمة تخليداً، وللدعوةِ تجديداً، مع ما ينعم به من السّمات التي فيها الملك. (فإنَّ الإمارة اليوم بُحسْن نِيَّتنا في الخِدْمة تُصَرَّف بأقلامنا، وتُستفادُ من تَحْت أعلامنا؛ ويتَبَيَّن أنَّ أمراءَ الدولةِ النُّورية يُحتاج إليهم في فتحِ البلاد القُدْسية ضرورةً؛ لأنها منازلُ العساكر، ومجمعُ الأنفارِ والعشائر؛ فمتى لم يكنْ عليهم يدٌ حاكمة، وفيهم كلمة نافِذَة؛ منَعَهم وُلاةُ البلاد، وبُغاة العناد)[7] وبالجملة فالشام لا

(1) ب : أغرار.

(2) أ : المحضور.

(3) زيادة في أ، ب.

(4) زيادة في ب.

(5) زيادة في أ، ب.

(6) ب : تخطئه.

(7) زيادة في ب.

تنتظمُ أمورُه بمن فيه، والبيت المقدَّس ليس له قِرْنٌ يقوم به ويكفيه، والفرنج فهم يعرفون منا خصماً لا يَمَلُّ الشر حتى يملوا، وقِرْناً لا يزالُ مُحرِّم السيف حتى يحلوا)[1]، وإذا (شَدَّ)[2] رأينا حُسْن الرأي ضربنا بسيفٍ يقطع في غمده، وبلغنا المني بمشيئة الله تعالى، ويَدُ كلّ مؤمن تحت بُرْده، واستنفذنا أسيراً من المسجد الذي أسرى الله إليه بعبده (هذا ما لاح طلَبُه على قَدْر الزمان، والأنفُس تطْلُب على مِقْدار الإحسان؛ فإنَّ في استنهاض نِيَّات الخُدَّام بالإنعام ما يُعود على الدولة منافِعُه، وتَنْكأ الأعداءَ مواقُعه؛ وتبعثُ العزائمَ من موتِ مَنامِها، وتنفُض عن البصائر غُبارَ ظَلامها؛ والله تعالى يُنْجدُ إرَادتَنا في الخدمة بمضاعفة الاقتدار، ومساعدة الأقدار، إن شاء الله تعالى)[3].

---

(1) زيادة في أ، ب.

(2) ب : سدد.

(3) زيادة في ب.

كتب حول دورُ صلاحِ الدين في خدمة الخلافة العباسية[1]

كتاب رقم (19)[2]

أرسلَ صلاحُ الدينِ هذا الكتابَ بقلم الفاضل إلى الخليفة العباسي سنة 570هـ/ 1174م ، وجاء فيه:

والذي أجراه الله على يد المملوك من الممالك التي دَوَّخها، وسُننِ الضلال التي نسخها، وعقودِ الإلحاد التي فسخها، ومنابرِ الباطل التي رَحَضَها[3]، وحججِ الزَّندقة[4] التي دحضها[5]. فللهِ عليه المِنَّة فيه إذْ أهَّلَه لشرفِ مشهده، وما فعله إلا لوجهِه، ويدُ الله كانت عون يده، وإلا فقد مضتْ الليالي والأيام على تلك الأمور وما تحرَّكتْ للفُلْك في قلعها نابضةٌ، وغبرت الأحوال على تلك البدعة وما ثارت لأفراسها رابضةٌ. فشكر يد الله تعالى فيما أجراه على يده منها، أن يجتهد في أخرى مثلها في الكُفَّار، وقد عاد الإسلام إلى وطنه، وصوَّحت[6] من الكُفر خضراء دِمَنِهِ.

كتاب رقم(20)[7]

دور صلاح الدين في خدمة الخلافة العباسية

أرسل صلاح الدين هذا الكتاب بقلم الفاضل إلى الخليفة العباسي سنة 570هـ/1174م، وجاء فيه:

قد بورك للخادم في الطَّاعة التي لبس الأولياءُ شعارَها، وأمضى في الأعداء شِفارَها[8]، وجمعَ عليها الدينَ وكان أدياناً، واستقامتْ بها القلوبُ على صِبْغة التكلُّف وكانتْ ألواناً.

(1) بعث صلاح الدين الأيوبي بعد وفاة نور الدين محمود رسالة إلى الخليفة العباسي المستضيء بالله، وطلب منه تقليداً بمصر والشام، وأكد من خلال رسائله تلك على تبعيته للخليفة العباسي، وحرصه على إخضاع كل ما يحكمه للحكم العباسي، وأكد على حرصه على الوحدة، ومواجهة الفرنج. أبو شامة : الروضتين، ج2، ص365– 366.

(2) أبو شامة : الروضتين، ج2، ص 36.

(3) رحضها : غسلها. الفراهيدي : العين، ج3، ص255.

(4) الزندقة : من يبطن الكفر ويظهر الإيمان.الزاوي : المصدر نفسه، ج5، ص255.

(5) دحضها : أبطلها.ابن إدريس : المحيط في اللغة، ج2، ص438.

(6) صوَّحت : يبست وتشققت. ابن منظور : اللسان، ج3، ص2522؛ المعجم الوسيط، ج1، ص528.

(7) أبو شامة : الروضتين، ج2، ص 367.

(8) شفارها : شفرات السيوف أو حدُّ السيف. ابن منظور : اللسان، ج3، ص2288.

كتاب رقم(21)[1]

شفاعةُ صلاح الدين عند الخليفة في أحد الأمراء سنة 571هـ/1175م [2]

أرسل صلاحُ الدينِ هذا الكتاب بقلم الفاضل إلى الخليفة العباسي، وجاء فيه :

وما نحسب أنَّا مع الموالاة المشتهرة، والنُّصرة المستظهرة، والمساعي التي كانت لثارات هذه الدّولة بالغةً، ولأعدائهم دامغة، ولمنازعيهم الأمر قاصمةً، ولمجاذبيهم الحقَّ واقمة[3]، وبحقوق الله تعالى الواجبة لهم قائمةً، وكوننا ما أُعنا منها بنجدة من رجال، ولا بمادَّةٍ من مال، ولا بإعانة بحال من الأحوال –يرد سؤالنا من الدولة–أعلاها الله– في ذي قُرْبى لا نستطيع دفعه، ولا يقبل أسبابَ النفع إذا أردنا نفعه، فالأخباز عندنا واسعة، والأعواض لدينا غير متعذرة، والولايات التي نفوضها إليه عن كفايته غير مستغنية، ولكنه ما باع بمكانه من الخدمة مكاناً، ولا آثر غير سلطانه سلطاناً، وله أعذار لا بأس أن نعيره فيها لساناً وبياناً.

وهذا الأمير جُزْءٌ منَّا فكيف يُعدُّ جزءاً منا عاصياً، وبألسنتنا وسيوفنا يُدْعى الخلق إلى الطَّاعة، وكيف تخلو دار الخلافة من واحدٍ من أهلنا ينوب عنا وعن بقية الجمعة. فنحن في أنفسنا نشفع، وعن جاهنا ندفع، وفي مكاننا نسأل، وبحظنا الذي لا نسمح به للإسلام نبخل، وأنت أيها الأمير السَّائر ثالث رسولٍ نُدب في أمر هذا الأمير، والله وليُّ التَّدْبير.

---

(1) أبو شامة : الروضتين، ج2، ص 391–392.

(2) وصل في أول سنة 571هـ/1175م ، إلى دمشق جماعة من الذين خرجوا عن الخليفة، وشقوا عصا الطاعة، وتزعمهم قطب الدين قايماز، وبعد وفاته عاد أصحابه إلى دمشق، ولجئوا إلى السلطان ليشفع لهم، وكان من بينهم عز الدين أقبوري، وكان صهر صلاح الدين، أكرمه صلاح الدين وأقطعه الديار المصرية، وكتب في حقه إلى الديوان شفاعة في تخليص ماله، واستقامة حاله. أبو شامة : الروضتين، ج2، ص391.

(3) واقمة : مذلة قاهرة. ابن منظور : اللسان، ج5، ص 4983.

كتاب رقم (22)[1]

أسبابُ معركةِ تل السلطان سنة 571هـ/ 1175م، بين صلاح الدين والزنكيين[2]

أرسل صلاحُ الدين هذا الكتابَ بقلم الفاضل إلى الخليفة العباسيالمستضيئ بأمر الله، وجاء فيه :

أن الحلبيين والموصليين لما وضعوا السِّلاح، وخفضوا الجناح، اقتصرنا، بعد أن كانت البلادُ في أيدينا، على استخدام عسكر الحلبيين في البيكارات[3] إلى الكُفْر، وعرضنا عليهم الأمانةَ فحملوها، والأيمانُ فبذلوها. وسار رسولُنا وحلَّف صاحب الموصل بمحضرٍ من فقهاء بلده، وأمراء مشهده، يميناً جعل الله فيها حَكَماً، وضيَّق في نَكْثها المجال على من كان حنيفاً مسلماً، وعاد رسوله ليسمع منا اليمين، فلما حضر وأحضر نسختها، أومى بيده ليخرجها، فأخرج نسخة يمين كانت بين الموصليين والحلبيين مضمونها الاتفاق على حِزبنا، والتداعي إلى حربنا، والتساعدُ على إزالة خطبنا، والاستنفار لِمن هو على بُعْدنا وقربنا، وقد حلف بها كُمُشْتِكِين الخادم بحلب وجماعة معه يميناً نقضت الأولى، فرددنا اليمينَ إلى يمين الرسول، وقلنا : هذه يمينٌ عن الأيمان خارجة، وأردتَ عمراً وأراد الله خارِجة[4].

وانصرف الرَّسولُ عن بابنا، وقد نَزَّهنا الله أن يكون اسمُه معرَّضاً للحِنْث العظيم، والنكث الذَّميم، وعلمنا أن الناقد بصير، والآخذ قدير، والمواقف الشريفة النبوية –أعلاها الله– مستخرجة الأوامر إلى الموصلي، إما بكتاب مؤكد، بأن لا ينقض عهد الله من بعد ميثاقه، وإما أن تكون الفسحةُ

---

(1) أبو شامة : الروضتين، ج2، ص 395– 397.

(2) معركة تل السلطان : وقعت عند حماة في العاشر من شوال 571هـ/1175م، بين صلاح الدين وسيف الدين غازي، فجمع سيف الدين عسكره وفرق عليهم الأموال، واستنجد بصاحب حصن كيفا، وصاحب ماردين، فاجتمعت معه عساكر كثيرة بلغت عدتهم ستة آلاف فارس، ثم سار إلى حلب، فنزل إليه سعد الدين كمشتكين أمير حلب ومعه عساكر حلب، وبالمقابل كان صلاح الدين بقلة من العسكر، وكان قد سير عساكره إلى مصر فأرسل يستدعيهم، فسار من دمشق إلى ناحية حلب ليلقى سيف الدين، فالتقى العسكران بتل السلطان، وكان سيف الدين قد سبقه، فلما وصل صلاح الدين كان وصوله العصر، وبعد يومٍ واحد اصطفوا للقتال، وانتصر صلاح الدين على سيف الدين. ابن الأثير : الكامل، ج11، ص427، 428.

(3) البيكارات : جمع بيكار وهي الحرب. البقلي : مصطلحات الأعشى، ص 70.

(4) يُقصد بها قصة الخوارج الثلاثة الذين اجتمعوا وتعاهدوا على قتل كل من علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص، والثلاثة هم عبد الرحمن بن ملجم، والبرك بن عبد الله التميمي، وعمرو بن بكر التميمي، فاتفقوا على أن يقوم عبد الرحمن بن ملجم على قتل علي، ويقوم البرك بقتل معاوية، ويقوم عمرو بن بكر بقتل عمرو بن العاص فقد كمن له ليخرج إلى الصلاة، فاتفق أن عمرو بن العاص أصيب في ذلك اليوم بمغصٍ شديد ولم يخرج إلى الصلاة، فخرج بدلاً منه نائبه خارجة بن أبي حبيبة، فوثب الخارجي عليه معتقداً أنه عمرو بن العاص فقتله، فلما أُخذ الخارجي قال : أردت عمراً وأراد الله خارجة. أبو شامة : الروضتين، ج2، ص296.

واقعةً لنا في تضييق خناقه، والمملوك بين عدو الإسلام يشاركونه في هذا الاسم لفظاً، ولا يَنْوُون لما استحفظوا حفظاً، وعدو كفر فما يجاورهم إلا بلادُه، ولا يقارعهم إلا أجناده.

ثم طلب خروج الأمر بخطاب جميع ملوك الأطراف أن يكونُوا للمَمْلوك على المشركين أعواناً، وأن يُمْتَثَل أمر نبينا صلى الله عليه وسلم في أن يكونوا بنياناً، فيعضدوه إذا سعى، ويلبُّوه إذا دعا، ولا يقعدوا عن المعاضدة في فتح البيت المقدس الذي طابت النفوس ع ثاره، وتطأطأت الرُّؤوس تحت عاره، وصارت القلوب صخرةً لا ترقُّ على صَخْرته، والعزائم قاصية عن تطهير أقصاه من رِجْس الشِّرْك ومعرَّته، فإن قعدت بهم العزائم، وأخذتهم في الله لومةُ لائم، فلا أقلَّ من ألا يكونوا أعواناً عليه يلفتونه عن قَصْده، حريصين على إيصال المكروه إليه.

كتاب رقم (23)[1]

نجاةُ صلاح الدين من غدر الحشاشين 571هـ/1175م [2]

أرسل صلاحُ الدين هذا الكتاب بقلم الفاضل إلى أخيه العادل، وجاء فيه :

السَّلامةُ شاملة، والرَّاحةُ بحمد الله للجسمِ الشريف النَّاصري حاصلة، ولم ينله من الحشيشي الملعون إلا خدشٌ قَطَرَتْ منه قطراتُ دَمٍ خفيفةً، انقطعت لوقتها، واندملت[3] لساعتها، والرُّكوب على رسمه، والحصار لأعزاز[4] على حكمه، وليس في الأمر بحمد الله ما يضيق صدراً، ولا ما يشغل سراً.

---

(1) أبو شامة : الروضتين، ج2، ص 410.

(2) هجم الحشيشية على صلاح الدين في الحادي عشر من ذي القعدة، وهو نازل على أعزاز، وكان صلاح الدين هناك يرتب المهمات، ويحض الرجال على القتال، فّإذا بواحدٍ من أجناد الحشيشية هجم على صلاح الدين، وضرب رأسه بسكين، لكن صفائح الحديد المدفونة في قبعته عاقت من ذلك، وخدش خده، وقام بالقبض على الحشيشي، وجاء سيف الدين يازكوج، وضربه بالسيف فقتله، وركب صلاح الدين إلى سرادقه، ودمه سائل على خده، واتجه إلي بيت الخشب واحترز هناك. أبو شامة : الروضتين، ج 2، ص409- 411.

(3) اندملت : شفيت من الجرح أو المرض. ابن منظور : اللسان، ج2، ص1425؛ المعجم الوسيط : ج1، ص 297.

(4) أعزاز : قلعة تقع شمالي حلب. ياقوت : معجم البلدان، ج3، ص667.

كتاب رقم (24)[1]

دورُ الصراعات مع الزنكيين في إشغال صلاح الدين عن الجهاد سنة 577هـ/1181م

أرسل صلاحُ الدين هذا الكتابَ بقلم الفاضل إلى الخليفةِ العباسي الناصر لدين الله، وجاء فيه :

فقد صَرَفَ وَجْهَنا في هذا الوقت عن جهادٍ، لو كُنَّا بصدَدِه، وعن فَرْضٍ لو وَصَلْنا يَوْمَه بغده، لكان الإسلامُ قد أُعْفِيَ من شِرْكة الشِّرْك، وانفكَّ أهلُه من رِبْقَةِ[2] أهل الإِفْك[3]. ولكانت الأسماءُ الشَّريفةُ قد قَرَعَتْ منابر؛ طالما عَزَلَتِ الصُّلُبُ خُطَباءها، ولكان الدِّين الخالص قد خَلَصَ إلى بلادٍ صار المشركون متوطِّنيها، والمسلمون غُرَباءهَا.

---

(1) أبو شامة، الروضتين، ج3، ص 85.

(2) وانفك أهله من ربقة : أي فارق. ابن منظور : اللسان، ج2، ص1570.

(3) الإفك : الكذب والافتراء. المعجم الوسيط، ج1، ص 21.

كتاب رقم (25)[1]
دورُ صلاح الدين في خدمة الخلافة العباسية

أرسلَ صلاحُ الدين هذا الكتابَ بقلم الفاضل إلى الخليفة العباسي الناصر لدين الله سنة 577هـ/1181م، وجاء فيه:

والخادمُ –والحمد لله– يُعَدِّد سوابق في الإسلام والدَّوْلة العباسية لا تعدُّها أَوَّلِيَّةُ أبي مُسْلم[2]، لأنه والى ثم وارى[3]، ولا آخِرِيَّةُ طُغْرُلْبَك[4] لأنه نَصَر ثم حَجَر[5]. والخادم –بحمد الله– خَلَعَ مَنْ كان ينازعُ الخلافة رداءها، وأساغَ الغُصَّة التي ذَخر الله للإساغة في سَيْفه ماءها، فَرَجَّل الأسماءَ الكاذبة، الراكبة على المنابر، وأُعِزَّ بتأييدٍ إبراهيميٍّ[6]، فكَسَّرَ الأصنامَ الباطنة بسيفه الظَّاهر لا السَّاتر، وفعل وما فعل للدُّنيا، ولا معنى للاعتداد بما هو متوقع الجزاء عنه في اليوم الآخر.

---

(1) أبو شامة، الروضتين، ج3، ص 85–86.

(2) أبو مسلم الخراساني : هو عبد الرحمن بن مسلم صاحب دولة بني العباس، قتله أبو جعفر المنصور سنة 137هـ. الذهبي : سير الأعلام، ج6، ص48؛ ابن كثير : البداية والنهاية، ج10، ص 52– 60.

(3) يقصد يه مساهمة الخراسانيون بدورٍ بارز في قيام دولة الخلافة العباسية، وعلى رأسهم أبي مسلم الخراساني الذي كان والياً على خراسان ووقف إلى جانب الدعوة العباسية وأعلن الخلافة العباسية في خراسان سنة 132هـ/749م، بعد القضاء على الدولة الأموية. وحينما اشتد ساعد دولة الخلافة العباسية وتوضحَّت سياستها لم تحقق تطلعات الخراسانيين؛ لذلك قاموا بحركات تمردية بهدف الإطاحة بالدولة العباسية، وكانت حركة أبي مسلم فاتحةً لتلك الحركات المعادية. طقوش : تاريخ الدولة العباسية، ص 51– 52.

(4) طغرلبك : هو أبو طالب محمد ميكائيل بن سلجوق، أول ملوك السلاجقة، دخل بغداد سنة 447هـ/1055م، وتوفي سنة 455هـ/1160م .، عن عمر يناهز سبعين عاماً. ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج5، ص63– 64.

(5) دخل طغرلبك بغداد سنة 447هـ/ 1056م، بناءً على طلب الخليفة العباسي القائم بأمر الله لإنقاذ موقف الخلافة العباسية، بعد أن دبَّ الخلاف بين الخليفة، ومقدم الأتراك، فلبى طغرلبك النداء، وأظهر الطاعة للخليفة القائم بأمر الله، لكن سرعان ما تبدلت الأحوال، واستبد طغرلبك بأمور بغداد، ولاقى أهلها القسوة على أيدي جنوده. الذهبي : العبر، ج2، ص289؛ يحيي : تاريخ الدولة العباسية، ج2، ص79– 80.

(6) يقصد تكسير إبراهيم عليه السلام أصنام قومه وتأييد الله له وهو ما ورد في قوله تعالى : " قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ" سورة الأنبياء : آية 69.

كتاب رقم (26)[1]

شكوى صلاح الدين المواصلة والحشاشين[2]

أرسلَ صلاحُ الدين هذا الكتابَ بقلم الفاضل إلى الخليفة العباسي الناصر لدين الله سنة 577هـ/1181م ، وجاء فيه :

دَخَلَ حَلَبَ مستولياً، وحَصَلَ بها مُعْتدياً، وعقودُ الخُلَفاء لا تُحَلُّ، والسُّيوفُ في أَوْجه أوليائهم لا تُسَلُّ، وإنه إنْ فُتحَ بابُ المُنَازعة، أُدْنيَ من ندامةٍ، وأُبْعِدَ من سلامة، وخُرِّق ما يُعْيي على الرَّاقع، وجُذِبَ الرِّداء فلم تُغْنِ فيه إلا حيلةُ الخالع، وليس الاستيلاءُ بِحُجَّةٍ في الولايات لطالبها، ولا الدُّخول إلى الدَّار بموجبٍ مُلْك غاصبها، إلا أَنْ تكون البلاد كالدِّيار المِصْرية حين فتحها الخادم وأهلُه، حيث الجمعة مُسْتريبة، والخلافة في غير أهلها غريبة، والعقائد لغير الحّقِّ مستجيبة، فتلك الولاية أَوْلى ممن مُنِحَها مَنْ فَتحها، وكان سُلْطانها مَنْ أدخل فيخبر كان شَيْطانَها. وأما حَلَبُ التي الكلمةُ فيها عالية، والمنابرُ فيها بالاسم الشريف حالية، فإنما تكون لمن قُلِّدها، لا لمن تورَّدَها، ولمن بالحق تسلَّمها، لا لمن بالباطل تَسَنَّمها، ولو كانت حلب كما كانت مصر لدخلها الخادم ولم يُشاور، وَلَوَلَجها ولم يناظر، ولكنه أتى البيوتَ من أبوابها، واستمطر القِطار[3] من سحابها.

إَنَّ المواصلةُ راسلوا الملاحدةُ الحَشِيشية، واتخذوهم بِطانَةً من دون المؤمنين، وواسطةً بينهم وبين الفرنج الكافرين، ووعدوهم بقلاعٍ من يَدِ الإسلام تُقْلَع، وبضياع من فَيْء المسلمين تُوْضَع، وبدارِ دعوةٍ بحلب يُنْصبُ فيها عَلَمُ الضَّلالة وَيُرْفَع، ويااللعَجَبِ مِنَ الخَصْمِ يَهْدِمُ دَوْلَةَ حَقٍّ وهي تَبْنِيْهِ، ومِنْ العبد يبني مُلكها بنفسها وماله وذويه، وهي تراقِبُ أعداءه فيه، وَدَعْوَاه في رسائلهم وغوائلهم[4] ليست بدعوىً لا يقومُ شاهدُها، ولا هي بشناعةٍ لا يهتدي قائِدُها، بل هذا رسولهم عند سِنان صاحب الملاحدة، ورسولهم عند القومص[5] ملك الفرنج، وهذه الكتبُ الواصلة بذلك قد سيِّرَتْ. أما السَّبْقُ إلى التَّقليد، فللخادم السَّبْقُ. وأما العدالة والعَدْلُ، فلو وَقَعَ الفَرْقُ لوقع الحَقُّ. وأما بالآثار بالطَّاعة فله فيها ما لولا معونة الخالق فيه لقَصَرَتْ عنه أيدي الخلق، ومتى استمرَّت المُشَارَكة في الشَّام، أَفْضَتْ إلى ضَعْفِ التَّوْحيد، وقُوَّةِ الإِشْراك، وتَرَامَتْ إلى أخطارٍ تَعْجِزُ عنها خواطِرُ الاستدراك، وأَحْوَجَتْ قابِضَ الأَعِنَّةِ إلى أن يُعْلِيَها الجَدَدَ[6] ويُرْسِلَها العِراك[7]. وطريقُ الصَّلاح والمُصَالحات الأَيمان، والمشار إليهم

(1) أبو شامة، الروضتين، ج3، ص 86-88.

(2) أرسل صلاح الدين رسالة إلى الخليفة العباسي الناصر لدين الله، ذكر فيها أن حلب من جملة البلاد التي اشتمل عليها تقليد الخليفة المستضيء، وأنه إنما تركها في يد ابن نور الدين لأجل أبيه، ودعا إلى أن يعاد إليه حقه بعد وفاة الملك الصالح، وطالب صلاح الدين الخليفة بإلزام عز الدين مسعود صاحب الموصل باحترام حقه في حلب، وإلا فإنه سيلزمه بذلك. أبو شامة : الروضتين، ج3، ص85.

(3) القِطار : مفردها قطر وهو المطر. ابن منظور : اللسان، ج4، ص3668.

(4) غوائلهم : مفردها غائلة وهي المهالك. ابن منظور : اللسان، ج4، ص3319.

(5) القومص : لقب يطلق على قادة الفرنج. البقلي : التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، ص 278.

(6) الجدد : الأرض الصلبة المستوية. ابن منظور : اللسان، ج1، ص 561؛ المعجم الوسيط، ج1، ص115.

(7) العراك : ازدحام الإبل على الماء ابن منظور : اللسان، ج3، ص 2911.

لا يلتزمون رِبْقَتَها، ولا يوجبون صَفْقَتَها، فكفى بالتَّجريب ناهياً عن الغِرَّة[1]، ولا يُلْدغ المُؤْمِنُ إلا مرَّة[2]، وإذا اجتمعت في الشام أَيْدٍ ثلاث : يدٌ عادلةٌ، ويدٌ مُلْحدة، وَيَدٌ كافرةٌ، نهض الكُفْرُ بتثليثه، وقَصَرَ عن الإسلام يَدُ مُغِيْثه، ولم ينفعْ الخادمَ حينئذٍ تصحيحُ حسابِه وتصديق حديثه، وما يريدُ الخادم إلا مَنْ تكونُ يَدُ الله عليه، وهي الجماعة، ولا يُؤْثِرُ إلا ما يتقرَّبُ به إليه، وهو الطّاعة، ولا يتوخَّى إلا ما تقومُ به الحُجَّة اليوم ويوم تقومُ السَّاعة.

(1) الغرة : الغفلة. المعجم الوسيط، ج2، ص 672.

(2) يقصد به حديث الرسول صلى الله عليه وسلم : لاَ يُلْدَغُ الْمُؤْمِنُ مِنْ جُحْرٍ وَاحِدٍ مَرَّتَيْنِ. صحيح مسلم، ج8، ص227.

كتاب رقم (27)[1]

وفاة الملكُ الصالح إسماعيل سنة 577هـ/ 1181م، وتمسكُ صلاح الدين بحقه في حلب[2]

أرسل صلاحُ الدين هذا الكتاب بقلم الفاضل إلى الخليفة العباسي وجاء فيه :

قد أحاطَ العِلْمُ بما طالعَ به أولاً عند وفاة وَلَدِ نور الدِّين، رحمه الله، أنَّ التقليد الشّريف المستضيء لما وصلّهُ بالبلاد، وكان قد فتح أكثرها : قلاعاً وأمصاراً وحُصُوناً وديارًا، ولم يبق إلا قَصَبَةُ حلب، وهو على أَخْذِها، عَدَلَ وَلَدُ نور الدِّين عن القتال إلى النَّوال، وعن النِّزال إلى الاستنزال، وقَصَدَ القَصْدَ الذي ما أَوْجَبَت المحافظةُ أن يُتَلَقَّى بالرَّدِّ، فأَقَرَّه على الولاية فَرْعاً لا أصلاً، ونائباً لا مُسْتقلاً، وسلَّم إليه البلاد ويدُه الغالبة لا المغلوبة، وسيوفه السَّالبة لا المَسْلُوبة، ومشى الأمر معه مستقيماً ومائلاً، وجائراً وعادلاً، إلى أَنْ قضى نَحْبَه، ولقي رَبَّه، فبدا من المواصلة نَقْضُ الأَيْمان، والابتداءُ بالعُدْوان، والتعرُّض للبلاد، والتصرُّفُ بغير حُجَّة يكون عليها الاعتماد. فطالعَ الدّيوانَ بالقضية، واستشهدَ بِدِلالات قوانينه الجَلِيَّة، في هذا التقليد الذي تهادته المحاضر، وأشاعته المنابرُ، وسُيِّرَتْ إلى الشَّرْق والغرب نُسَخُهُ، وغُلَّتِ الأيدي التي تُحدِّث أنفسها أَنَّها تَفْسَخُه.

كتاب رقم (28)[3]

حاجةُ صلاح الدين للأموال لإنفاقها لتأليف من حوله

---

(1) أبو شامة، الروضتين، ج3، ص 88.

(2) توفي الملك الصالح إسماعيل صاحب حلب سنة 577هـ/1181م ، وعمره نحو 19 عاماً، وأوصى أمراءه بتسليم حلب إلى ابن عمه عز الدين مسعود بن زنكي، واستحلفهم على ذلك، فلما قضى نحبه أرسلوا إلى عز الدين، وأحضروه إلى حلب، ودخلها في العشرين من شعبان 577هـ، فوصلت رسل إليه من أخيه عماد الدين زنكي يقايضه من حلب إلى سنجار وألح عليه في ذلك لكن عز الدين تمنع، ثم فعل على كرهٍ منه، فسلَّم حلب إلى عماد الدين، وتسلم هو سنجار، والخابور، ونصيبين، والرقة، فلما سمع صلاح الدين بتلك الأمور خرج من الديار المصرية بعساكره إلى حلب فتسلمها من عماد الدين زنكي لضعفه عن الحفاظ عليها، وعوضه عنها بعض بلاد الجزيرة. ابن الأثير : الكامل، ج11، ص 474؛ ابن كثير : البداية والنهاية، ج12، ص331.

(3) أبو شامة، الروضتين، ج3، ص 115.

أرسلَ صلاح الدين هذا الكتاب بقلم الفاضل إلى عامله على دمشق عز الدين فرخشاه[1] سنة 578هـ/1182م .، وجاء فيه :

وَلْتَعْجَلْ بحمل ما هناك من الأموال، فكلما فتحتِ البلادُ أبوابَها، قد فتحت المطامعُ أفواهَها، واستُوْعِبَتِ الخزائنُ إخراجاً وإنفاقاً، واستُنْفِذَتِ الحواصلُ إعطاءً وإطلاقاً، وقدمنا على بحرٍ لا يسدُّه إلا بحر، وعلى أيدٍ إن كان بها الغنى ففي أَنْفُسِها الفَقْر.

(1) عز الدين فرخشاه : ابن أخي صلاح الدين، وكان ينوب عنه بدمشق، وهو ثقته من أهله، وكان اعتماده عليه أكثر من جميع أهله، وأمرائه وكان شجاعًا كريمًا فاضلاً عالمًا بالأدب وغيره، وله شعر جيد من بين أشعار الملوك. توفي سنة 578هـ/1182م. الذهبي : تاريخ الإسلام، ج40، 43؛ السبكي : طبقات الشافعية، ج7، ص369.

كتاب رقم (29)[1]

حاجةُ صلاح الدين للإنفاق على أمور الجهاد

أرسل صلاحُ الدين هذا الكتابَ بقلم الفاضل إلى أخيه العادل بمصر سنة 578هـ/ 1182م، وجاء فيه:

يعلم مقدارُ الحاجةِ إلى الإنفاق، وكثرة الخَرْجِ الذي اشترك فيه أهلُ الآفاق، وأنَّه متى نَضَبَتِ[2] الموادُّ وقفتِ الأُمور التي قد شارفَت نهاياتِها، وتفرَّقتِ الجموعُ التي تناذَرَتِ[3] الأعداءُ نكاياتها، وما دون تملُّك البلاد إلا الوصول إليها، والنُّزول عليها.

(1) أبو شامة، الروضتين، ج3، ص 115.

(2) نضبت : بعدت. ابن منظور : اللسان، ج5، ص4449.

(3) تناذرت : انتهت وانقضت ابن منظور : اللسان، ج 1، ص763.

كتاب رقم (30)[1]

ضمَّ بلاد الجزيرة وحصارُ الموصل[2] سنة 578هـ/ 1182م [3]

أرسلَ صلاحُ الدين هذا الكتابَ بقلم الفاضل إلى الخليفة العباسي الناصر لدين الله، وجاء فيه :

خَدَمُ الخادِمِ متواليةٌ إلى الأبواب الشَّريفة –خَلَّد الله سُلْطَانها– شارحاً لأحواله، ومعتداً بها من صالح أعماله، ومتوقعاً من الأجوبة عنها ما يهيئ له من أمره رَشَداً، ويفرِّق الأعداء إذ كادوا يكونون عليه لِبَداً، فإنَّ الآراءَ الشَّريفةَ لو لم تفصح عنها الإنشاءاتُ، وتتضمنها الإجابات، والابتداءات، لأفصحت عنها موالاةُ الخادم، التي استفتحتِ الدَّوْلَةَ بعقائلِ الفتوح قبل خُطْبتها، وردَّتِ الأسماءَ الشريفة إلى أوطانها من المنابر بعد طول غُرْبتها، فتلك الأعمال كالهجرة، ولكل امرئٍ ما هاجر إليه، وَنِيَّةُ المَرْءِ ثَوْبُه، فلا يلبسُ إلا ما خَلَعَتْه النِّيَّة عليه.وكتابُ الخادم الآن من البِيرة[4] بعدما قطع الفرات، وكان مَنْ لا تُقَرِّبُ عليه العزائِمُ ما هو بعيد، ولا يُلْقي السَّمْعَ وهو شهيد، يظنُّ أَنَّ ساكنَ النِّيل يحولُ الفراتُ بينه وبين قَصْده، وأنه يَنْسى عزيمة رأيه إذا ذَكَرَ طُوْلَ مُدَّته وهَوْل مَدِّه، وكيفما كان هذا المَخْرَجُ المُخْرِجُ فقد أَحْسَنَتْ إلى الخادم إساءتُه إليه، وقَرَّبه من محل دار السَّلام بل الإسلام، فما أكثر ما قال السَّلام عليه، واستشرف جَنَانُه مِنْ جَنَابِهِ أمناً وذُعْراً، أَوْجَبَتْهما الموالاةُ والمهابة، وطالعت عَيْنُه أنواءً[5] وأنواراً تُنْسَبُ إلى بركاتها كُلُّ سحابة، وكاد ينزل عن السُّروجَ والأكوار، ويُقبِّل الثَّرى لأجل شَرَفِ الجِوَار، وتستنفد غُلَّتُه ماءَ الفرات، لأنه يمرُّ بتلك الدِّيار، ويقرأُ من صفائه صفاء تلك الخواطر العظيمة الأخطار، ومن عذوبته عذوبة ذلك الإنعام، الذي هو أعمُّ وأغمر للأقطار من القِطار، وتنوّر دار الإسلام من منزلته فأدناه النَّظَرُ العالي، وأسفلته آمالُه حَوْزَ الفَوْزِ بما قَرَّبه نَجِيّاً من قُرْبها والآمال أمالي، والله تعالى يُشَرِّف أَرْضاً هو واطِئُها، ويرعى سُروجاً هو كالئها ويُسْعِدُ به أمةً هو بارُّها، طاعةً لمن هو بارِئُها.

---

(1) أبو شامة : الروضتين، ج3، ص116– 122.

(2) الموصل : مدينة مشهورة وعظيمة، إحدى قواعد بلاد الإسلام، فهي باب العراق ومفتاح خراسان، منها يقصد إلى جميع البلاد، سميت بالموصل لأنها وصلت بين الجزيرة والعراق. ياقوت : معجم البلدان، ج5، ص 258.

(3) حاصر صلاح الدين الموصل في رجب سنة 578هـ (أكتوبر/ 1182م)، وشدد عليها الحصار، ثم اضطر للرحيل عنها في شعبان 578هـ(نوفمبر/1182م)، وذلك بسبب الاستعدادات الكبيرة التي أعدها المواصلة لمواجهة الحصار، حيث شحنوا المدينة بالرجال، والسلاح، والآلات، ووزعوا الأموال، وكان السبب الأهم في رحيل صلاح الدين عن الموصل هو تقدير صلاح الدين لشفاعة ممثل الخليفة الذي وصل إلى الموصل. أبو شامة : الروضتين، ج3، ص124؛ ابن الأثير : الكامل، ج11، ص485، 486.

(4) البيرة : بلدة تقع غربي الفرات . ياقوت : معجم البلدان، ج1، ص526.

(5) أنواء : جمع نوة وهي الرياح القادمة من البحر. ابن منظور : اللسان، ج5، ص4567.

ولما تحقَّق الخادِمُ أنَّ المَوَاصلة قد واصلوا الفرنج مُواصلةً أخلصوا فيها الضمائر، ولم يستطيعوا فيها كِتْمان السَّرائر، وخَصَمَتْهُم خُطوطُ الأيدي المتمسِّكة بعِصَم الكَوَافِر، وعقدوا معهم عَقْداً شَهِدَه مَنْ هو حاضِرُه، ونقلَه إلى مَنْ سَمِعَه مَنْ هو ناظِرُه، وكان عقدهم إحدى عشرة سنةً، والمُسْتَقِرّ لهم في كلِّ سنة عشرةَ آلاف دينار، على أن تُسَلَّم ثغورُ المُسْلمين إلى الكُفَّار، منها : بانياسوشَقيفُ أرنون[1] وحبيس جلدك[2] وأسارى الفرنج في كل بلدةٍ بأيديهم، وفي كل بلدٍ يسترجعونه من الخادم بمساعدة الفرنج. ولما تمَّ لهم هذا العَقد، وحملوا إلى الفرنج ذلك النَّقْد، ظَنُّوا أن الحقَّ يجادِلُه الباطل فيدحَضُه، وأنَّ يد الكُفْر تنبسط إلى الإسلام فتقبضُه، وأنَّ الخادم لا يمكنه أن يتوجَّه إليهم إلا بأن تكون الفرنج سِلْماً، ولا يستطيع أن يَقْسِمَ العساكر فيجعل بإزاء الفرنج قِسْماً وبإزائهم قِسْماً، وعملوا على هذا الوَهْم، وبنوا على هذا الحُكْم، واستنهضوا الفرنج على تثاقل الخَطْوة، واستخرجوهم على ما بهم من كُلُومِ[3] الغَزْوة بعد الغَزْوة، فتحاملت أَرْجُل الكُفْرِ على ظَلْعِها[4]، وخرجت على طمعها إلى قَرْعها[5]، وأنفَقَتْ في رجالها مالاً حملوه إليهم جَمّاً، وجَرَّت إلى الإسلام جيشاً جهَّزه من يدَّعي الإسلام لَفْظاً ويفارِقُه حُكْماً، وتواعَدَ المَوَاصِلة مع الفرنج ليطلبوا ولاية الخادم من جانب، ويطلبها الفرنج من جانب، ونظروا فيما يُوصل المَسَاءة إلى الخادم، ولم ينظروا للإسلام في العواقب، فوصل المَواصلة إلى نَصِيبين، مُجَدِّين مُحْفلين[6]، وحرَّكُوا الفرنج للخروج إلى الشَّام متطرِّفين ومتوغِّلين، فلا جَرَمَ أن أُمراء جانبهم[7] وخواصَّ صاحبهم لم يَسَعْهم المُروقُ من الدِّين، ولا الخروجُ عن زُمْرةِ الموحِّدين، فأرضوا الله بإسخاطهم، وأشفقوا على دينهم إشفاقاً دَلَّ على تحرُّزهم له واحتياطهم، فاتبعوا الحَقّ وسلكوا سبيلَه، ورَفَعَ لهم الهُدَى منارَه، فاقتفوا دليلَه "**لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ**"[8] فاستعان الخادِمُ عليهم بالله الذي استعانوا على دينه بأعدائه، ولما رأى أنهم قد أمَّلوا النَّصْرَ من أَرْضِهِم أَمَّلَه مِنْ سمائه، فَرَتَّب الخادمُ في رأس الماء بدمشق بإزاء الفرنج المملوك فَرُّخْشاه ابن أخيه، وأبقى عسكرَ الشَّام وحامِيَتَهُ فيه، واستنهض أخاه من مِصْر إلى ما يليه من بلاد الكُفْرِ، فنهض، وقام للخادم بما أقامه له ولله عز وجل بما فَرَض، وسار الخادمُ بالعَسْكر المِصْرِي إلى هذا الجانب الذي هو الآن فيه، وكان أيسره يكفيه، وتثاقل في الطَّريق انتظاراً لأن يأتوا البيوت من أبوابها، ويُفْرِجُوا

---

(1) شقيف أرنون : حصن بالقرب من صور. ياقوت : معجم البلدان، ج3، ص404.

(2) حبيس جلدك : قلعة من أعمال دمشق. ياقوت : معجم البلدان، ج2، ص216.

(3) كُلُوم : جمع كلم وهو الجرح. ابن منظور : اللسان، ج12، 525.

(4) ظلعها : عَرْجها. ابن منظور : اللسان، ج3، ص2750.

(5) قَرْعها : سمة على أيبس الساق. ابن منظور : اللسان، ج4، ص3598.

(6) محفلين : مجتمعين .الفراهيدي : العين، ج3، ص235.

(7) إشارة إلى انحياز مظفر الدين بن زين الدين كوكبري صاحب حرَّان إلى صلاح الدين. ينظر أبو شامة : الروضتين، ج3، ص113.

(8) سورة المجادلة : آية 22.

عن الوِلاية أيدي اغتصابها، وتعتذِرُ إلى السَّيْف ألسنةٌ تُشْفِقُ على رِقابها، فأبَوْا إلا الإباء، ورأوا المُلْك إرثاً ما ادعوا فيه تقليدَ الخُلَفاء بل الآباء.ولما قَرُبَ الخادم من الفُرَات، وصل إليه صاحب حرَّان[1] ابن زين الدين علي كُوجك، مقدَّم عسكرهم، وابن أمير معشرهم، وكذلك صاحب سَرُوج[2] وصاحب البِيرة، وكلٌّ بيده مفاتيح بلده، وأمامَهُ أمانُ الخادم له، قد استبدله من مقلِّده، ووراءه عَسْكَرُهُ على كمال عَدَده وعُدَدِه، وتوالت كتب أمرائهم الذين يأخذون إقطاعاتهم خدماً ومصانعات، ورعاياهم الذين يأخذون أموالهم جناياتٍ ومقاطعات، ومكُوساً وعُشوراً واحتكارات، يرغبون إلى الخادم في الإنقاذ، ويحثُّونه في المسير على الإغذاذ[3]، ويشكون أنهم مع جِوَار دار الخلافة المُعَظَّمة، لا يُسْلَكُ فيهم سَنَنُها، ولا يُقْتَفَى فيهم شرائعها وسُنَنُها، ونُمِيَ إلى الخادم من تفاصيل المغارم التي تُلْزِمُ الفريقين، ويُعْدَلُ بها عن أقصد الطَّريقين، ما يروَع السَّامع ويُسْمعُ الرَّائع، ويسجل عليهم بالخلاف، ويشهد لهم بالانحراف، لأنهم إنِ ادَّعوا تقليداً فقد نقضه كونهم ابتدعوا وما اتبعوا، ونقضوا وما افترضوا، ومثَّلوا بالحقِّ وما امتثلوا، وأُمِرُوا بكَفِّ الأيدي وقد بسطوها، وبأخْذِ الأموال من حِلِّها وقد خَلَطُوها، وبرعايةِ أُمَّةِ النبي صلى الله عليه وسلم وقد أَسْخطوه فيها وأسخطوها. وابنُ الدَّعْوةِ العَبَّاسية مَنْ رعاها لا من ادَّعاها، والعهود وصايا وما الأَوْلى بها مَنْ سَمِعَها بل مَنْ وعاها، وأي عهدٍ لمن لا عَهْدَ له بالطَّاعة، وأي وِلايةٍ لمأمورٍ بأن يجمع أهلَ الفُرْقة فَفَرَّق أهلَ الجماعة، فالجُنْدِي تُؤكل الأرضُ باسمه ولا شيء بيديه، والعاميُّ يرفع إلى السَّماء استغاثةَ ما لا يُمْهل الله عليه، ولقد تعجَّب الخادم من إسفاف الأنفس الغنية إلا أنها الفقيرة، والارتفاق بتلك الطُّعَم الجليلة وهي على الحقيقة الحقيرة "**يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ**"[4].

هذا إلى طامَّةٍ أُخرى لا تَقِرُّ عليها الجُنُوب، ولا تَدُرُّ عليها الحَلُوب، ولا ينام على سهرٍ بارقُها وإن كان الخَلُوب[5]؛ وهو أنَّ الخادم بلغه أنهم كاتبوا جهةً من الجهات التي الدولة منحرفةٌ عنها، وبذلوا الطَّاعة لها وقد أُمروا بالامتناع منها، وهذا نصٌّ في الخِلاف لا يدخله التأويل، وقَوْلٌ قد أحاط به العِلْمُ فلا يَخْتَلِجُهُ التَّقويل، وكلُّ صغيرةٍ من هذه الكبائر، وكلُّ واحدٍ من هذا الجمع المتكاثر، يَنْقُضُ الولاية ويَجْرَحُ العَدَالة، ويَسْلُبُ الرُّشْدَ ويُثْبِتُ الضَّلالة، ويُمْضي نيةَ الولي فيما هو له ماضٍ، ويَبْعَثُ عَزْمَه فيقضي ما هو قاضٍ، ويُسْخِطُه وكيف لا يسخَطُ والمَوْلَى غَيْرُ راض، ويغيظه بما لا عُذْرَ له لمغتاظٍ

---

(1) حرَّان : مدينة عظيمة على طريق الموصل والشام. ياقوت، معجم البلدان، ج2، ص271؛ البغدادي : مراصد الإطلاع، ج1، ص389.

(2) سروج : سروج : بلدة قريبة من حران وديار مضر، فتحها عياض بن غنم صلحاً سنة 17هـ/638م ، أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه. ياقوت : معجم البلدان، ج3، ص244.

(3) الإغذاذ : الإسراع في المشي. ابن منظور : اللسان، ج4، ص3222.

(4) سورة التوبة : آية 35.

(5) الخَلوب : السحاب الذي يبرق ولا يمطر. ابن منظور : اللسان، ج3، ص 132.

منغاض[1]. وما أنهى الخادمُ مما اتصل به الأوائل والأطراف، وما عوَّل إلا على ما صَحَّحته النَّفْسُ دونَ ما خَيَّلَه الإرجاف، وإذ قد ساق الله إلى هذه الولاية حَظَّها من مَعْدِلَةٍ كان الزَّمانُ بها طويلاً مَطْلُه، وأنشأها سحابُ إحسانٍ كان بعيداً عليها هَطْلُه، فقد كُفِيَتِ الخواطرُ الشَّريفة ما كانت به على اهتمامها، كما يجب للأُمة على إمامها، وإليه بتفويض الله يرجع أَمْرُها، وبيده يُجْلَبُ نَفْعُها ويُجْلَى ضَرُّها، وقد تجدَّدت للدَّوْلة الشَّريفة قوةٌ واستظهار، وَبَسْطَةٌ واقتدار، وسَيْفٌ به يُناضل من يُسيء الجوار، ولسانٌ يجادل به من يريد الدار.

(1) منغاض : متعجب. ابن منظور : اللسان، ج5، ص4488.

كتاب رقم (31)[1]

ضم الجزيرة سنة 578هـ/1182م [2]

أرسلَ صلاحُ الدين هذا الكتابَ بقلم الفاضل إلى حطان بن منقذ والي اليمن، وجاء فيه :

فَتَحَ الله علينا ممالكَ وأَضافها، وبلاداً آمنها بنا مما أخافها، وبلَّغنا غرائبَ صُنع لا نبلُغ أوصافَها؛ منها بلاد الشَّام بأسرها، ومملكة حلب بجملتها، والمدينة بقلعتها، وبلاد الجزيرة إلى دِجْلَتها. فمنها ما أُعيد على من اشترط عليه استخدام عسكره في بيكارنا، ومنها ما استمرَّ في اليد، وولاته من أوليائنا وأنصارنا. ولمَّا لم يبق في البلاد الإسلامية إلا ما هو في يدنا أو في يد مطيع لنا، كان من شُكْر هذه النِّعْمة أن نصرف القوَّة ونُثْنِيَ العَزْمة، ونحدَّ الشَّوْكة ونَلْبَس الشِّكَّة[3] للفرنج الملاعين، فننازلهم ونقارِعُهم، ونخاصمهم إلى الله وننازعهم، فَنُطَهِّر الأرض المقدَّسة من رِجْسهم بدمائهم، إلى أن تَرِقَّ السُّيوف للصخرةِ الشَّريفة لما مَرَّ بها من قسوة كُفْرهم واعتدائِهم. فنحن نرجو أن نكون عين الطَّائفة من الأُمة التي أخبر نبيُّنا صلوات الله عليه أنها لا تزال على الحقِّ ظاهرة[4]، وبثواب الله وعَدُوِّه ظافرة، والله تعالى يعيننا على ما يَعْنينا، ويلهمنا الاستجابة لدعوته إلى ما يحيينا.

---

(1) أبو شامة، الروضتين، ج3، ص 183-184.

(2) خرج صلاح الدين من مصر إلى الشام في محرم 578هـ/مايو 1182م، بعد وفاة الصالح إسماعيل، ووصل إلى حلب لكنه تركها واتجه إلى بلاد الجزيرة بعد أن أقنعه مظفر الدين كوكبري صاحب حرَّان بذلك، وقد تمكن صلاح الدين خلال شهرين فقط من ضم معظم بلاد الجزيرة. ابن الأثير : الكامل، ج 11، ص 482-483؛ الروضتين، ج3، ص113، 115.

(3) الشِّكَّة : السلاح. ابن منظور : اللسان، ج3، ص2309.

(4) يقصد قول النبي صلى الله عليه وسلم : " لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الْحَقِّ لَا يَضُرُّهُمْ من خَالَفَهُمْ" مسلم : صحيح مسلم، ج3، ص1523.

كتاب رقم (32)[1]
دوافع ضم الشام

أرسلَ صلاحُ الدين هذا الكتابَ بقلم الفاضل إلى الخليفة العباسي الناصر لدين الله سنة 578هـ/1182مـ، وجاء فيه :

سبيلُ الخادم أن يُبْنَى ولا يُهدَم، ويُوقَّر جانبه ولا يُثْلَم، وأن يُفَرَّقَ بينه وبين من يمسكون أَعِنَّة[2] الجياد المسوَّمة ولا يطلقونها، ويَكْنِزُون الذهب والفِضَّة ولا ينفقونها، فقد عُلِمَ أن الخادمَ بيوتُ أمواله في بيوت رجاله، وأن مواطَنَ نُزُوله في مواقف نِزَاله ومضارب خيامه أَكَنَّة[3] ظلاله. وأنه لا يدَّخر من الدُّنيا إلا شِكَّته[4]، ولا ينالُ من العيشِ إلا مُسْكته، وعدوُّ الإسلام شديدٌ على الإسلام كَلَبُه، مضطرمٌ على أهله لَهَبُهُ، زَجِلٌ- إذا أصغت أسماعُ التأمُّل- لَجَبُهُ[5]. ولو أن أحدَ مَنْ يدَّعي المُلْك ميراثاً، ويَعُدُّ البلاد له تراثاَ؛ دُفع إلى مدافعة هذا العدو الكافر، وإلى منافرة هذا الفريق النافر، لعرَّفته الأيامُ ما هو جاهِلُه، ولقلَّدته الحَرْب ما هو قاتله، ولحمَّلته الأهوال ما تخور تحته محامِلُه.

---

(1) أبو شامة : الروضتين، ج3، ص180-181.

(2) الأعنَّة : هي اللجام التي تمسك به الدابة. المعجم الوسيط، ج2، ص633.

(3) أكنة : جمع كن وهو البيت. ابن منظور : اللسان، ج13، ص360.

(4) شِكَّته : سلاحه. ابن منظور : اللسان، ج3، 2309.

(5) لَجَبُهُ : الصوت المرتفع والصياح. ابن منظور : اللسان، ج4، ص3998.

كتاب رقم (33)[1]

ضم آمد[2] وميافارقين[3] سنة 579هـ/1184م[4] والمطالبة بتقليد الموصل

أرسل صلاح الدين هذا الكتاب بقلم الفاضل إلى الخليفة العباسي الناصر لدين الله، وجاء فيه :

(أدام الله أيامَ الديوان العزيز النبوي، ولا زالت دواوين الخلائق مبيضة بولاء ملائكته، وطاعته من أهم فرائض الدين ومناسكه، والدنيا لها ساكنة بالأمن من تحت سريره، أو منزعجة بالعجاج تحت سنابكه، والحق والباطل منصرفين بين أمره ونهيه، فطوبى لآخذه وطولى لتاركه، والأقلام تنقل إلى علمه من آثار رماح أوليائه، وأخبار نصر لوائه بما يعلم به أن الأقلام عباسية لما لبست من شعار أيامه ولما أقامت من شفار انتقامه، ولما بدت من آثار خدامه، ولما حظيت من أخبار إنعامه ولما نابت به فأحسنت من حسامه)[5]. وَرَدَ إلى الخادم التقليد الشَّريف بولاية آمِد، فلما رآه مستقرّاً عنده قال : هذا مِفْتاحها، وسمع الوصايا فاستضاء بها في ظلمات القصد، وقال : هذا مِصْباحها، وتناوله فما ظنَّ إلا كتاباً أُنزل عليه من السَّماء في قِرطاس، وما تيقَّنه إلا نوراً يمشي به في النَّاس، فسار به ولولا العادة ما استصحب جُنْدياً وعوَّل عليه، ولولا الزِّينة ما تقلَّد هندياً وطرق بابه بإقليده[6]، ولولاه ما استطاع الأولياء أن يَظْهَروه، وما استطاعوا له نَقْباً[7]، وناشد المقيم بتقليده (ثلاثة أيام بثلاث

---

(1) أبو شامة، الروضتين، ج3، ص 149-153.(أ)؛ مكاتبات من الترسل : ص 123- 125 (هـ).

(2) آمد : بلد قديم حصين، لها سور مبني بالحجارة ويقع على نهر دجلة، وفيها بساتين كثيرة. ياقوت : معجم البلدان، ج1، ص76.

(3) ميافارقين : بلد يقع في ديار بكر.الأندلسي : معجم ما استعجم، ج4، ص1268.

(4) وصل صلاح الدين إلى آمد في السابع عشر من ذي الحجة سنة 578هـ/ 1183م، وقام بحصارها وكان المتولي لأمرها بهاء الدين بن نيسان، فلما نازلها صلاح الدين أساء ابن نيسان التدبير ولم يعط الناس من الذخائر شيئاً، ولا فرَّق عليهم ديناراً ولا قوتاً، وقال لهل البلد قاتلوا عن نقوسكم، فقاتلهم صلاح الدين ونصب المجانيق وزحف إليها وهي في غاية الحصانة والمناعة، وبقى ابن نيسان على حاله من الشح بالمال؛ فلما رأى الناس ذلك تهاونوا بالقتال وجنحوا إلى السلم، وامر صلاح الدين أن يكتب على السهام لأهل البلد يعدهم بالخير والإحسان إن أطاعوه، ويتهددهم إن قاتلوه، فاحبوا ملكه وتركوا القتال، وعندما رأى ابن نيسان ان اهل البلد تركوه خرج غلى القاضي الفاضل يطلب من الأمان له ولأهله وماله، فأجابه صلاح الدين على ذلك وتسلم البلد في العاشر من محرم سنة 579هـ/1184م. ابن الأثير : الكامل، ج11ن ص493، 494؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة، ج6، ص86.

(5) زيادة في هـ.

(6) إقليده : مفتاحه. جمهرة اللغة، ج2، 675.

(7) اقتباس من قوله تعالى : " فَمَا اسْتَطَاعُواْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُواْ لَهُ نَقْباً" سورة الكهف : آية 97.

رسائل)[1]، فلو كان ذا سَمْعٍ أَصْغى، ولو كان ذا لُبٍّ لَبَّى. فلما انقضت ضيافة أيام النِّذارة، واحتقر مَنْ بآمد نارَ الحَرْبِ جاهلاً أن وَقُودَها النَّاسُ والحِجارة[2]، عَمَد لها في اليوم الرَّابع فزلزل عُمُدَها، وقاتلها فأزال جِلدها وزَيَّل جَلْمَدَها[3]، ثم رأى أن الشَّوْكة ربما أصابت غير ذات الشَّوْكة من جُنْدها، وأن المُسْلم قد آمنه الله من عذاب الحريق، ولا يأمن أن تحرقه القِسِيُّ من السِّهام بشَرار زَندها، فعدَلَ إلى منجنيقه[4]، الذي أمَّل صاحبُها منه منجى نِيْقِهِ[5]، ورأى أنه سَوْطُ سَطْوته، يَضْرِبُ الحَجَر، ويُضْرِبُ عن أن يُباشر البَشَر، وتلك الأبرجة قد شَمَخَتْ بأنفها، ونأت بعِطْفها[6]، وتاهت على وامقها[7]، وغَضَّتْ عينَ رامقها، (وذهبت همة في حالقها ولكنها لم تذهب هامة على خالقها)[8] فهي في عقاب لُوح الجو كالطَّائر، إلا أن المنجنيق أغرى بها عُقابيه، وَضَغَّمَها[9] بمخلبيه، وجثَم أمامها يخاصمها، وقام إلى الغير يحاكمها، ويضرب بعصاه الحَجَر، فتنبجس[10] من الثُّقوب أعينٌ لا ترسلِ الماء[11]، ولكن تروي العطاشَ إلى منهل المدينة، وتنهل الظِّماء كذلك أياماً حتى محا من الشُّرفات شَنَبَ ثَغْرها، وتناوبها كَأْسُ فَتْكٍ تبين بهزِّ أبراجها آثارُ سُكْرها، وعَلَتِ الأيدي الرَّامية لها، وغُلَّت الأيدي المحامية عنها، فلم يبقَ على سورها مَنْ يفتح جَفْناً، وشنَّ المنجنيق عليها غارَتَه إلى أن صارت شَنّاً[12]، وفُضَّت صناديقُ الحجارة المُقْفَلة، وفُصلت منها أعضاء السُّور المتَّصلة، ووجب القتال لئلا يُظَنَّ بالخادم ألا جُندَ له لا جَنْدَلَه، فأعوز بالتقدم إليها، ودخول النَّقَّابين فيها، فأُثخنت جراحاً بالنُّقوب، وهُتِكَ الحجابُ من أضالع البلد، فكاد يوصل إلى ما وراءها من القلوب، وخُشيت معرَّة الجيش في وقت هَجْمه، وَرُوْسِل صاحبها بأنه كشف له الخِذلان حتى بَصُرَ على شَكِّه بِعِلْمه، فأعادَ الرسول مُسْتكفياً بحجب النَّجاة بإرسال ذوات الحجاب وإبرازهن، ومستكفاً ليد القتل بمن لم يكن جوابُه غير إحرازه وإحرازهن، ولم يُعارَضْ في نفسه ولا في قومه ولا في أمواله وهي ما هي؟ ذخائر موفَّرة، ومكاسب من أرباح مخسَّرة،

---

(1) زيادة في أ.

(2) اقتباس من قوله تعالى : "فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ" سورة البقرة : آية 24.

(3) جلمدها : صخرها.ابن منظور : اللسان، ج1، ص667.

(4) المنجنيق : آلة قديمة من آلات الحصار كانت ترمى بها الحجارة الثقيلة على الأسوار فتهدمها. المعجم الوسيط، ج2، ص855.

(5) النيق : أعلى موضع في الجبل. ابن منظور : اللسان، ج5، ص4593.

(6) عِطفها : منكبها. ابن منظور : اللسان، ج3، ص3997.

(7) وامقها : أي محبها ابن منظور : اللسان، ج5، ص4927؛ المعجم الوسيط، ج2، ص 1101.

(8) زيادة في هـ.

(9) الضغم : العض الشديد ابن منظور : لسان العرب، ج3، ص 2592؛ المعجم الوسيط، ج1، ص 560.

(10) تنبجس : تنشق.ابن منظور : اللسان، ج1، ص212.

(11) تشير إلى قوله تعالى "واضرب بعصاك الحجر فانبجست من اثنتا عشر عيناً" سورة الأعراب : آية 160.

(12) شَنّاً : فرقها.الزبيدي : تاج العروس، ج35، ص290.

كانت الحقوق عنها مذودة، والآمال دونها مطرودة. وغَضَّ الخادم كُلَّ عين عن عَيْنه وَوَرقِه، وصانَه في مخيَّمه من الفقر صيانته في ذات سُوره وخَنْدَقِه، واستوفى شَرْطَ الوفاء بما أعطاه من مَوْثِقه.

وهذه آمِد فهي مدينةٌ ذِكْرُها بين العالم مُتَعالم، وطالما صادَمَ جانبها من تقادم، فرجع (مجدوعاً)[1] أنفه وإن كان فَحْلاً، وقَرَعها فريدُ الهِمَّة واستصحب حَفْلاً، ورأى حَجَرها فقدَّر أنه لا يُفَكُ له حَجْر، وسوادَها فحسب أنه لا ينسخه فَجْر، وحمِيَّةَ أنف أنفها فاعتقد أنه لا يستجيب لِزَجْر، من ملوك كلهم طوى صَدْرَه على الغليل إلى موردها، ووقفَ بها وقوف المُحِبِّ فلم يَفُز بما أَمَّل من جواب معهدها. (ورأى الخادم أن الخادم نور الدين بن قرا أرسلان قد تقدمت منه هذه الخدمة وشرطت عليه في وقت الغزاة إلى الكفر معاونة وأنه جارها الأدنى الدار وخاطبها وإن خاطبها في سالف الأعصار، وأنه ذو جيش مجرور فأراد أن يجعلها بولايتها ذا جيش جرار فسلمها إليه، وشرط عليه ما شرط الديوان العزيز عليه من معدٍ له بنسخ ما كان بها من مظلمة الظلم ونزاهة يكون اتباعها من حكمة الحكم وتخفيف الوطأة وتحسين السمعة وقبول الوصايا الديوانية التي هي لأولياء أمير المؤمنين صلوات عليه منهاج وشرعة)[2].

ولما رأى صاحب ميافارقين أن أخت صاحبته قد ابْتُني بها، خاف أن يُجمع له بين الأختين، فراسل ببذل الخِدمة التي يكون فيها لنور الدين ثاني اثنين (وقرر أن ينهض عسكره في أوقات الملاقاة وأن ينتقل من حكم النفاق إلى حكم الثقات، وذلك كله بعد ما أشار إلى ذكره)[3]. وقد اجتمع المواصلة وشاه أرمن وصاحب مارِدين[4] وصاحب أَرْزن[5] وبَدْلِيس[6]، وغيرهم على قَصْدِ الخادم، ونزلوا تحت الجَبَل، فلما صحَّ عندهم قصده[7]، ظنُّوا أنه واقعٌ بهم، فأخذوا أعِنَّة الفرار بقوة، وذكروا ما في لقائه من عوائد كانت عندهم مَخُوفة وعنده مرجوَّة، وسار كلُّ فريقٍ على طريق، بِنِيَّةِ عدوٍّ وفِعْلِ صديق، والخادم يقول (من لسانه لمولاه الولاء، فإنه يقول من لسانه ويجني من جنانه ويقتطف نور القول من بستانه،

---

(1) أ : مقدوعاً.

(2) زيادة في هـ.

(3) زيادة في هـ.

(4) ماردين : قلعة مشهورة على جبل الجزيرة مشرفة على نيسر ودار ونصيبين، فتحت سنة 19هـ/640هـ، أيام عمر بن الخطاب. ياقوت : معجم البلدان، ج5، ص46.

(5) أرزن : مدينة بها قلعة حصينة، وكانت من أعظم نواحي أرمينية، فتحت صلحاً سنة 20هـ/641م على يد عياض بن غنم. ياقوت : معجم البلدان، ج1، 180-181.

(6) بدليس : بلدة من نواحي أرمينية قرب خلاط، ذات بساتين كثيرة. ياقوت : معجم البلدان، ج1، ص427.

(7) أ : صده.

ويقدم على ذكره مذكورا ويعيذه الله من نسيانه، إنه)[1] مهما أرادت فيه الآراء الشريفة أتاه، ومهما نَوَتْ فيه من إحسان قَرُبَ عليه ما نواه (وعلى ذلك دليل جلي جليل لا نوره أفل ولا رأيه يقيل)[2].

فهذه آمِد لما أُرسل إليه مِفتاحُها (وهو التقليد فتحها وهذه الموصل لما تأخر عنه المفتاح منعها، وما منحها[3]، ولو أُعين به لِعَظُمت على الإسلام عائدته، وظهرت في رفع منارِهِ فائدته، لأنَّ اليد كانت تكون به على عدو الحق واحدة، والهمَّة لآلات النَّصْر واجدة، (والخلف الذي أمير المؤمنين صلوات الله عليه مطالب بحسمه كان يُحسم، والظلم الذي سيفه مُجردٌ لقَطْع دابره كان يُقصم، وبخضم جيوش هذا الدين كانت تجتمع على الكافرين فتُفرق فِرقتهم ويُجلَّى بأنوار الإيفاق غسقهم، والشواعل كانت ترتفع، والموانع كانت تمتنع، وتوفيق الله لسيدنا ومولانا أمير المؤمنين صلى الله عليه يتوضح بدرًا لا يضام في رؤيته بل محياه لا يحتاج في بلجته، وذلك أمن عقباه ألا يُعبد إلا الله وحده وفَحْواه الظفر الأدنى بالأقصى الذي حمل الله إليه ليلة المعراج عبده ومغزاه أن لأمير المؤمنين عبدٌ وليٌ لا يبقى على الدولة والإسلام عز وبعده ومعناه أن يُجرد للإسلام سيفَ نُصرةٍ يَمُده قلم الديوان بِمُده)[4] فإن رأى أميرُ المؤمنين أن يميِّز بين أوليائه، ويَنْظُرَ أَيُّهم أَبَرُّ بأوليائه، وأَشَدُّ على أعدائه، وأقومُ بحقِّه وحق آبائه، وأثبتُ رأياً ورؤية في مواقف راياته، ومجالس آرائه، وأعظمُ إقداماً على ملحدين كلّهم كان يُنازعه رداءَ علائه، وكان السَّابقُ من ولاة الدولة العَبَّاسية قاصر السَّيف عن أن نسيغ الغُصَّة بمائه، وأَيُّهم أترك للفراش الممهَّد، وأهتكُ للطَّراف الممدَّد، وأهجرُ في سبيل الله لراحِهِ، وأصبرُ في جهاد عدو الله على مضض جراحِه، وأسَلْى عن ريحانة فؤاده، وأكثر ممارسةً لحيه، (فإنما أخص أفعال أمره أمير المؤمنين أن يرجح من أهل الولاية ويريح لحماية الإسلام أقوم أهله في الحماية)[5] وأن يختار لهذه الأمة التي جعله الله لها إماماً وأميراً، أسعدَ من أجرى في طاعته ضامراً وملأ بولائه ضميراً، فمن عَدْلِه أن يُولي عليها العَدْلَ الذي يقرُّ عَيْنها، ومن فَضْله أن لا ينسى الفَضْل بينهما.

وقد ورد ذلك المنشور بآمد فأورد الميسور، فإن ورَدَه المنشور المُشَار إليه بالجزيرة وما وسَقَت، فإنه نورٌ على نور (والديوان العزيز مجده الله إذا طاشت في الحرب أقلام الاستخدام ثبت بما أثبتت في الحرب أقدام الإقدام)[6]، وما يحسبُ الخادمُ أن كيداً للعدوِّ الكافر أَكْيَد، ولا جهداً لأهل الضَّلال أَجْهد، ولا عائدةً تغيظُ رؤساء أهل الإلحاد أَعْود، من تفخيم أمر الخادم بمزيد الاستخدام، وإلا فلينظر، هل يشقُّ على الكُفَّار (من يد)[7] أحدٍ سواه من وُلاة الإسلام، فكلُّ ذي سُلْطان هو الطَّاعم الكاسي، المَحْمِيُّ

(1) زيادة في هـ.
(2) زيادة في هـ.
(3) زيادة في هـ.
(4) زيادة في هـ.
(5) زيادة من هـ.
(6) زيادة في هـ.
(7) زيادة في هـ.

بالمناصل[1] لا الحامي، المُكْتفي لا الكافي، يقضي عُمُرَه وهو لا يشهدُ الطّعْنَ إلا في المَيْدَانَ، ولا يتمثَّل الهامَ طائرٍ لولا الكرة في الصَّوْلجان، (ولا يخرج بالغزوة في العام ولا في العامين[2] (ولا يَشْقى بسهمه إلا قِرْطاسُه، ولا يحظى برِفْده[3] إلا أكياسُه، فأعاد الله بأمير المؤمنين هذا الدِّين إلى معالم حقِّه الأولى، وأطال يد سُلْطانه الطُّولى، إلى أن تأخذ الأمور مآخذها عَدْلاً واعتدالاً، (وأحفى وإحفالا وقبولا وإقبالا)[4] وسلماً وقتالاً، فتعود إلى الإسلام عوائدُ ارتياحه، وأيامُ منصوره[5] وسَفَّاحه[6]. (والخادم ينتظر وُصول التقليد بالموصل، وما علق به أمل المؤمل إلى أن أجال فيه نظر المتأمل ثقة بأن مسائله على النجاح قادمة، وأن كتابه لطائر المنى قادمة والرأي أعلى)[7].

(1) المناصل : مفردها منصل وهو السيف بعينه. جمهرة اللغة، ج2، ص897.

(2) زيادة في هـ.

(3) رِفْده : عطائه وصلته. ابن منظور : السان، ج3، ص181.

(4) زيادة في هـ.

(5) يقصد به أبو جعفر المنصور وهو : عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، أبو جعفر المنصور أمير المؤمنين، ولد سنة 95هـ/ 714م، وكان قبل الخلافة يقال له عبد الله الطويل، كان شجاعاً مهيباً تاركاً للهو واللعب كامل العقل، حريصاً على جمع المال ولما مات خلف في بيوت الأموال تسعمائة ألف ألف دينار وخمسين ألف ألف درهم، وولي الخلافة بعد وفاة أخيه السفاح سنة 136 هـ وهو باني مدينة " بغداد " أمر بتخطيطها سنة 145 وجعلها دار ملكه بدلا من " الهاشمية " التي بناها السفاح. عاش 64 عاماً فقد توفي سنة 158هـ/775م. الكتبي : فوات الوفيات، ج2، ص216.

(6) يقصد به السفاح وهو : عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، أمير المؤمنين السفاح، أول خلفاء بني العباس، ولد بالحميمة، سنة 108هـ/762م، وتوفي السفاح بمرض الجدري وهو بالأنبار سنة 136هـ/753م، وعاش ثمانية وعشرين سنة وبويع له بالكوفة سنة 131هـ/748م، وهو ابن أربع وعشرين سنة، وقد كانت ولايته أربع سنين وثمانية أشهر. الكتبي : فوات الوفيات، ج2، ص215؛ كنعان : تاريخ الدولة العباسية، ص17؛ الخضري : الدولة العباسية، ص70.

(7) زيادة في هـ.

كتاب رقم (34)[1]

فتحُ آمد[2] والمطالبة بتقليد الموصل سنة 579هـ/1184م

أرسلَ صلاحُ الدينِ هذا الكتابَ بقلم الفاضلِ إلى الخليفةِ العباسي الناصر لدين الله ، وجاء فيه :

(أَصْدَرَ هذه الوسيلة إلى المجلس السَّامي، معوِّلاً على كرمه فيما حَمَلْتُهُ من اللُّبانة[3]، مستغنياً بشهرة الحال المتجدِّدة عن الإبانة، فإن آمد قَصُرَ الأَمَدُ في الظَّفر بها، (وإنقاذها من)[4] المظالم التي تُلْبِسُ نهارها نُقْبَةَ غَيْهبها، وسار إليها ببقية العساكر بعد الذين ساروا إلى الشَّام، وأقاموا قبالة الكُفَّار، وبعدَّة اقتصر عليها أكثر من عساكر الدِّيار المصرية على بُعْد تلك الدِّيار، لِيَظْهرَ لمن نوى المناواة، ويتبيَّن لمن كان على منافاة الملاقاة، أنَّ رجالاً من مِصْر فتحوا آمِد بعد سنة من البَيْكار، وبعد غزوتين قد ولع بهما في تواريخهما إلى الكُفَّار، ففي ذلك ما يَغُصُّ الحاسد، ويَغُضُّ الحاقد، ويعلم أن في أولياء الدولة ما رَدَّ كُلَّ مارد. فلما حَلَّ بعَقْوتها[5] أراد أن يُجري الأمر على صوابه، ويَلِجَ الأمرَ من بابه، وأن يُنْذِرَ المُغْتَرَّ ويوقظَه، ويَعِظَهُ بالقَوْل الذي رأى من الرِّفْق ألا يُغْلِظَه، فبعث إليه أن يَهُبَّ من كَرَاه، ويُعِدَّ لضيف التقليد قِراه، وينجو بنفسه منجى (الذئاب)[6]، ولا يتعرَّض لأن يكون منتجىً (للذئاب)[7]، فإذا عريكته لا تلين إلا بالعِراك، وطريدته لا تُصاد إلا بالأَشْراك، فَهُناك رأى عاجلاً ما هُناك، وقوتل حقَّ القتال في يوم واحد، عرف ما بعده من الأيام، ووقع الإشفاق من رَوْعةِ الحريم وسَفْك الحرام، ونصب المنجنيقات، فأرسل عارضُها مطرَه، وفَطَرَ السُّورُ بقدرة الذي فَطَرَه، وخَطَبَ أمامها خطيبُ خَطْبه، وأغمد الصَّارم اكتفاءً بضَرْبه، وتَرَفَّه أهلُ الحرب لِحُسْنِ المناب منه عن حَرْبه، فصار في أقرب الأوقات جبلُها كثيباً مهيلاً، وعُفِّرتِ الأَبْرِجة وجهاً تَرِباً، ونظرت القلعة نظراً كليلاً، حتى إذا أمكنت النُّقوبُ أن تُؤْخَذ، وكبد السُّور أن تُفْلَذ، رأى الذي لا يصبر على بعضه، واعتذر إليه البِنَاءُ الذي بناءُ الأمر إن لم يَقِضه، فلا بُدَّ من نَقْضه،

---

(1) أبو شامة، الروضتين، ج3، ص153-155.(أ)؛ ابن واصل : مفرج الكروب، ج2، ص138.(ج)؛ مكاتبات من الترسل : ص126 (هـ).

(2) آمد : بلد قديم حصين، لها سور مبني بالحجارة ويقع على نهر دجلة، وفي وسطه عيون وآبار، وفيها بساتين كثيرة. ياقوت : معجم البلدان، ج1، ص76.

(3) اللُّبانة : الحاجة. ابن منظور : اللسان، ج13، ص377.

(4) هـ : وإبعادها عن

(5) عقوتها : ساحتها. ابن منظور : اللسان، ج15، ص79.

(6) أ : الذباب.

(7) أ : للذباب.

وسأل فأجيب إلى الأمان على نَفْسه، وخرج منها وإنما أخرجه الظُّلْم، وسَلِمَ وهو يرى السَّلامة إما من الحُلُم وإما من الحِلْم.

(وتقليده الذي لما أوتي منه كتابه سجد إلى قبلته، فَبَانَ نُور القَبول على وَجنيته، وتحقق أنَّ الحق معه، وألا قيل به الباطل، وأن القول الذي فيه ما ترك مقالاً لقائل، وأنَّ السيف الذي حمله أقطعُ من السيف الذي حملته الحمائل، وأن القلم الذي جرى به أجرى من الريح، فإن الخطَّ هو النصير والخَطِّيُّ هو الذابل)[1] ولولاه لما فُتحَ له البابُ الذي قَرَعه[2]، ولا أُنزل عليه النَّصْرُ الذي أُنزل معه، ولا ساعَدَ سيفاً ساعِد، ولا نالت يدٌ مُدَّت من مِصْر فأخذت آمِد وَمَنْ بآمِد، (وقد وَضُحَ له اليقين الذي لا شبهة فيه، والدليل الذي لا يسلمه إلى الغزوة، أنه لو أجيبت رغبته)[3] وقُبلت مسألته في تقليد المَوْصل، لكان وَلَجها ولو بدلجةٍ أدَّلجها، (وأخذَها ولو بحصَاةٍ نبذَها)[4]، (ولكانت الأقدار تؤتيه وتؤاتيه والإقبال يوفيه ويوافيه)[5] وهو يتوقَّع في جواب هذا الفتح أن يُمَدَّ بجيشٍ هو الكلام، ورماحٍ هي الأقلام، ونصرٍ هو واقد الأمر، (وترشيدٍ هو فكُّ الحَجْر)[6]، وليس ذلك لوسائل من دولةٍ أقامها بعد مَيْل عُروشها، ولا لدعوةٍ قام فيها بما تصاغَرَتْ دونه هِمَمُ جيوشها، ولكن لأن هذه الجزيرة الصغيرة منها تنبعث الجريرة[7] الكبيرة، وهي دار الفُرْقة ومدار الشُّقَّة، ولو انتظمت في السِّلْك، لانتظم جميع عسكر الإسلام في قتال الشِّرْك، ولكان الكُفْر يُلْقي بيديه، وينقلبُ على عقبيه، ويغشاه الإسلام من خلفه ومن بين يَديه، ويُغْزَى من مِصْر براً وبحراً، ومن الشَّام سراً وجهراً، ومن الجزيرة مَدَّاً وجَزْراً، (ويكون خادمه قد وجب أن يتمثَّل بقوله تعالى : ﴿ولقد مَنَنَّا عليك مَرَّةً أُخرى ﴾[8][9].

---

(1) زيادة في هـ.

(2) قرعه : ضربه. ابن منظور : اللسان، ج8، ص266.

(3) زيادة في هـ.

(4) زيادة في أ ، هـ

(5) زيادة في هـ.

(6) ج : ورشد هو فك الحجر.

(7) الجريرة : الجناية والذنب. ابن منظور : اللسان، ج4، ص129.

(8) سورة طه : آية 37.

(9) زيادة في أ.

كتاب رقم (35) [1]

ضم تل خالد[2] سنة 579هـ/1184م .[3]

أرسل صلاح الدين هذا الكتاب بقلم الفاضل إلى الخليفة العباسي الناصر لدين الله، وجاء فيه :

نزلنا تل خالد يوم الثلاثاء ثاني عشر محرَّم، وكان قد تقدَّمنا الأجلُّ تاجُ الملوك[4] إليها، وأناخ عليها، وقابلها وقاتلها، (وعالجها ولو شاء لعاجلها)[5]، ولما أَطلَّت عليها راياتنا ألقى من فيها بيده، وأنجز النَّصْرَ صادقُ مَوْعِده، (وأصفى عنده مورده عذبَ مورده، وأجرى الله على العادة فلا فضلها رجاء معوده، وكتابنا، وقد صارت في القبضة، واستحقت بها هذه النهضة)[6] وأرسلتها حلب مقدِّمةً لفتحهاوقد أنعمَ الله علينا بنعمٍ لا نحصيها تعداداً، ولا نستقصيها اعتداداً، ولا نستوعبها ولو كان النَّهار طِرْساً[7] والبحرُ مِداداً، ورايتُنا المنصورة قد صارت مغناطيسَ البلاد (تَجْذِبُها)[8] بطبعها، وسيوفُنا قد صارت مفاتح الأمصار تفتحها بنصر الله (لا بحدِّها ولا بقطعها)[9]. (فقد كفانا من الاختيار عليها لوعيد بلا مؤونة لمطل ولا منة لمختار، ولما قطعنا الفرات سرعان العسكر إلى تل خالد فنزلوا يغفونها ورفعت المنجنيقَ يدَها إلى ذروتها فلما نزلنا بها نزل من فيها على حكمنا وأجزيناه من الإحسان على رسمنا واستجار من حربنا بذمة سلمنا وطوينا التي أجرى الله بمشيئته قريباً كتاب فتحها ويقرع الله بها العيون أسرع من لمحها)[10].

---

(1) أبو شامة : الروضتين، ج3، ص157 (أ)؛ مكاتبات من الترسل، ص129 (هـ).

(2) تل خالد : هي من أعمال حلب، ياقوت : معجم البلدان، ج2، ص 49.

(3) قصدها صلاح الدين بعد تفرغه من آمد، حاصرها وضربها بالمجانيق، فنزل أهلها وطلبوا الأمان فأمنهم، وتسلمها في شهر محرم سنة 579هـ/1184م. ابن الأثير : الكامل، ج11، ص495.

(4) تاج الملوك : هو بوري بن أيوب بن شاذي، أخ السلطان صلاح الدين، وأصغر أولاد أيوب، له ديوان شعر في الغث والسمين ولد سنة 556هـ/1161م .، وتوفي سنة579هـ/1183م، إثر جراحٍ أصابته عندما حاصر صلاح الدين حلب. أبو شامة : الروضتين، ج3، ص 104؛ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج1، ص 290-292.

(5) هـ : وعاجلها ولو شاء لعالجها.

(6) زيادة في هـ.

(7) طرساً : كتاباً. المعجم الوسيط، ج2، ص554.

(8) هـ : يجدبها.

(9) هـ : لا نحدها ولا نقطعها.

(10) زيادة في هـ.

(من النعم ما يزيد في حلاوة موقعه، وبديهة مطلعه، وترفيع قدره، وسهولة أمره، ويصفى من مورده ورود النجح سابقاً لموعده وتلك حال النعمة في فتح تل خالد فإنه أعطى القياد قبل عراكه ولم يفرط من بها فارط تحتاج إلى استدراكه فنزل مستعفياً من المنازلة وألقى بيده قبل لقاء مواقف المقاتلة، وكتابنا هذا وقد تسلمنا قلعتها ذات القصبة المنيعة، وبلدته ذات المرساتيق الوسيعة الرسيعة، وجاء هذا الفتح لما بعد من الفتوح طيعة، وكان عجالة القرى عند مقدمنا من بلاد الجزيرة، وسابق فتوح لما بعده من البلاد الكبيرة، والله يتولى من ذلك ما يكون الصنع فيه صنعه وما يبلغه الجهد وإن بذل وسعه)[1].

(1) زيادة في هـ.

كتاب رقم (36)[1]

ضم حلب سنة 579هـ/1184م[2]

أرسل صلاح الدين هذا الكتاب بقلم الفاضل إلى أحد الأمراء وجاء فيه :

تسلَّمنا مدينة حلب (وقلعتها بسِلْم وَضَعَتْ به الحَرْبُ أوزارها، وبلغت بها الهِمَمُ أَوْطَارها)[3]، وعُوِّض (صاحِبُها)[4] (بما لم يخرج عن اليد)[5]، لأنه مشترط عليه به الخدمة (بنفسه)[6] وعَسْكره، (في الغزو الذي هو مراده والجهاد الذي فيه اجتهاده)[7] (ومختلط بالجملة فهو أحدُ الأولياء في مغيبه ومحضره)[8]، عُوِّض عماد الدين[9] عنها من بلاد الجزيرة سِنْجار[10]ونَصِيبين[11] والخابور[12] والرَّقة[13] وسَرُوج، (فهو صرْف بالحقيقة؛ أخذنا فيه الدِّينار وأعطينا الدَّراهم، ونزلنا عن المبيحات وأَحْرزنا العواصم، وسرَّنا أنها انجلت والكافر المحارَبُ، والمُسْلم المسالَم، واشترطنا على عماد الدِّين

---

(1) أبو شامة، الروضتين، ج3، ص 160– 162 (أ)؛ مكاتبات من الترسل، ص 129 (هـ).

(2) سار صلاح الدين سنة 579هـ/1184م، إلى حلب فنزل بها في الميدان الأخضر وأقام بها عدة أيام، ثم انتقل إلى جبل جوشن فنزل بأعلاه، وكان صاحب حلب عماد الدين زنكي يعاني من قلة الاموال، فمال وقتها لتسليم مدينة حلب وأخذ العوض عنها، فراسل صلاح الدين بذلك، فتم الصلح بينهما على أن يسلم عماد الدين حلب إلى صلاح الدين ويأخذ عوضها سنجار، ونصيبين، والخابور، والرقة وسروج، فتسلمها صلاح الدين وثبت أقدامه، وسار عماد الدين إلى البلاد التي أخذها عوضاً عن حلب. ابن الأثير : الكامل، ج11، ص497، 496؛ أبو شامة : الروضتين، ج3، ص157–162.

(3) زيادة في أ.

(4) هـ : من هو في يده.

(5) زيادة في أ.

(6) زيادة في أ.

(7) زيادة في هـ.

(8) زيادة في أ.

(9) يقصد به عماد الدين بن زنكي صاحب حلب.

(10) سنجار : مدينة مشهورة من نواحي الجزيرة وهي في لحف جبل كبير. ياقوت : معجم البلدان، ج3، ص297.

(11) نصيبين : مدينة عامرة في بلاد الجزيرة، على طريق القوافل من الموصل إلى الشام، وفيها وفي قراها أربعون بستاناً. ياقوت : معجم البلدان، ج5، ص233.

(12) الخابور : اسم نهر كبير من رأس عين والفرات، وهي مدينة جميلة على شاطئ الفرات بها بساتين وحدائق. ياقوت : معجم البلدان، ج2، ص382.

(13) الرقة : مدينة مشهورة على الفرات، معدودة في بلاد الجزيرة لأنها من جانب الفرات الشرقي، ويقال لها الرقة البيضاء. ياقوت : معجم البلدان، ج3، ص76.

الخدمة والمظاهرة، والحضور في مواقف الغَزْو والمُصَابرة[1]، فانتظم الشَّمْل الذي كان نثيراً، وأصبح المؤمن بأخيه كثيراً، وزال الشَّغَب، وأُخمد اللّهب، واتَّصل السَّبب، وأُخذت للغَزَاة الأُهَب، ووصلت إلى غايتها هِمَّةُ الطَّلب، والأُلْفة واقعة، والمَصْلحة جامعة، وأشعة أنوار الاتفاق شائعة)[2]. (وقد كان الخادم أشرف على مدينة حلب إجلاء، وعلى قلعتها إجلالا أنه لما أمر بالمصالحة سلك إليها هذه الطريق، وسلم الأمر إلى وليه لجمعه من فريضة المطاع وفضيلة الشفيق وقد نشر لبصيرته أنوار الولاء ما لم يكن عنها انطوى، وعلم أن الآراء العالية مهما أرادت فيه أباه، وما روت عنه انزواء وهو الآن مستقبل بمشيئة الله ما بورك له في لزومه ولا يمل العزم المستنير ولا يميل إلى جثومه، ويستأنف من قتال الكفر ما كان إليه ظامئاً، وتسوم حظه من ثواب الغزاة التي ما زال طرفه إليها سامياً، ولو كان من ناصلة وناظرة ولحظ الأمن من زلة وأخذ بالجزم من مستقبله لكان قد قدم ما أخر وأوتر ما أصدر، والله سبحانه يديم أيام الديوان الملك يصونه وينجحه ولطف يجريه الله على يديه وينتجه وصيم عن جهة الإسلام يزحزحه ويربحه إن شاء الله)[3].

(فتحنا مدينةَ حلب بسِلْم ما كشفتْ لِحُرْمتها قِناعاً، وتسلَّمنا قلعتُها التي ضمنت أن نتسلَّم بعدها بمشيئة الله قِلاعاً، وعُوِّض صاحبها من بلاد الجزيرة ما اشترط عليه به الخدمة في الجهاد بالعُدَّة الموفورة، فهي بيدنا بالحقيقة، لأن مرادنا من البلاد رجالُها لا أموالها، وشوكتها لا زهرتها، ومناظرتها للعدو لا نضرتها، وأن تَعْظُمَ في العدوِّ الكافرِ نكايتُها، لا أن تُعْذَقَ[4] بالولي المُسْلم ولايتُها. والأوامر بحلب نافذة، والرَّاياتُ بأطراف قلعتها آخذة. وجاء أهل المدينة يستبشرون، وقد بلغوا ما كانوا يؤمِّلون، وأَمِنوا ما كانوا يحذَرون، وعُوِّض صاحبها ببلادٍ من الجزيرة، على أن تكون العساكر مجتمعة على الأعداء، مُرْصَدَةً للاستدعاء، فالبلادُ بأيدينا لنا مغنَمُها ولغيرنا مَغْرَمُها، وفي خدمتنا ما لا نسمح به وهو عَسْكرها، وفي يده ما لا نضنُّ به وهو دِرْهَمُها)[5].

(شرطنا على عماد الدِّين النَّجدة في أوقاتها، والمظاهرة على العُداة عند ملاقاتها، فلم يخرج منا بلدٌ إلا إلينا عاد عسكره، وإنما استنبنا فيه من يحمل عنا مؤنته ويدبِّره، ويكون عساكره إلى عساكرنا مضافة، ونتمثل قوله سبحانه وتعالى : ﴿وقاتلوا المُشْرِكين كافَّة كما يُقَاتِلُونكم كافَّة﴾[6])[7].

---

(1) هذا دليل على أن هدف صلاح، من عملية توحيد بلاد الشام هو تجنيد هؤلاء الأمراء معه في الحرب ضد الفرنج.

(2) زيادة في أ.

(3) زيادة في هـ.

(4) تُعْذَقَ : تُقطع. ابن منظور : اللسان، ج3، ص2861.

(5) زيادة في أ.

(6) سورة التوبة : آية 36.

(7) زيادة في أ.

(نشعر الأمير بما مَنَّ الله به من فَتْح مدينة حلب التي هي مفتاح البلاد، وتسَلُّم قلعتها التي هي أحد ما رَسَتْ به الأرض من الأوتاد، فلله الحمد، وأين يقع الحمد من هذه المِنَّة، ونسأل الله الغاية المطلوبة بعد هذه الغاية وهي الجنة. وصَدَرَتْ هذه البُشْرى والموارِدُ قد أَفْضَت إلى مصادرها، والأحكام في مدينة حلب نافذة في باديها وحاضرها، وقلعتها قد أناف لواؤنا على أنفها، وقبضت على عقبه بكفِّها، واعتذرت من لقائه أمس برشفها، ورأينا أن نتشاغل بما بورك لنا فيه من الجهاد، وأن نوسِّع المجال فيما يُضَيَّقً تقلُّبُ الذين كفروا في البلاد)[1].

(1) زيادة في أ.

كتاب رقم (37)[1]
ضم حلب سنة 579هـ/1184م

أرسل صلاح الدين هذا الكتاب بقلم الفاضل إلى الخليفة العباسي الناصر لدين الله، وجاء فيه :

(إنه لما نزل الخادم بحلب دلَّ على سيرة الاتقاء، وأَنِف من فتح الاعتداء وجَهْرِ الاعتلاء بإجابته صريح صاحبها، حيث تقطعت به الأسباب وسُدَّت عليه الأبواب، وأنقصت عمره وانقضت قضاياه، وخانه جنده ورعاياه، وعلم الفريقان أن البلد قد مُلك ظاهرُه، وهو مكان الاستغلال، وقلاعُه وهو مكان الاستقلال، وأنَّ صاحبهم في معقل وهو في اعتقال، وقد ذهب من حوليه الرجاء، وتشتت من حوله الرجال، فدخل من باب الضراعة، وهو الباب الذي لا يغلق في وجه داخله، وطرق من جانب المسلة وهو الذي لا يضيق بنازله، وحكمه الإيجاب فاشتطَّ في التعريض، وقُبل اشتطاطه وفُسح له القبول، واشترط في الحكم، وأُمضى اشتراطه)[2]، (فإن الخادم تسلم البلد اليمين، وخرج إليه الجند والرعايا مُسلِّمين عليه، ومُستشفعين إليه يد الشفاعة، وهم كونهم الإخوة المسلمين، ولو أنه كما وقع بِمَن علَّه في ذكره وقع، يريد علواً في الأرض، وتعديًا في استيفاء القرض، لشدَّ الخادم الذي كان بيده إلى أن يخنق، وأفرج لريق السهم الذي هز أجنحته إلى أن يمزق، ولكن أبى ذلك)[3] وأنه لا يُؤْثر إلا أن تكون كلمةُ الله هي العليا لا غَيْرُ، وثغور المسلمين لها الرَّعايا ولا ضَيْر، (ولا يختار)[4] إلا أن تَغْدُوا جيوش المُسْلمين متحاشدة على عدوِّها لا متحاسدة بعتوِّها. ولو أن أمور الحَرْب تصلحها الشِّركة لما عَزَّ عليه أن يكون كثير المشاركين، ولا ساءه أن تكون الدُّنيا كثيرة المالكين، وإنما أمور الحَرْب لا تحتمل في التَّدبير إلا الوَحْدَة، فإذا صحَّ التدبير لم يحتمل في اللِّقاء إلا العِدَّة، (فلا غرو أن يلتمس من جانب التكثُّر في الصواب بالانفراد ومن جانب التكثر في اللقاء بالإحشاد)[5] فعوَّض عماد الدين من بلاد الجزيرة سِنْجار وخابورها، ونَصيبين والرَّقَّة وسَرُوج، على أن المظالم تموت فلا ينشر مقبورها، والعساكر تنشر راية غزوها فلا يُطْوى منشورُها. وأجابَ الخادمُ عمادَ الدين إلى ما سأل فيه من أن يُصالح المواصلة مهما استقاموا لعماد الدِّين، لأنه لم يثق بهم وإن كان لهم أخاً، ولم يطمئنَّ إلى مجاورتهم إلى أن يَضْرِبَ بينه وبينهم من عنايته بَرْزخاً، فَلْيَلُحِ الآن عُذْرُ الأجنبي إذا لم يثق، ولتكُن هذه مُصْحية من عُوتِبَ في سُكْرِهِ حُسْن الظَّنِّ فلم يُفِقْ، ومن شَرْطه على المواصلة المعونة بعسكرهم

---

(1) أبو شامة : الروضتين، ج3، ص178- 18(أ)؛ مكاتبات من الترسل، ص 132(هـ)

(2) زيادة في هـ.

(3) زيادة في هـ.

(4) هـ : يؤثر.

(5) زيادة في هـ.

في غَزَواته، والخروج عن المظالم، فما زاد (في اشتراطه)[1] على أن قال : سالموا مسلماً، وحاربوا كافراً، واسكنوا لتكون الرَّعية ساكنة، وأظهروا ليكون حزب الله ظاهراً. (وما عقد الخادم عقدا، ولا ورد وردا، ولا أمضى قضية، ولا أبرم خفية، ولا جلا جلية، إلا بعد أن صدَّر وقدّم، وصرّح، وما حمحم، وأوضح، وأفهم، وعلم من كان جاهلاً ما لم يعلم، وأكّد وردَّد وكمَّل وتمَّم لطاعة أمير المؤمنين، فهي إمامُ الكلام. كما توجَّه أمام الأنام وأوردها بعد اسم الله في الكتاب، وختم بها قبل ذلك في الحساب، فإن الطاعة هي اللُّحْمَةُ الجامعة، وهي النعمة الواسعة، وهي العزمة الوارعة، وهي الحكمة الواقعة، وهي العقيدة النافعة، وهي العقدة الواصلة بينه وبين الخلق وإلا فهي القاطعة)[2].

وهذه المقاصد الثلاثة : الجهادُ في سبيل الله، والكفُّ عن مظالم عباد الله، والطَّاعة لخليفة الله، هي مُرادُ الخادم من البلاد إذا فتحها، ومغنمه من الدُّنيا إذا مُنحها، والله العالم أنَّه لا يقاتل لعيشٍ ألين من عيش، ولا لغَضبٍ يملأُ العَنَان من نَزَقٍ[3] وطَيْش، ولا يريد إلا هذه الأمور التي قد توسَّم أنها تلزم، ولا ينوي إلا هذه النِّيَّة التي هي خير ما يُسَطَّر في الصحيفة (ويُرتقم)[4].

(وكتب الخادم)[5] هذه الخدمة بعد أن بات بحلب ليلةً، وخرج منها إلى حارمٍ، وكانت استحفظت مملوكاً لا يملكه دين ولا عقل، غِرّاً ما هذبته نَفسٌ ولا أهل، فاعتقد أن يُسلمها إلى صاحب أنطاكية –يَسَّر الله فَتْحَها– اعتقاداً صرَّح بفعله، وشَهَرَه بكُتُبِهِ ورسُلِه، وواطأ على ذلك نَفَراً من رجالٍ يعرفون بالشَّمْسية؛ لا يعرفون خالقاً إلا من عَرَفُوه رازقاً، ولا يسجدون إلا لمن يرونه في نهر النَّهار سابحاً، وفي بحر الظَّلام غارقاً، فشعر به مَنْ فيها من الأجناد المسلمين، فشرَّدوه ومن تابعه على فِعْله، وظَفِرَ به المملوك عمر ابن أخيه في ضواحي البلد، فأخذه وأرسله إلى قلعة حلب، (موثقاً لا مرسلاً)[6] وسار الخادم إليها، فتسلَّمها، ورتَّبَ بها حاميةً ورابطة، ولم يعمل على أنها للعمل طرف بل إنها للعِقْد واسطة، والخادم كما طالع بماضيه حازه الأمس المذكور، يطالع بمستقبله الذي ينجزه بمشيئة الله الغد المشكور، فهو متأهِّب للخروج نحو الكُفَّار، ولا تسأَمُ رايتُه النَّصْبَ، ولا جهة سيره الرَّفْع، ولا جيشُه الجَرَّ ولا يُصْغي إلى قول خاطر الراحة المفنَّد : لا تنفروا في الحَرِّ، ولا يُجيب دعوة الفراش المُمَهَّد، ولا يُعرِّج على (الظَّلِّ)[7] الممدود، ولا دُمْية الطراف الممدَّد، ولا يعطف على ريحانةِ فؤادٍ يفارقه

---

(1) زيادة في هـ.

(2) زيادة في هـ.

(3) نزق : خفة. جمهرة اللغة، ج2، ص823.

(4) أ : يُرقم.

(5) زيادة في أ.

(6) زيادة في هـ.

(7) أ : الظنِّ.

حَوْلاً، ويلقاه يوماً، ولا يقيم على زهرةِ ولدٍ استهلَّ فمتى ذكَّره الفطر على راحته قال : ﴿إني نَذَرْتُ للرَّحمن صَوْماً﴾[1].

(1) سورة مريم : الآية 26.

كتاب رقم (38)[1]

تقليد الخليفة حلب لصلاح الدين سنة 579هـ/1184م

أرسل صلاح الدين هذا الكتاب بقلم الفاضل إلى الخليفة العباسي الناصر لدين الله، وجاء فيه :

أدام الله سلطان المجلس ولا زالت الصحة شعار جسمه ودثارا وبردا للباسه ومدارا ودرعا يقيه سهام الأيام وسيفا يناضل به أقران الأيام ووصيفا لديه لا يمل النواء وطيفا يسكن بمضاجعه ولا... اليقظة والإغفاء ولا يطرده نهارا إذا آواه ليل ولا يفرقه فجر إذا سحب عليه الدليل سبل.

وورد على الخادم الكتاب المخدوم بالتقبيل المفدى بالنفس والأهل على التقليل والإنعام الذي هو بالحقيقة وسواه المجاز والفضل الذي يعز عليه أن يكون بينه وبين كعبته الحجار والجميل المخلد للذكر فإنه منجز وعد الخلود إن حار فيه إنجاز.

وعرف الخادم انسحاب الآلام وانقشاعها وفراق الحمى وإقلاعها وقام لهذه البشرى بوظيفتها شكرا ودعاء وصدقة وما ذاك بما يحدث في اللسان وروقه بل بما حدثه القلب وصدقه فالله تعالى يجري قدره بما يثبت به أركان هذا البيت ودعائمه ولا يغيض هذا البحر الذي نال ما أرادوا رده وظفر وقد علم المولى ما كان من إجابة حلب بعد الآباء واستواء أمرها أغب الالتواء وتسلمها وأنوف العداة راغمة وبسط المعدلة فيها فهي إلى الآن من القرى العادلية بعد أن كانت بالأمس مأخوذة أخذ القرى الظالمة واستقر الركاب العالي الناصري أعلاه الله بها وقد أجيب هذا الدعاء باعتلاء به بقلعتها وما كان كفؤ ذلك الفارس الكريم إلا ذلك الجواد فقد أصبحت حلب عين الشام وقلعتها الشهباء منها بمكان السواد والآن استيقظ الإسلام لطرد طيف الكفر وأذن الله بفتح بيت المقدس بها وبالهمة الناصرية فلا بقاء بين اليسرين للعسر وزالت ذنوب الأيام الحائلة بين مالكها وبين العزم فإذا كان لا عر فلا عذر. فلا زال المجلس السامي مهنأ بكل جزيلة مهيأ لكل جليلة متقيا لله متبعا إليه الوسيلة مرتقيا للمالك بما نصبته الفضيلة وكسبته الفصيلة، والكريم الكريم حظ لا يلتثم في استبهائه ولده ونفس لا يتأثم في استخلاصه وهو يرغب أن يوصل به لحظه ولا يقطع منه حظه والله الموفق.

---

(1)مكاتبات من الترسل، 140

كتاب رقم (39)[1]

إسقاط المكوس عن حلب سنة 579هـ/1184م [2]

أرسلَ صلاحُ الدين هذا الكتابَ بقلم الفاضل إلى أحد الأمراء وجاء فيه :

وانتهى إلينا أن بمدينة حلب رسوماً استمرَّت الأيدي على تناولها، والأَلْسِنةُ على تداولِها، وفيها بالرُّعاة إرفاقٌ، وبالرَّعايا إضرارٌ، ولها مقدار إلا عند مَنْ كلُّ شيء عنده بمقدار، منها ما هو في المعايش المَطْلوبة، وقد رأينا بنعمة الله أن نبطلها وَنَضَعها، ونعطِّلها ونَدَعها، ونُضْرِبَ عنا في أيامنا، ونَضْرِبَ عليها بأقلامنا، ونسلكُ ما هو أهدى سبلاً، ونقول ما هو أقوم قيلاً، ونكره ما كرهه الله، ونحظر ما حَظَرَه الله، ونتاجِرُهُ سبحانه، فإنه من ترك لله شيئاً عوَّضه الله أمثاله، وأربحَ متجرَه في الرَّعِيَّة اليوم بما يوضع عنهم من إصْرها، ولنا غداً بمشيئة الله بما يرفع من أَجْرِها. فعلى كافة أوليائنا وولاتنا، وأمرائنا، والمتصرَّفين من قِبلنا ألا يُهووا إليها يداً، ولا يَرِدُوا ولو بلغ الظمأ منها مَوْرداً، ولا يثقلوا بها ميزان المال فيخِفَّ ميزان الأعمال، ولا يرغبوا في كثير الحرام، فإن اللهَ يُغْني عنه بقليل الحلال، وَلْيُعْلَم أنَّ ذلك من الأمر المُحْكَم، والقَضَاءِ المُبْرَم، والعَزْمِ المُتَمَّم.

---

(1) أبو شامة : الروضتين ج3، ص 175.

(2) عانى أهل حلب من المكوس أي الضرائب التي كانت مفروضة عليهم، فعندما دخل صلاح الدين كشف عنها المظالم، وأزال تلك المكوس التي أثقلت كاهل الأهالي، وولى قلعتها سبق الدين يازكوج وجعل حلب باسم ولده الملك الظاهر غازي. أبو شامة : الروضتين، ج3، ص175.

كتاب رقم (40)[1]

إسقاط المكوس عن أهل الرقة سنة 579هـ/1184م [2]

أرسلَ صلاحُ الدين هذا الكتابَ بقلم الفاضل إلى أحد الأمراء وجاء فيه :

أَشْقى الأُمراءِ من سَمَّن كيسَه وأَهْزَل الخَلْق، وأبعدُهُمْ من الحقِّ من أخذ الباطل من النَّاس وسمَّاه الحق، ومن تَرَكَ شيئاًعوضه الله، ومن أقرضَ اللهِ قرضاً حسناً؛ وفَّاه ما أقرضه. ولما انتهى أمرنا إلى فتح الرَّقَّة أشرفنا منها على سُحْتٍ يؤكل، وظُلْمٍ مما أمر الله به أن يُقْطع، وأَمَرَ الظَّالمون أن يوصلَ، فأوجبنا على أنفسنا، وعلى كافَّة الولاة من قِبلنا أن يَضَعوا هذه الرسوم بأَسْرِها، ويلقوا الرَّعايا من بشائر أيام مُلكنا بأَسَرِّها، ونُعْتق بلد الرَّقَّة من رقِّها، ونثبتُ أحكام المَعْدَلةِ فيها بمحو هذه الرُّسوم وَمَحْقها. وقد أمرنا بأن تُسَدَّ هذه الأبواب وتُعَطَّل، وتُنْسخ هذه الأسباب وتُبْطَل، وتُسْتمطر سحائبُ الخِصْب بالعَدْل وتُستنزل، ويُعفَّى خَبَرُ هذه الضَّرائب من الدَّواوين، ويُسامح بها جميعها جميع الأغنياء والمساكين، مسامحةً ماضيةَ الأحكام، مستمرَّة الأيام، دائمةَ الخُلُود، خالدةَ الدَّوام، تامة البلاغ، بالغة التمام، موصولة على الأحقاب، مسنونةَ في الأعقاب، ملعوناً من يطمحُ إليها ناظِرُه، وتتناولها يده، أو يمسك عنها اليوم على طمعٍ لا يوصله إليه غده.

---

(1) أبو شامة : الروضتين، ج3، 176.

(2) انتهج صلاح الدين سياسة إلغاء الضرائب والمكوس وذلك لتقريب الناس إليه وكسب ولائهم وللتأكيد أن هدف ضمه المدن ليس المال وإنما حشد الأمة على قتال الفرنج.

كتاب رقم (41)[1]
دوافع ضم الموصل

أرسل صلاح الدين هذا الكتاب بقلم الفاضل إلى الخليفة العباسي الناصر لدين الله سنة 579هـ/1184م، وحاء فيه :

(أدام الله سلطان الديوان العزيز النبوي ولا زالت كتائب أعلامه بكتب أقلامه مرهفة وأحلام أهل وفاقه مرشدة وأحلام أهل خلافه مسفهة وسيوف عزائمه تستوعب كل حديث حسن ولا يبقي إلا أحاديث عن السيوف مموهة والقول يؤخذ فضل خلافته لازما ولا يقبل شبهة المعطلة ولا تعطيل المشبهة، وأفعاله التي يبتغى بها وجه الله باسمه الشريف في الملكوت الأعلى منوهة ولا زال قوله بليغا وأمره بالغا وفضله سائغا وفضل الله به سابقا فالحال بعده للعاطل فاضحا والحق الباطل دافعا وإخلاص نظره لا يدع للكفر شياعا... ولا للنفاق شائنا يانعا)[2].

(الخادم يذكر أنه ورده بل أورده من مبتدئ الديوان بل من أفق الإحسان كتاب مرقوم بل سحاب مركوم أثبت في الأسماع بل أثبت في الطباع العقد النقي بل العقد التقي وأهدى إلى البصائر الصادقة بل أبدى للأبصار الرامقة آيا شائقة، بل آي شارقة شمس فأضاء الفضاء بنوره وصرف بينه وبين الظلماء بسور فاستقلت ملوك المعاني على سريره ودخل الفهم جبته ورفلت اليد في حريره ونقلته العين في الحال إلى ضميره، فأنست معانيه بما هنالك من عقائد اختصاص موارد إخلاص مستنقذة فيه، حيث لا يجري كل الأسرار ولا يسري كل الأنوار ولا يستودع إلا عقود التكليف وخواطر التعريف، فألقت عصاها ولقيت من أطاعها وما عصاها وحلت حيث حلت وحليت حيث حلت وانتدبت العزمات لمراجعتها فهي المرآة إلا أن الصدى مصدود عن صفحتها وهي القبس إلا أن الليل والنهار سواقي قدحتها، وهي الفلق إلا أن العيون دائمة الاستمتاع بلمحتها وهي الروض إلا أن أنفاس النسيم متنافسة في العبارة عن عبير نفحتها، وهي المذكرات للأنفس بالله إلا أن أسطرها سلوكها وحروفها درر سبحها)[3].

(وما زال الخادم إلى مثل هذا الفقر فقيرا وبها على ثقة بصيرا وإذا أنعم بيسيرها إليه عدها نعيما مقيما وإذا ملكها رآها ملكا كريما وما يرد وارده من الدار العزيزة التي نبت غزها يد الله وغيرها منسوب إلى بنى البيان، لا أمضت البصائر واسترهقتها وأحمت أنوف القنا على أعداء الله واسترعفها، فالخادم قد بورك له في صقال خاطره وأمرها التي لها يأتمر وقد لزم ما بورك له فيه فهو

---

(1) أبو شامة : الروضتين، ج3، ص 181- 183؛ مكاتبات من الترسل : ص 112- 116.

(2) زيادة في هـ.

(3) زيادة في هـ.

وإن أضجر لا يزال مستبدا بهذه الطريقة مستندا إلى هذه الحقيقة دون ولاة الأقطار وأمراء الأمصار الذين يطالعون الدار إلا إذا مسهم الضر فدعوها لحينهم وإذا عتبوا على الدهر قارضوها لأجل عتبهم، وإذا تأملت هذه الطبقة واعتبرت أفعاله وأفعالهم نظرة شريفة علم أن الخادم قد أعطى الدار العزيزة قياد سكونه وزمام حركته وأن أوامرها نافذة في مملكته ورسله على أبوابها وكتبه في ديوانها وجهاده تحت رايتها السوداء واجتهاده في رفع كلمتها البيضاء والخافقان قد خفقت فيهما ألويتهما، ففي المغرب منها مثل ما في المشرق ونفذت فيهما أقضيتها فأطاع المنجد كما أطاع المبهم، وسلم المشأم كما المعرق)[1].

وإذا ولاَّه أمير المؤمنين ثَغْراً لم (يبت)[2] في وسطه وأصبح في طَرَفه، وإذا سوَّغَه بلداً هجَّر في ظلِّ خِيمِه ولم يَقُمْ في ظل غُرَفِهِ، وإذا باتَ باتَ السَّيْفُ له ضجيعاً، وإذا أصبح ومعترك القِتالِ له ربيعاً، لا كالذين يغبون أبوابَ الخلافة إغباب الاستبداد، ولا يؤامرونها في تصرُّفاتهم مؤامرة الاستعباد، وكأن الدنيا لهم إقطاع لا إيداع، وكأن الإمارة لهم تخليد لا تقليد، وكأنَّ السِّلاح عندهم زينةً لحامله ولا بسه، وكأن مال الخلق عندهم وديعة، فلا عُذْرَ عندهم لمانعه ولا لحابسه، وكأنهم في البيوت (دُميً)[3] مصوَّرة في لزوم (جُدُرها)[4] لا في مستحسنات صورها، راضين من الدِّين بالغزْوة اللَّقبية، ومن إعلاء كلمته بما يسمعونه على الدَّرجات الخشبية، ومن جهادِ الخارجين على الدولة باستحسان الأخبار المُهَلَّبية[5]، ومن قتال الكُفَّار بأنه فرض كفاية؛ تقوم به طائفةٌ فيسقط عن الأخرى في أخراها، ومِنْ طاعةِ الخلافة بذكر اسمها والخروج عن سيماها،) فلا يقنعون بأنَّهم لا يجاهدون إلى أن يمنعوا من يجاهد عنهم ويثاغر، وبأنهم لا يُساعدون المسلمين إلى أن يساعدوا عليهم عدوَّهم الكافر، فقد توالوا الشيطان تليداً[6] وطريفاً، ووطئوا الإسلامَ وَطْأً عنيفاً، فإذا جاء وَعْدُ

(1) زيادة في هـ.

(2) هـ : يكن.

(3) هـ : دِمن.

(4) هـ : خدرها.

(5) يقصد به المهلب بن أبي صفرة وهو : أَبُو سَعِيْدٍ المُهَلَّبُ بنُ أَبِي صُفْرَةَ ظَالِمِ بنِ سَرَّاقِ بنِ صُبْحِ بنِ كِنْدِيِّ بنِ عَمْرٍو الأَزْدِيُّ، العَتَكِيُّ، البَصْرِيُّ. سَنَةَ 44هـ/664م غَزَا المُهَلَّبُ الهِنْدَ، وَوَلِيَ الجَزِيْرَةَ لابْنِ الزُّبَيْرِ، وَحَارَبَ الخَوَارِجَ، ثُمَّ وَلِيَ خُرَاسَانَ. توفي بِمَرْوِ الرُّوْذِ، سَنَةَ 82هـ/701م. الذهبي : سير الأعلام، ج7، ص 434-435.

(6) تليداً. ابن منظور : اللسان، ج1، ص439.

الآخرة جاء الله بهم في زُمْرة الشَّيْطان لفيفاً[1] (فالله تعالى يعلي يد الإمامة حتى تخفض أيدي الظلم المستطيلة ويمكن في الأرض بسطتها إلى أن يرفع العثرات عن هذه الأمة المسقيلة)[2].

(فالخادم كما يشكر الإقبال عليه يشكو الإعراض عنه، وذلك)[3] أنَّ المواصلة ما فَزِعُوا[4] إلى دار الخلافة إلا بعد أن فَزِعوا[5]، وإلا فطالما طَمِعَ أَوَّلهم كما طمعوا، وقديماً دُعوا إلى طاعتها فما سمعوا، وسمعوا فما (اتَّبعوا)[6]، حتى إن الأولين علَّموا أولياء الدولة من الأتراك ضِدَّ ما جُبِلَتْ أخلاقهم عليه من (عقوقها)[7]، وسَنُّوا لهم إضاعة حقوق الله بإضاعة حقوقها،) وما اقتدت العشائر قدما إلا بإرسالها ولا ابتعث الرجال حدثا إلا سنن أعيانها ولا يربى الصغير إلا على ما ربي عليه الكبير ولا ثبتت خيانة الأول إلا بما جناه الأخير، وقد كانت دولة العجم بالعراق اشتغلت ثم اشتعلت وهبت فبُعثت رجال الليالي والأيام وأولو تدبيرات السيوف والأقلام بدار الخلافة إلى أن طرحوا الفداء عن موردها وأبعدوا الأذى عن معهدها واستقلت الخلافة وحدها وما يبغي الخادم إلا أن يعيد دولتهم جذعة ويقول فيهم بالرجعة، وإن شك في هذا القول في الأيام الستة. والخادم يستشهد بيوم الجمعة، حيث تعلو بالموصل أسماءُ طردِ الخلافة مقارنة لاسمها وتشاهد أحكامهم نافذة مع البعد والإبعاد مع القرب لحكمها وإذا كانت المواصلة قد تقطعت بهم الأسباب وأوصلهم حساب الحرب إلى العقاب وتبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا، وتفرق الذين اجتمعوا بعد ما جمعوا، ففريق فر نازحا وفريق فر مصالحا وفريق على البعد راسل مستصلحا ومناظرا وفريق فتح بلده الذي كان التقليد فاتحا فلم يبق للمواصلة. إلا إن باءوا إلى جبل إلا أنه لا يعصمهم من الماء ويتعللوا بسراب بقيع لا معلل فيه للإظماء، ومعلوم أنهم إذا اجتلبوا تلك الجهة أعادوا طائر نفاق إلى عشه واسترجعوا خاتم ملك، فربما رجع الأمر جازما على نقشه وما أولى ولاة المناصب وكفاة المراتب وحملة الأمانات وخدم سدة السادات أن يفيقوا لهذه الغمرة حق الإفاقة ويلحظوا هذه العواقب ولا يهملوها إلى أن يجيء في الساقة، فهذا في مصالح الدولة الحرية، وأما مصالح الملة الكلية فإن عواقبها منهم عظيمة وبوائقها بأيديهم وبأيدي قديمعم عديمة، فشدما أخذوا بالأمس واليوم بَراً بأثيم وبريئا يستقيم وهرب من لا حيلة له فاستبيحت منه حرمه وحريم، فكم تبع الإمام المسترشد صلوات الله عليه من

---

(1) اقتباس من قوله تعالى : "وقلنا من بعده لبني إسرائيل اسكنوا الأرض فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفاً" سورة الإسراء : آية 104؛ زيادة في أ.

(2) زيادة في هـ.

(3) زيادة في هـ.

(4) فَزِعُوا : أي استغاثوا. الزاوي : مختار القاموس، ص 476.

(5) فزعوا : خافوا وذعروا. الزاوي : مختار القاموس، ص 476؛ هـ : فرغوا.

(6) هـ : ابتغوا.

(7) هـ : إضاعة حقوقها.

تابع رأي أن القعود عنه لا يسعه وأن كلمة الحق إليه بجمعه من موقدي أنوار محارب ونيران حروب وأسود يد ورهبات قلوب من بلد الهكارية والعقر وغيرهما من الأعمال الحريرية والموصلية فأُخذوا وأخذت أقاربهم أخذ الصغار والذل وعومل طليقهم بالأسر وأطلق أسيرهم بالقتل، وعلى هذا جرى هذا العقب فيما عامل به من اتبع الخادم وجاهد معه بمصر والشام، فإنهم يتبعون أقربتهم وبسطوا فيهم أيدي معاقبتهم ومنعوهم النصف وساموهم الخسف وأصلوهم الأجن وأعدموهم المال والوطن، فكم عين أزعجوا عنها أنسابها فكم يد بانوا منها بنانها، فمنهم أولاد ابن زين الدين علي لوجك التابع الخادم الآن؛ فإنهم كشفوا منهم وجوها مصونة وهتكوا منهم عورات أمينة وحكموا عليهم بنظرات ظنينة وطافوا بهم البلاد جهارا، ولم يخافوا الله ولم يرجو له وقارا، كذلك وجدوا آباءهم على ملة فاقتدوا بآثارهم وعلى اتقاد نار حقد، وسيجتمعون بهم في نارهم. فأما الجنايات التي يأخذونها من الرعايا ظلما وتضمين الشرعة لمن لا يمضي له على لسانه ولا يده حكما، واستباحة مالي الأوقاف والأيتام والتفرقة في الحكم بين الخاص والعام فكل ذلك مما لا يسع خليفة الله إقرارهم على حيفه ولا يعذره الله سبحانه في ترك مخادعهم بكتابة إلي عنده الذي يجادلهم بسيفه ولا خفاء بأنهم عائق عن الجهاد للكفار وحائل بين الفرض وبين أولي القوة عليه والاقتدار فلا يقنعون أنهم لا يجاهدون إلا أن يمنعوا من يجاهد عنهم، وشاعر بأنهم لا يساعدون المسلمين إلا أن يساعدوا عليهم الكافر فقد تولوا الشيطان تليدا وطريقا ووطنوا الإسلام وأهله وطأً عنيفا، فإذا جاءوا عند الآخرة جاءهم في زمرة الشيطان؛ فإن لم يرجع إلى الخادم فليرجع إلى قوله تعالوا : فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا.

فالقوم ما أبقوا الصلح موضعا ولا تركوا في رجعة مطمعا ولا تخلفوا عن شيء بلغوه ناظرا ومسمعا، فالمسلم القريب استنزلوا يمينه والمسلم البعيد استخفوا سكينه، والكافر استنصروا سيفه والحشيشي استنصروا سكينه بالأموال التي في بلاد تقليده أكلوها وأضاعوها وأمانات الله ابتغوا بها ثمنا قليلا فباعوها والذخيرة التي كانت بقلعة حلب لو أن لها لسانا يتكلم نظمَ ولو أرهبها الذي يضرم فواد تضرم، حملت إلى الكفار فضربت بها أسنة تطاعن بها صدور المسلمين أو بقيت في أيديهم فصيغت أنية ينهك بما فيها حرمة الدين، ومتى استشف النظر العالي حال الخادم معهم لمح أنه من مبدأ وصوله الشام الذي نوى به في الكفار إقامة الجهاد وفي الإسماعيلية إماتة الإلحاد وفي المسلمين إزالة الفساد شغلوه ثلاث سنين عن هذه الفرائض وجابه قوارض لا تحتقر، فأزال منهم وأنصف وأسعف من النضر عليهم بما أسعف وبانقضاء تلك السنين أعقبتها السنوان تلبيس والمحل الذي شبه اليوم في العاقة عن الجهاد بالأمس فسار إلى مصر ليريح العسكر ثم ليتعبه فيما يرجيه وليحصل النفقات ثم ليخرجها فيما يخلفها وعاود الشام فاشتغل عنهم ولم يستقل بهم وجاهد دونهم ولم يجاهدوا عرض عنهم ولم يتعرض لهم، هذا وقد استولوا على حلب بلا حجة وأخذوا ما فيها من الأموال بلا شبهة وخرجوا عن اليمين المعقودة بلا معذرة واستنفروا من وافقهم من أمراء المسلمين بلا حرمة، فلم يرد الخادم على

أن أجاب رسلهم بأني قد رضيت الديوان العزيز حكما واخترت من اختاره الله للمسلمين قيما، فكان جواب هذا الجواب أن نفدوا إلى الفرنج فحالفوا كفرتهم عليه وإلى الإسماعيلية عليه فأنهضوا فجرتهم إليه ونازلوا بلاده وهو متوسط بلاد الكفار فهدموا قلعة من قلاعها كانت زينة سلم ومقرع جدار، فراسلهم واستنزلهم وقال لهم قولا لينا يظن أنه عملهم به عنه بحملهم فأحوجوه إلى الحركة وإنفاق الأموال المجتمعة وإيغاب الرجال المستريحة والعدول عن أخذ بلاد الكفار والمستأخذة وتفويته الفرصة التي كانت لائحة والإفراج عن أنفاس الكفار التي كانت متضايقة ثم ما برح كلما طوى بلادهم وجاز مدتهم وسوادهم تمحضهم المناصحة وتدعوهم إلى المصالحة وممن غرضها عليهم على يده فامتنعوا وتشافههم على لسانه فما سمعوا ولي أمير المؤمنين المخلص شيخ الشيوخ صدر الدين، وإن سئل عن الشهادة أداها وإن رجع إلى مسطوره في الديوان أبداها وبعد مصدر صدر الدين عنه حشدوا عليه ملوك الأقطار وخرجوا من دمه القرية المحصنة والجدار ويحرك إليهم فتحركوا ولكن قدامه لا إليه وراح إليهم فراحوا عنه وكان ينتظر رواحهم إليه، وقاتلهم السيف وهو في غمده، وكفى الله ما كان متوقعا من قبل جندهم وقل جنده وقد أحوجوه إلى أن قطع البلاد الحلبية والحريرية والموصلية لمن خدم عليها وسبقوه بين يديه إليها، فمنهم من وعده باللسان ومنهم من وثقت له الأيمان فصار في عهدة يصعب عنها انفكاكه وفرط فيها ما فرط بعجزة استدراكه، والله سبحانه فقد أخذهم بما علم وعملوا ومكن منهم وما ظلم بما ظلموا وما استبقاهم إلا ليعرضوا على بادئ الندم والخوف بكرة وعشيا، ويكون عليهم العذاب الذي هم أولى به صليا فلا يعطفن عليهم الرقة فقد رقت ليقبل الشفاء ولألين القول فقد سمى ليذبح الجزار)[1] فأين كان التعلُّق بالدار العزيزة، وهم يحاصرون دار السَّلام بأحزابهم، ويرامون التَّاج الشَّريف بِنُشَّابهم، ويمدُّون محاصريها بالأسلحة والمنجنيقات، والأزواد والإقامات، ويصافُّون الخلفاء مصافَّة المُواقف، ويكاشفونهم مُكاشفة المُخالف، ويُغرون دُزْدار تكريت –وهي من أهون بلاد الله– بِجَوْر الجِوار، ويجعلونها سِجْناً لمماليك الخلافة ذوي الأقدار، ولو تحرَّك اليوم متحرِّكٌ لكانوا له كنانة، ولكانت بلادهم له خِزانة.

ويرجو الخادم بالمَوْصِل أن تكون المُوصِلَ إلى القُدْسِ وسواحله[2]، ومستقرِّ الكُفْر في القُسْطنطينية على بُعْد مراحله، وبلاد الكُرْج[3]، فلو أَنَّ لهم من الإسلام جاراً لاستباح الدار، وبلاد أولاد عبد المؤمن، فلو أن لها ماء سيفٍ لأطفأ ما فيها من النَّار، إلى أن تعلو كلمةُ الله العليا، وتملأَ الولايةُ

(1) زيادة في هـ.

(2) يدلل ذلك على أن هدف صلاح الدين من كل هذه الفتوحات والبلاد التي قام بضمها في الشام والموصل إلى مصر هو تحرير بيت المقدس والساحل من الاحتلال الصليبي، وهذا يؤكد أنه لا طريق لإنهاء الاحتلال الإسرائيلي لأرض فلسطين إلا بتوحيد الأمة أولاً على هذا المشروع.

(3) يدلل ذلك على أن طموح صلاح الدين كان أبعد من إنهاء الاحتلال الصليبي لبلاد الشام، وأنه كان يهدف إلى فتح القسطنطينية وأرمينيا أيضاً.

العَبَّاسية الدُّنيا، وتعود الكنائس مساجد، والمذابح المستعبدة معابد، والصَّليب المرفوع حطباً في المواقد، والنَّاقوس الصَّهَل أخرس اللَّهجة في المشاهد. (هذا كله يجري بمشيئة الله والمسيرة الناصرية في جلاء السير وبجلاء العير، ولا تكلف الخادم عنه مالا ولا مددا ولا يتخلف عن نصرة ولي الله إذا كان أعداء الله يكونون عليه لبدا ولا يقول إنه يقر ما في يده الديوان بل يزيده ولا يستنفده بل يفديه)[1] ويضيف إلى الديوان بمشيئة الله ما يجاوز أكنافه، ويمدُّ أطرافه مثل تكريت ودَقُوقا والبوَازيج[2] وخُوزستان[3] وكِيْش[4] وعُمان[5]، (وهو يتوكل على الله فلا يستبعد ما الله وكيله ويكلفه حسن صنع الله فلا يستغرب ما حسن صنيعه كفيله، وإن استعظم هذا المأمول واستقصر دون هذا المبذول)[6] والذي وقع أعظم من الذي يتوقَّع، والذي طلع أكثر من الذي يتطلع (والذي رأى أمس لدنيا يستزيدها ولكن ليقوى على تقوى يستزودها، فإن أعين علي البينة، وإلا فقد حصل أجرها، وإن نحج جهرا الإرادة في الدنيا وإلا فقد سر في الآخرة سرها ويتوقع تلو هذه الإطالة الإنعام بالتقليد الذي الخادم في استدعائه أبر بالخلافة من بشير إلى بأخيره وإرجائه الخلافة، إنما يتشيد ببنائها ويدعم أركانها ويعلو سلطانها بالصرف والتصريف والإنفاق والتوقيف والتنكير والتعريف والولاية والعزل والعقد والحل، على ذلك مضى أولاها إذ ولوها ولاتها إذ ساعدتهم الأتهام)[7].

(والخادم يرجو أن تكون الخلافة اليوم بالله سبحانه، فالخدمة مملوكها أنفد ما كانت أمرا وأعز ما كانت نصرا عائدة إليها أيام سفاحها ومنصورها متوقد ما يأبى الله أطفأه من نورها ممن جاهد لها فعلى الخادم بعون الله أن يخذله ومن شهر لها سيف خلاف فعليه أن يغمده فيه بعد أن يقلله وهو يسأل ما مثل مسطوره ولمح مستوره إلى أن تظهر مقاصده على سيافها، وينعم عليه لذلك بوقت من خواص ساعات التدبير وأوقاتها، والله ينجز لأمير المؤمنين موعده ويعلي كلمته ويده ويكرم في الدنيا محضره وفي الآخرة مشهده ويجعل الخلافة كلمة سارية في عقبه ويديم أنس البردة النبوية بمنكبه)[8].

---

(1) زيادة في هـ.

(2) البوازيخ : بلد قرب تكريت، ويقال لها البوازيج، وهي الآن من أعما ل الموصل. ياقوت : معجم البلدان، ج2، ص 297.

(3) خوزستان : يقال لهم الخوز، ويقال لأهل تلك البلاد بالخُوْزُ، ومنهم سليمان بن الخوزي. ياقوت : معجم البلدان، ج2، ص461.

(4) كيش : جزيرة في وسط البحر تعد من أعمال فارس؛ لأن أهلها فرس، وتعد في أعمال عُمان. ياقوت : معجم البلدان، ج4، ص 565.

(5) عُمان : مدينة عربية على ساحل بحر اليمن، وتشتمل على المدن الكبيرة، وأكثر أهلها كانوا من الخوارج الإباضية. ياقوت : معجم البلدان، ج4، ص 169.

(6) زيادة في هـ.

(7) زيادة في هـ.

(8) زيادة في هـ.

كتاب رقم (42)[1]

مرض السلطان عند حرَّان وشفاؤه سنة 581هـ/1185م[2]

أرسل الفاضل هذا الكتاب إلى تقي الدين عمر ابن أخ صلاح الدين وواليه على مصر مبشراً بشفاء السلطان، وجاء فيه :

العافية النَّاصرية قد استفاضت أخبارها أنوارها وآثارها، وولَّتِ العِلَّة –ولله الحمد– وأُطفئت نارُها، وانجلى غبارُها، وخَمَدَ شرارُها، وما كانت إلا فَلْتَةً وقى الله شَرَّها، وعظيمةً كُفي الإسلامُ أمرها، ونوبةً امتحن الله بها نفوسَنا، فرأى أقل ما عندنا صبرها، وما كان الله ليضيِّع الدعاء وقد أخلصته القلوب، ولا ليوقف الإجابةَ وإن سَدَّت طريقَها الذنوب، ولا ليخلف وَعْدَ فَرَجٍ وقد أيس الصَّاحب والمصحوب.

نعـــيٌّ زاد فيـــه الـــدَّهْرُ ميمـــا فأصـــبح بعـــد بُؤســـاه نعيمـــا

ومـــا صـــدَقَ النَّـــذيرُ بـــه لأنـــي رأيـــتُ الشـــمسَ تَطْلُـــعُ والنُّجومـــا

وقد استقبل مولانا السُّلْطانُ الملك النَّاصر العافيةَ غَضَّةً جديدة، والعزمةَ ماضيةً حديدة، والنِّشاط إلى الجهاد والجنة مبسوطة البساط، وقد انقضى الحساب، وجُزْناالصِّراط، وعُرضنا نحن على الأهوال التي من خوفها كاد الجَمَلُ يَلجُ في سُمِّ الخِيَاط.

---

(1) أبو شامة، الروضتين، ج3، ص 241–242.

(2) مرض السلطان صلاح الدين سنة 581هـ/1185م، مرضاً شديداً، فكان يتجلد ولا يظهر شيئاً من الألم، حتى قوي عليه الأمر، وتزايد الحال حتى وصل إلى حرَّان، فخيم هنالك من شدة ألمه، وشاع ذلك في البلاد وخاف الناس عليه، فقصده أخوه الملك العادل من حلب بالأطباء والأدوية، فوجدوه في غاية الضعف، فندر إن شفاه الله من مرضه ليصرف همته كلها إلى قتال الفرنج، وليجعل أكثر همه فتح بيت المقدس، وليقتل الابرنس "أرناط" بيده، لأنه نقض العهد، وتنقص الرسول صلى الله عليه وسلم، فعافاه الله من ذلك المرض الذي كان فيه، كفارة لذنوبه، ووصلت البشارات بذلك من كل ناحية، فدقت البشائر وزينت البلاد. ابن شداد : النوادر، ص119؛ ابن كثير : البداية والنهاية، ج12، ص338.

كتاب رقم (43)

رفضُ التعصب المذهبي

أرسلَ صلاح الدين هذا الكتاب بقلم الفاضل إلى أخيه العادل ملك مصر سنة 586هـ/1190م، وجاء فيه :

انتهى إلينا أَنَّ بالدِّيار المِصْرية وبالحَضْرَة العَلِيَّة، جماعةً من الفقهاء قد اعتضدوا[1] بجماعةٍ من أرباب السيُّوف، وبسطوا ألسنَتَهم بالقولِ غيرِ المعروف، وأنشؤوا من العصبية ما أطاعوا به القُوَى الغضبية، وأحيوا بها ما أماته الله من أهل حَمِيَّة الجاهلية، والله سبحانه يقول، وكفى بقوله حُجَّة على من كان سميعاً مطيعاً ﴿**وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا**﴾[2].

ولم يزل التعصُّب للمذاهب يملأُ القلوبَ بالشَّحْناء، ويشحنها، وقد نهى اللهُ عن المجادلةِ لأهل الخلافِ، فكيف لأهل الوفاق إلا أن يقال أحسنُها. وما عَلِمْنا أَنَّ في ذلك نيَّةً تُنْجَد، ولا مصلحةً توجد، ولا هدايةً تُعْتَقَد، بدراسةٍ تُعْقَد، ونارِ عداوةٍ تُوْقَد، وقلَّما أثمرت المُشَاجرة إلا خلافاً، فالمجلس –أَعَزَّه الله– يوعز بكَفِّ الألسنة الخائضة، وعَقْلِ الأَعِنَّة الرَّاكضة، فإن أقنع بلُطْفِهِ المَرْضَى وإلا كانت هِمَّتُه الرَّائضة، ومَنْ عاد بعد الزَّجْر أُبْعد عن مُسْتَقَرِّه، وأُزعج، وليسعَ الخَلَف ما وَسِعَ السَّلَف من الأدب، وليعلم العَبْدُ أنه يكتبُ كتاباً إلى رَبِّه فليفكرْ فيما كتَب وإلى مَنْ كتب.

---

(1) اعتضدوا : استعانوا. ابن منظور : اللسان، ج3، ص 2983.

(2) سورة آل عمران : آية 103.

الفصل الثالث

رسائل القاضي الفاضل حول معارك صلاح الدين مع الصليبيين

كتاب رقم (44)[1]

الحملة البيزنطية على دمياط سنة 565هـ/1169هـ

أرسلَ صلاح الدين هذا الكتاب بقلم الفاضل إلى الخليفة العباسي الناصر لدين الله، وجاء فيه :

وفي أثناء ذلك استنجدوا علينا الفرنج، دفعةً إلى بِلْبيس ودفعةٌ إلى دِمْياط، وفي كل دفعة منهما وصلوا بالعدد المُجهر[2]، والحشد الأوفر، وخصوصاً في نوبة دمياط، فإنهم نازلوها بحراً في ألف مركب، مُقاتل وحامل، وبرّاً في مئتي ألف فارس وراجل، وحصروها شهرين يباكرونها ويراوحونها، ويماسونها ويصابحونها القتالَ الذي يصلِّبه الصليب، والقِراع الذي ينادي به الموت من كل مكانٍ قريب، ونحن نقاتل العدوّين الباطن والظّاهر، ونصابر الضِّدَّين المنافق والكافر، حتى أتى اللهُ بأمره، وأيدنا بنصره، وخابت المطامعُ من المصريين والفرنج)[3]، (ومن مَلك الرُّوم ومن الجَنَويِّين وأجناسِ الرُّوم لأن أنفْارَهم تنافَرَتْ، ونَصارَاهم تناصَرَت، وأنَاجِيلَ طَوَاغيتهم رُفِعت، وصُلُبَ صَلَبُوتِهم أُخْرِجَتْ)[4].

---

(1) أبو شامة : الروضتين، ج2، ص360، 361(أ)؛ القلقشندي :صبح الأعشى، ج13، ص85.(ب)

(2) المجهر : المستكثر.معجم متن اللغة، ج1، ص588.

(3) زيادة في أ، ب.

(4) زيادة في ب.

كتاب رقم (45) [1]

فتح أيلة 566هـ/1170م[2]

أرسل صلاح الدين هذا الكتاب بقلم الفاضل إلى الخليفة العباسي الناصر لدين الله، وجاء فيه :

ولما خلا ذَرعُنا، ورَحُب وسعنا، نظرنا في الغزوات إلى بلاد الكُفَّار، فلم تخرج سَنَة إلا عن سُنَّة أقيمت فيها براً، وبحراً، مركباً، وظهراً، إلى أن أوسعناهم قتلاً، وأسراً، وملكنا رقابهم قهراً، وقسراً، وفتحنا لهم معاقل ما خطر أهل الإسلام فيها مُذْ أُخذت من أيديهم، ولا أُوجفت عليها خيلهم ولا ركابهم مُذْ مَلَكها أعاديهم. فمنها ما حُكِّمت فيه يَدُ الخراب، ومنها ما استولت عليه يدُ الاكتساب، ومنها قلعة بثغر أيلة كان العدوُّ قد بناها في بحر الهند، وهو المسلوك منه إلى الحرمين واليمن، وغزا ساحل الحَرَم، فسبى منه خَلْقاً، وخرق الكفر في هذا الجانب خرقاً، فكادت القبلة أن يُستولى على أصلها، ومشاعر الله أن يسكنها غيرُ أهلها، ومقام الخليل عليه السَّلام، أن يقوم به من نَارُه غيرُ بَرْدٍ وسلام، ومضجع الرسول صلى الله عليه وسلم أن يتطرَّقه من لا يدين بما جاء به من الإسلام. ففتح الله هذه القلعة وصارت مَعْقِلاً للجهاد، وموئلاً لسُفَّار البلاد، وغيرهم من عُبَّاد العباد [3].

---

(1) أبو شامة : الروضتين، ج2، ص362 (أ)؛ القلقشندي : صبح الأعشى، ج13، 85(ب)

(2) هاجم صلاح الدين أيلة بعد أن حمل إليها قطع المراكب على ظهور الجمال في البر، ثم جمعها وألقاها في البحر، وحاصر أيلة براً وبحراً، إلى أن تمكن من فتحها في ربيع الآخر 566هـ (ديسمبر/1170م). أبو شامة : الروضتين، ج2، ص181، 182.

(3) زيادة في أ، ب.

كتاب رقم (46)[1]

الحملة على غزة[2] ونواحيها سنة 566هـ/1170م [3]

أرسلَ صلاحُ الدين هذا الكتاب بقلم الفاضل إلى أخيه شمس الدولة في مدينة قوص[4]، جاء فيه :

﴿فَانقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُواْ رِضْوَانَ اللّهِ وَاللّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾[5].

توجهنا من بركة الجُبّ[6] يوم الخميس الخامس عشر من ربيع الأول، ووصلنا بتاريخ السَّابع والعشرين من الشهر المذكور، والعساكر بالسهل والوعر منتظمة، والهمم على السهل والصَّعب مزدحمة، وجنود الله في الأرض المُعْلَمة، قد أَيَّدَتها جنود السماء المسوَّمة. وصابحنا الدَّير يوم الأربعاء بقتالٍ جعل كلَّ من في حِصْن الدَّير راهباً، ونصبنا عليه منجنيقاً، لا يزال بشهاب القذفِ ضارباً. فلما تعالى النَّهار ملكنا رَبَضَه[7]، وأطلقنا فيه النيران، ورمَّلْنا الرِّجال بالدَّم، وأرملنا النسوان، وزحفنا إلى أبراجه، وهي أبراجٌ قد استعدَت للبلاء جِلباباً، فجعلنا لكلّ واحدٍ جورة مفردةً وباباً، وسرَّحنا[8] إليهم رُسُلَ المنايا من النُّشَّاب، وقصدنا أَخْذَ الأبراج، والبيوت تؤتى في الحرب من

---

(1) أبو شامة : الروضتين، ج2، ص 185-188.

(2) غزة : مدينة في أقصى الشام من ناحية مصر. ياقوت : معجم البلدان، ج4، ص202.

مدينة كنعانية قديمة أقامها الكنعانيون قبل حوالي 3000 سنة ق.م، وقد دعاها الفراعنة " غازاتو" ودعاها الفرس " هازاتو"، ودعاها العرب غز هاشم نسبة إلى هاشم بن عبد مناف جد الرسول عليه الصلاة والسلام. الحاج : معجم محمود درويش، ص 242.

(3) توجه صلاح الدين بعساكره إلى غزة سنة 566هـ/1170م، وكانت معقلاً للداوية فدخلها من عدة جوانب حتى أخضعها وأكثر فيها التخريب والتحريق، ثم عاد بعساكره بما جمع من الغنائم والميرة والأسرى، وعاد إلى الداروم للقاء ملك الفرنج، لكنه جبن عن لقاء صلاح الدين، فاستأنف صلاح الدين العودة إلى القاهرة في أواخر ربيع الآخر. ابن الأثير : الكامل، ج11، ص365.

(4) قوص : مدينة كبيرة عظيمة واسعة تقع في صعيد مصر بينها وبين الفسطاط اثنا عشر يوما. ياقوت : معجم البلدان، ج4، ص413.

(5) سورة آل عمران : آية 174

(6) بركة الجب : ويقال لها بركة الحجاج أيضاً، وقد عرفها المقريزي في الخطط، بقوله : "هذه البركة في الجهة البحرية من القاهرة، عرفت أولاً بجب عميرة، ثم قيل لها أرض جب، وعرفت إلى اليوم ببركة الحجاج لنزول حجاج البر بها عند مسيرهم من القاهرة، وعند عودتهم". المقريزي : الخطط، ج3، ص265-267.

(7) ربضه : الربض ما حول المدينة من مساكن للجند والجمع أرباض. الفراهيدي : العين، ج7، ص36.

(8) سرحنا : أرسلنا. ابن منظور : اللسان، ج2، ص1985.

غير الأبواب، وتقدّمت إليهم نقّابة الحلبية فباتت ليلتها تساوره، وتراجعه بألسنة المعاول وتشاوره. وأسفر الصُّبْح وقد أمكن تعليقه، وتيسَّر تحريقه، فأودعنا تلك العقود آلات الوقود، فلم يكن إلا مقدار اشتعالها حتى خَرَّ صريعاً سريعاً، وعفر بين أيدينا سامعاً مطيعاً. وانتظمت الرجال على أحجاره، وتواثبت إلى أمثاله من الأبراج وأنظاره، فحصلت في القَبْضَة، وعَجَزَ من كان فيها عن النهضة، واحتكم فيها العذابُ بالسيف والنار، وضاق عليهم مجال النفس والقرار.

واستقبلنا يوم الخميس بنقب القلعة وتقديم المنجنيق، وتيسير السبيل للقتال وتخليص الطريق، هذا والكسوب والنهوب قد امتارت منها العساكر، وخرجت فيها مكنونات الذخائر، وأشبه اليوم يَوْمَ تُبْلَى السَّرائِر، وطهَّرَ الأرض منهم بالدم المائر.

فلما كان بُكْرة الجمعة وَرَدتْنا الأخبار بأن الملك قد زحف من غَزَّة في فارسه وراجله، ورامِحه ونابِله، وحشودِ دياره، وجنود أنصاره. فركبنا مستبشرين بزحفه، موقنين بحتفه، ولقيناه، فأحطنا من بين يديه ومن خلفه. وناوشته الخيل الطِّراد، وأحدثت به إحداق الأغلال بالأجياد، وانتظرت حملته التي كان لها قبل ذلك اليوم موقع، وصدمته التي لها من رجال الحرب موضع، فملأ الله قلبه رعباً، وثنى صدقه كذباً. ولم يزل يخاتل ولا يقاتل، ويواصل المسير ولا يصاول[1]، والقتل في أعقابه، وأيدي السيوف وسواعد الرماح لا تني[2] في عقابه، حتى تحصَّن في الدَّير هو وخيلُه ورَجْله، ولم يبق له من مُلك الشام إلا ما وطئته رِجْله. فناصبناه الحصار في ليلة السبّت مستهل ربيع الآخر بالركوب إليه، والوقوف عليه، لعله يبرز ويبارز، ويخرج ولا يحاجز؛ فخرست غماغمه[3]، واستذأبت[4] ضراغمه، فتركناه وراء ظهورنا، وجعلنا بلاده أمام صدورنا، فكنا في توليته مرضين لله تعالى لا مغضبين، وفي تركه وراء ظهورنا ومباعدته من الله متقرِّبين.

وواجهنا غَزَّة بعساكرنا المنصورة، وأطفنا بها في أحسن صورة، وهي على ما علم من كونها بِكْراً لم تفترعها الحوادث، وحَصَاناً لم يَطْمِثْها أمل طامث، وهي معقل الديويَّة[5] الذين هم جمرة الشِّرْك،

---

(1) يصاول : يتطاول ويضرب. ابن منظور : اللسان، ج11، ص387.

(2) تني : تفتر وتقصر. ابن منظور : اللسان، ج15، ص416.

(3) غماغمه : الغمغمة هي صوت الأبطال في المعركة.الفراهيدي : العين، ج4، ص 351.

(4) استذأبت : أي صارت كالذئب.ابن منظور : اللسان، ج2، ص1479.

(5) الديوية : فكرة إنشاء هذه الطائفة فكرة دينية وعسكرية، وهي فكرة نشأت من فارس من شمبانيا اسمه هيوباينزا استطاع أن يقنع الملك بلدوين الأول بأن يسمح له ولفئة قليلة من رفاقه بالنزول في جناح بالقصر الملكي بساحة المعبد، وهو المسجد الأقصى، وخضع الداوية" فرسان المعبد" أول الأمر لقاعدة البندكتيين مثلما فعل الإسبتارية على أنهم أضحوا طائفة مستقلة تتألف من ثلاث طبقات : الفرسان وكلهم من أصلٍ نبيل، ثم الأجناد من البرجوازية، ويعتبرون ساسة الجماعة ومراقبيها، وأما الطبقة الثالثة فتتألف من رجال الدين الذين شغلوا

وداهية الإفك، وأتى الله ببنيانها من القواعد، وأنجز فيها من النَّصر صادق المواعد، ووردناها بأيمن الموارد؛ وفتحناها من عدّة جوانب، ووطئناها وإذا هي كأمسِ الذَّاهب، فأَلْقَتْ إلينا أفْلاذ كبدها، وذخيرة يدها، فمن بين مَوَاشٍ تخرب البلاد التي منها خرجت، وخيول مسوَّمة كأنها لركوبنا أُسْرِجَتْ وأُلجمت، وحوامل أثقال وزوامل[1] خَفَّفَتْ عن عساكرنا وفَرَّجَتْ، وميرة كثيرة تمكنت فيها يد الأجناد وأفرجت، وأسارى المسلمين فكوا من القيد والقِدّ، وأنقذوا بلطف الله من سوء المَلَكَة وشدة الجهد. وأما الرؤوس المقطوعة، وأسارى الفرنج الذين أيديهم إلى أعناقهم مجموعة، فإنَّ الفضاءَ الفِضِّي تَعَصْفَرَ من دمائهم وتذهَّب، وجرى منها ما به اضطرم وَقْدُ الجحيم وتلهّب، وفي الحال أمرنا بالنار أن تشتغل بها وتشتعل، وبالهدم أن ينقل عنها معاوله وينتقل ﴿**فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ**﴾[2]، أو تنظر إلا طلولاً على عروشها خاوية، وعِراصاً[3] من سُكَّانها خالية، قد بقيتْ عبرةً للعابر، وذكرى للذّاكر، وموعظةً سارَّةً للمسلم مُرْغِمَةً للكافر.

ثم عدنا بقيةَ يوم السبت إلى الملك –خذله الله تعالى– راجينَ أن يحمله الثُّكْلُ على الإقدام، ويخرجه حَرُّ الثَّار إلى مقام الانتقام، فإذا شيطانه قد نصحه، وقَتْلُ أصحابه قد جَرَحه، فبِتْنا عليه والألسنةُ بقرارِهِ تعيّره، واستتاره يقَرِّعه ويقَرِّره.

وأصبحنا يوم الأحد ثاني شهر ربيع الآخر والكسبُ قد أثقل المقاتلة، ونَصْرُ الله قد بلغ الغاية المستأصلة، ورحلنا والسَّلامةُ لصغير عسكرنا وكبيره شاملة، والعدُوُّ قد غُزِي في عُقره وعُقِر، وأُذِلَّ في دار مُلْكه واحتقر. ووصلنا إلى مستقرِّ سلطاننا في يوم الاثنين الحادي عشر من الشهر المذكور[4]، فاستقبلنا من مولانا، صلوات الله عليه، وتشريفه واستقلال ركابه، ومشافهتنا بمقبول دعائه الشريف ومحابِّه، ما عَظُمَتْ به النِّعَم وجلَّت، وزالت به وعثاءُ الطريق وتجلَّت، وجادتها سماء إنعامه التي لم تزل تجودنا واستهلَّت.

الوظائف الدينية وقاموا بكل ما لم يمت للعسكرية بصلة، واتخذوا الصليب الأحمر شعاراً لهم فجعله الفرسان على أرديتهم البيضاء، واتخذه الأجناد على ستراتهم السوداء، وأول الواجبات الدينية التي تعاهد بها الداوية الحرص على تطهير الطريق الممتد من ساحل البحر المتوسط إلى بيت المقدس من قطاع الطرق، غير أنهم لم يلبثوا أن اشتركوا في كل حملة قامت بها المملكة. رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية، ص250،249؛ البقلي : التعريف بمصطلحات الأعشى، ص19.

(1) الزوامل : ما يحمل عليه من الإبل وغيرها. المعجم الوسيط، ج1، ص401.

(2) سورة الحاقة : آية 8.

(3) عراصاً : العرصة هي ساحة الدار أو البقعة الواسعة. الفراهيدي : العين، ج1، ص298؛ ابن منظور : لسان العرب، ج3، ص 2883؛ المعجم الوسيط، ج2، ص 593.

(4) يقصد به شهر ربيع الآخر.

كتاب رقم (47)[1]

حزنُ صلاح الدين على وفاة والده سنة 568هـ/1172م [2]

أرسلَ صلاحُ الدينِ هذا الكتاب بقلم الفاضل إلى أخيه عز الدين فرخشاه بمصر خلال وجوده في غزوة الكرك، فجاء فيه :

صح من المصاب بالمولى الدَّارج –غفر الله له ذنبه، وسقى بالرحمة تُرْبَه– ما عظمت به اللَّوعة، واشتدَّت الرَّوْعة، وتضاعفت لغيبتنا عن مشهده الحسرة، فاستنجدنا بالصَّبر فأبى وأنجدت العبرة، فيا له فقيداً فُقِدَ عليه العزاءُ، وهانتْ بعده الأرزاء[3]، وانتثر شمل البركة بفقده، فهي بعد الاجتماع أجزاء.

وتخطفته يدُ الرَّدى في غيبتي هَبْني حَضَرْتُ فكنت ماذا أَصْنَعُ

---

(1) أبو شامة : الروضتين، ج2، ص 249–250.

(2) توفي نجم الدين أيوب والد صلاح الدين عندما كان صلاح الدين في غزوة الكرك سنة 568هـ/1172م، وكان سبب موته أنه ركب يوماً فرساً بمصر، فنفر به الفرس نفرة شديدة، فسقط عنه ووقع على رأسه فحمل إلى قصره وبقي أياماً، ومات في السابع والعشرين من ذي الحجة، وكان خيّراً، عاقلاً، حسن السيرة كريماً جواداً كثير الإحسان إلى الفقراء. ابن الأثير : الكامل، ج11، ص393؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة، ج6، ص61، 62.

(3) الأرزاء : جمع رزء وهي المصيبة. ابن منظور : اللسان، ج2، ص1634.

كتاب رقم (48)[1]

العزاء بوفاة نور الدين والتأكيد على تمسكه بالجهاد 569هـ/1173م[2]

أرسلَ صلاحُ الدين هذا الكتابَ بقلم الفاضل إلى الصالح إسماعيل ، وجاء فيه :

وأما العدوُّ –خذله الله تعالى– فوراءه من الخادم من يطلبه طلبَ ليلٍ لنهاره، وسيل لقراره، إلى أن يزعجه من مجاثمه، ويستوقِفَه عن مواقف مغانمه، وذلك من أقلِّ فروض البيت الكريم وأيسر لوازمه، أصَدَر هذه الخدمة يوم الجمعة رابع ذي القعدة، وهو اليوم الذي أقيمت فيه الخطبة بالاسم الكريم[3]، وصرَّح فيه بذكره في الموقف العظيم. والجمع الذي لا لغو فيه ولا تأثيم. وأشبه يومُ الخادم أمسَه في الخدمة، ووفَّى ما لزمَه من حقوقِ النِّعمَة، وجمع كلمة الإسلام عالماً أنَّ الجماعة رحمةٌ. والله تعالى يخلِّد ملك المولى الملك الصَّالح، ويصلح به وعلى يديه، ويؤكد عهود النَّعْماء الراهنة لديه، ويجعل للإسلام واقية باقية عليه، ويوفّق الخادم لما ينويه من توثيق سُلْطانه وتشييده، ومضاعفة ملكه ومزيده، وتيسير منال كلّ أملٍ صالح وتقريب بعيده، إن شاء الله تعالى.

---

(1) أبو شامة : الروضتين، ج2، ص 320

(2) توفي نور الدين محمود بن زنكي، يوم الأربعاء الحادي عشر من شوال سنة 569هـ/1173م .، بعلة الخوانيق، حيث حصلت له خوانيق في حلقه، منعته من النطق، وهي مرض من الأمراض التي تصيب الحلق، وكان قد أشير عليه بالفصد (أي إخراج الدم الفاسد من الأنف) لكنه رفض، وتوفي في ذلك اليوم عن عمر ثمان وخمسين سنة. ابن الأثير : الكامل، ج11، ص 402؛ ابن كثير : البداية والنهاية، ج12، ص 305.

(3) هذا دليل على أنَّ صلاح الدين أقرَّ منذ البداية بشرعية حكم الصالح ودخوله في طاعته.

كتاب رقم (49)[1]

وفاة أموري ملك الفرنج سنة 569هـ/1174م [2]

من رسائل صلاح الدين بقلم الفاضل :

ورد كتابٌ من الدَّاروم[3] يذكر أنه لما كان عشية الخميس تاسع ذي الحجة هلك مُرِّي[4] ملك الفرنج –لعنه الله– ونقله إلى عذاب كإسمه مشتقاً، وأقدمه على نارٍ تَلَظَّى ﴿**لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى**﴾[5].

(1) أبو شامة : الروضتين، ج2، ص 332.

(2) عموري الأول : توج عموري الأول ملكاً على بيت المقدس سنة 557هـ/ 1162م، بعد وفاة أخيه بلدوين الثالث بثمانية أيام، وامتاز بالمهارة السياسية الفائقة والقدرة على انتقاء خيرة الوسائل لتنفيذ أغراضه في محاربة المسلمين، اشترك عموري الاول في المؤامرة التي دبرها الفاطميون بهدف إحياء الدعوة للدولة الفاطمية والإنقلاب على حكم صلاح الدين في مصر، لكن مؤامرتهم باءت بالفشل، وتوفي سنة 569هـ/1174م، دون أن يحقق آماله في احتلال مصر وتمزيق الوحدة الإسلامية بين مصر وبلاد الشام. عاشور، سعيد : الحركة الصليبية، ج1، ص 537؛ عاشور : الحركة الصليبية، ج2، ص28.

(3) هذا دليل على أنه كان لصلاح الدين عيون في المناطق الفرنجية ترسل له تقارير عن أخبار الفرنج.

(4) مُرِّي : وهو ملك بيت المقدس أموري كان يعرفه العرب باسم مُرِّي.

(5) سورة الليل : آية 15.

كتاب رقم (50)[1]

حملة صقلية على الإسكندرية سنة 569هـ/1174م، وتقرير حول العلاقات الخارجية[2]

أرسل صلاح الدين هذا الكتاب إلى الخليفة العباسي المستضيئ بأمر الله، وجاء فيه :

(فأما الأعداء المحدقونَ بهذه البلاد، والكُفَّارُ الذين يقاتلوننا بالممالك العظامِ والعزائمِ الشِّداد، فمنهم صاحب قُسْطَنْطينية، وهو الطَّاغيةُ الأكبر، والجالوت الأكفر، وصاحب المملكة التي أكلت على الدَّهْرِ وشربتْ، وقائمُ النصرانية الذي حكمت دولته على ممالكها وغَلَبَتْ، جَرَت لنا معه غَزْواتٌ بحرية، ومناقلات ظاهرة وسِرِّية، (وكانت له في البلاد مطامعُ منها أن يجبى خراجاً، ومنها أن يملِكَ منها فِجَاجاً، وكانت غُصَّةً لا يُسيغها الماء، وداهيةً لا تُرْجى لها الأرضُ بل السَّماء، فأخذْنا ولله الحمدُ بكَظَمه، وأقمْناه على قَدَمه)[3] ولم نخرج من مصر إلى أن وصلتنا رُسله في جمعةٍ واحدة نَوْبتين، بكتابين، كلّ واحدٍ منهما يظهر فيه خفضَ الجَنَاح، وإلقاء السِّلاح، والانتقالَ من معاداة إلى مُهاداة، ومن مفاضحةٍ إلى مناصحة، حتى إنه أنذرَ بصاحب صِقِلِّية وأساطيله التي تردِّد ذِكرُها، وعساكره التي لم يخفَ أمرُها)[4].

(ومن هؤلاء الكُفَّار هذا صاحبُ صِقِلِّية، كان حين علم بأن صاحب الشَّام وصاحب قُسْطَنطينية قد اجتمعا في نوبة دِمْياط فغُلبا وقُسرا، وهُزما وكُسرا، أراد أن يُظهر قوَّتَه المستقلَّة، فعمَّر أسطولاً استوعبتْ فيه مالَه وزمانَه، فله الآن خمس سنين يُكثِّرُ عِدَّته، وينتخبُ عُدَّتَه، إلى أن وصلَ منها في السنةِ الخاليةِ إلى الإسكندريةِ أمرٌ رائع، وخَطْبٌ هائل، ما أثقل ظهر البحر مِثْلُ حملِه، ولا ملأ صدرَه مثلُ خيلِه ورَجْله، وما هو إلا إقليمٌ بل أقاليمُ نَقَلَه، وجيشٌ ما احتفل ملكٌ قط بنظيره لولا أنَّ الله خذله)[5]. (ولو ذهبنا نِصفُ ما ذهبَ، فيه من ذَهبَ؛ وما أُخِذَ منه من سِلاحٍ وخيل وعُدَد ومجانِيق، ومَنْ أُسِرَ منه من خَيَّالةٍ كِبار، ومقدَّمِينَ ذَوِي أقدار، وملوكٍ يُقاطعُون بالجمل التي لها مِقْدار؛ وكيف أَخْذُه وهو في العَدَد الأكثرِ بالعَدَد الأقلِّ من رجالنا، وكيف نصرُ اللهُ عليه

---

(1) أبو شامة : الروضتين، ج2، ص 363، 364(أ)؛ القلقشندي : صبح الأعشى، ج13، ص86، 87(ب)

(2) تعرضت الإسكندرية إلى حملة من جزيرة صقلية في أواخر ذي الحجة 596هـ (يوليو/1174م)، وكان سببها استجابة صاحب صقلية للمراسلات التي وصلته من الفاطميين بزعامة عمارة اليمني لمهاجمة مصر، وقد فرضت الحملة الحصار على الإسكندرية، وضربتها بالمنجنيق، إلى أن صلاح الدين أرسل الإمدادات سريعاً إلى المدينة، وسار إليها بنفسه، واستبسل أهل المدينة في الدفاع عنها، وأغرقوا جزءاً من مراكب صقلية، واضطر المهاجمون للإنسحاب والفرار. أبو شامة : الروضتين، ج2، ص334– 364.

(3) زيادة في ب.

(4) زيادة من أ، ب.

(5) زيادة من أ، ب.

مع الأصعب من قتاله بالأسْهَل من قتالِنا، لعُلِم أنَّ عنايَةَ الله بالإسلام تُغْنِيه عن السلاح، وكفايَةَ الله لهذا الدِّين تكْفِيه مَؤُنة الكِفَاح)[1].

(ومن هؤلاء الجيوش البنادقة، والبياشنة، والجنوية[2]، كلّ هؤلاء تارةً يكونون غُزاةً لا تُطاق ضراوةُ ضَرِّهم، ولا تُطفأ شرارةُ شَرِّهم، وتارةً يكونون سُفّاراً يحتكمون على الإسلام في الأموال المجلوبة، وتقصرُ عنهم يدُ الأحكام المرهوبة، وما منهم إلا من هو الآن يجلب إلى بلدنا آلةَ قتاله وجهاده، ويتقرَّب إلينا بإهداءِ طرائفِ أعماله وتِلادِه، وكلهم قد قُرِّرتْ معهم (المواصلةُ)[3]، وانتظمتْ معهم المُسالمةُ، على ما نريد ويكرهون، وعلى ما نؤثرُ وَهُمْ لا يؤثرون)[4].

---

(1) زيادة من ب.

(2) البنادقة والياشنية والجنوية : هم طوائف مشهورة عند الفرنج، فالبنادقة قاعدة مملكتهم البندقية، والبياشنية قاعدة مملكتهم مدينة بيزة، والجنوية قاعدة مملكتهم مدينة جنوة. القلقشندي : صبح الأعشى، ج5، ص 404- 411.

(3) ب : المواصفة.

(4) زيادة في أ، ب.

كتاب رقم (51)[1]

تأكيد صلاح الدين على جاهزيته لمواجهة تهديد الفرنج

أرسل صلاحُ الدين هذا الكتابَ بقلم الفاضل إلى الخليفةَ العباسي المستضيئ بأمر الله سنة 570هـ/1174م ، وجاء فيه :

لم يكن سببُ خروج المملوك من بيته إلا وعدٌ كان انعقد بينه، وبين نور الدين رحمه الله تعالى، في أن يتجاذبا طرفي الغزاة من مصر والشَّام؛ المملوك بعسكري بَرِّه وبحره، ونور الدين من جانب سهل الشَّام، وَوَعْره، فلما قضى الله بالمحتوم[2] على أحدهما، وحدثت بعد الأمور أمورٌ، اشتهرت للمسلمين عوراتٌ وضاعت ثغور، وتحكَّمتْ الآراءُ الفاسدة، وفُورقت المحاجُّ القاصدة، وصارت الباطِنية بطانةً من دون المؤمنين، والكُفَّار محمولةً إليها جِزَى[3] المسلمين، والأمراء الذين كانوا للإسلام قواعد، وكانت سيوفُهم للنَّصر مواردَ، يشكون ضيقَ حلقاتِ الإسار، وتَطَرُّقَ الكفار بالبناء في الحدود الإسلامية.

ولا خفاء أنَّ الفرنج بعد حلولنا بهذه الخطة قاموا وقعدوا، واستنجدوا علينا أنصار النصرانية في الأقطار، وسَيَّروا الصَّليب ومِن كُسى مذابحهم بقمامة[4]، وهدَّدوا طاغية كفرهم بأشراط القيامة، ونفَّذوا البطارقَة والقِسِّيسين، برسائل صُوَرِ من يصورونَه ممن يسمُّونهم القِدِّيسين، وقالوا : إن الغفلة إن وقعت أوقعت فيما لا يُستدرك فارِطُه. وإن كلاً من صاحب قُسْطنطينية[5]، وصاحب صِقِلِّية، وملك الألمان، وملوك ما وراء البحر، وأصحاب الجزائر، كالبندقية، والبيشانية، والجَنوية، وغيرهم، قد تأهبوا بالعمائر البحرية، والأساطيل القوية، والإسلام يا أمير المؤمنين أعزُّ ناصراً، لا سيما وهم ينصرون باطلاً وهو ينصر حقاً، وهو يعبد خالقاً وهم يعبدون خَلْقاً.

---

(1) أبو شامة : الروضتين، ج2، ص 367-368.

(2) المحتوم : قضاء الأمر. ابن منظور : اللسان، ج1، ص771.

(3) جِزَى : مكافأة. ابن منظور : اللسان، ج1، ص619.

(4) قُمامة : يقصد كنيسة القيامة

(5) صاحب قسطنطينية : يقصد الإمبراطور البيزنطي مانويل كومنين(1143هـ/1180م)، وهذه الوثيقة مهمة في تاريخ العلاقات البيزنطية مع صلاح الدين، حيث أن العلاقات كانت عدائية في هذه المرحلة، وإن كانت قد تحولت فيما بعد إلى التعاون كما سنرى. حول العلاقات الأيوبية البيزنطية ينظر عطا : الشرق الإسلامي زمن الأيوبيين، ص 76- 99؛ طقوش : تاريخ الأيوبيين، ص101- 113؛ الحايك : العلاقت الدولية، ج2، ص123- 128.

كتاب رقم (52)[1]

مهاجمةُ الصليبيينِ لحمصَ ثم رجوعُهم عنها 570هـ/1174م [2]

أرسل صلاحُ الدين هذا الكتابَ بقلم الفاضل إلى أخيه العادلِ ملكِ مصرَ وجاء فيه :

قد أعلمْنا المجلسَ أن العدوَّ –خذلهُ اللهُ– كان الحلبيون قد استنجدوا بصُلْبانهم، واستطالوا على الإسلامِ بعدوانهم، وأنه خرجَ إلى بلدِ حمصَ، فوردنا حماة، وأخذنا في ترتيب الأطلاب[3] لطلبه ولقاه، فسار إلى حصن الأكراد[4] متعلقاً بحبله مفتضحاً بحيله. وهذا فتحٌ تفتح له أبواب القلوب، وظفرٌ وإن كان قد كفى الله فيه القتال المحسوب، فإنَّ العدوَّ قد سقطت حِشْمته، وانحطَّت فيه هِمَّته، وولَّى ظهراً كان صدره يصونه، ونكَّس صليباً كانت ترفعه شياطينه.

---

(1) أبو شامة : الروضتين، ج2، ص 354-355.

(2) رحل صلاح الدين عن حلب سنة 570هـ/1174م، بسبب خروج صاحب طرابلس" ريمندالصنجيلي "الذي كان قد أسره نور الدين محمود سنة 559هـ، فأطلق سعد الدين كمشتكين سراحَه مقابل مائة ألف وخمسين ألف دينار وألف أسير، ثم طلب منه أن يقصد بعض البلاد التي بيد صلاح الدين؛ لإرغامه على الرحيل عن حلب، فسار إلى حمص ونازلها في السابع من رجب، فلما تجهز لقصدها سمع صلاح الدين الخبر فرحل عن حلب، فوصل إلى حماة في الثامن من رجب، فلما سمع الفرنج بقرب صلاح الدين رحلوا عن حمص، ابن الأثير : الكامل، ج11، ص419.

(3) الأطلاب : هي وحدات صغيرة قد تبلغ أربعمائة، يرأسها أمراءً يعملون في وظائف البلاط والدولة. البقلي : التعريف بمصطلحات الأعشى، ص 36.

(4)

كتاب رقم (53)[1]

هجوم الفرنج على حماة 573هـ/1177م، وصد المسلمين لهم[2]

أرسل صلاح الدين هذا الكتاب بقلم الفاضل إلى الخليفة العباسي المستضيئ بأمر الله، وجاء فيه :

خرج الكُفَّار إلى البلاد الشَّامِيَّة، فاسخين لِعَقْدٍ كان مُحْكماً[3]، غادرين غدْراً صريحاً، مقدّرين أنْ يُجهزوا على الشَّام لما كان بالجدب جريحاً، ونزلُوا على ظاهر حماة يوم الاثنين الحادي والعشرين من جُمادى الأولى، وزحفوا إليها في ثانيه، فخرج إليهم أصحابنا، وتضمَّن كتاب سيف الدِّين –يعني المشطوب–[4] أنّ القتلى من الفرنج تزيد على ألف رجلٍ ما بين فارس وراجل، شفى الله منهم الصُّدور، ورزق عليهم النصر والظهور. ثم انصرفوا مجموعاً لهم بين تنكيس الصُّلُب وتحطيم الأصلاب، مفرَّقة أحزابُهم عن المدينة المحروسة كما افترقت عن المدينة الشَّريفة النَّبويَّة الأحزاب.

---

(1) أبو شامة : الروضتين، ج2، ص471.

(2) حاصر الفرنج مدينة حماة سنة 573هـ، وسبب ذلك أنه وصل من البحر إلى الساحل الشامي قائد كبير من الفرنج من أكبر طواغيتهم، فرأى أن صلاح الدين بمصر قد عاد منهزماً، فاغتنم خلوّ البلاد، لأن شمس الدولة بن أيوب كان بدمشق ينوب عن صلاح الدين، وليس عنده كثير من العسكر، فجمع من بالشام من الفرنج، وفرق عليهم الأموال، وسار إلى مدينة حماة فحاصرها وبها صاحبها شهاب الدين محمود الحارمي، فقاتل الفرنج على البلد قتالاً شديداً، فاجتمع أهل البلد مع العسكر المسلمين واشتد القتال بين الفريقين، ودافع المسلمون عن الأنفس والأهل والمال، وأخرجوا الفرنج من البلد، وأكثروا فيهم القتال؛ فرحل الفرنج حينئذٍ خائبين. ابن الأثير : الكامل، ج11، ص 444.

(3) يشير إلى الهدنة التي وقعها صلاح الدين مع الفرنج سنة 572هـ/ 1176م. ينظر ابن الأثير : الكامل، ج11، ص 435؛ أبو شامة : الروضتين، ج2، ص389.

(4) المشطوب : على بن أحمد ابن صاحب قلاع الهكارية أبي الهيجاء الهكاري نائب عكا، أُسر عندما احتل الفرنج مدينة عكا سنة 587هـ/1191م، ثم اشتُري بمبلغ عظيم، وكان شجاعًا صابرًا في الحرب مطاعًا في قبيلته دخل مع أسد الدين شيركوه إلى مصر وشهد فتحها، توفي سنة 588هـ/1192م. العماد : شذرات الذهب، ج4، ص294.

كتاب رقم (54)[1]

كسرة الرملة 573هـ/1177م[2]

أرسلَ الفاضلُ هذا الكتابَ إلى صلاحِ الدين، وجاء فيه :

إنَّ العدو –خذله الله تعالى– نهض إلى صَدْر، وقاتَل القلعة ولم (يتمَّ)[3] له أمر، فصرف اللهُ شَرَّه، وكفى أمرَه.

ووصل من الفرنج مستأمِنٌ وذكر أنَّهم يريدُون الغارةَ على فاقُوس فاستقلُّوا أنفسهم وعرَّجوا، وذكرَ أنَّهم مَضَوْا بنية تجديد الحشد، ومعاودة القَصْد.

وأما نوبة العدو في الرَّمْلة فقد كانت عثرةً، علينا ظاهرُها، وعلى (العدو)[4] باطنها، ولزمنا ما نَسَّى من اسمها، ولزمهم ما بَقَّى من غَرْمِها، ولا دليل أدلَّ على القوّة من المسير بعد شهرين من تاريخ وقعتها بالشَّام، نخوضُ بلاد الفرنج بالقَوافل الثَّقيلة، والحشود الكثيرة، والحريم المستور، والمال العظيم الموفور.

---

(1) أبو شامة : الروضتين، ج2، ص 473 (أ)؛ابن واصل : مفرج الكروب، ج2، ص64 (ج).

(2) خرج صلاح الدين إلى الساحل في جمادى الأولى 573هـ/ أكتوبر 1177م، وكان قد اصطحب معه أعداداً كبيرة من الجنود لهذه الحملة، سار صلاح الدين بهذه القوات ووقف بها أمام عسقلان في أواخر جمادى الأولى، فلم يخرج للقائه أحد، فنهب وأحرق وقتل وأسر، وواصلوا عمليات النهب والتحريق ووصل بقواته إلى الرملة ففاجأتهم قوات الفرنج وكان معظم عسكر صلاح الدين قد تفرقوا عنه في تلك النواحي، مما جعل الكفة ترجح لصالح الفرنج، وكانت نتيجة المعركة انهزام صلاح الدين ومن معه، وعودته إلى مصر في منتصف جمادى الآخرة بعد ان فُقد الكثيرون ممن كانوا معه بين قتيل وأسير. للمزيد حول هذه الوقعة ينظر البنداري : سنا البرق، ص 127– 132؛ الحنبلي : شفاء القلوب، ص 115– 116؛ رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص671– 673؛ شاندور : صلاح الدين، ص 152.

(3) ج : يترك.

(4) أ : الكفار.

كتاب رقم (55)[1]

وقعة الهنفري[2]، ومرج عيون[3] وغزوة بحرية سنة 574هـ/1179م [4]

أرسل صلاح الدين هذا الكتاب بقلم الفاضل إلى أحد أصحابه بمكة، وجاء فيه :

وجَرَتْ نُوَبٌ، منها نوبة قتل الهنفري–لعنه الله– وتمام سبعين فارساً من كبار الخَيَّالة، وطرح ملك الفرنج من على ظهر دابته، وتحامله بآخر رمق مع بَقِيَّة من نجا من خَيَّالته.

ومنها : نصر الله الذي ما كان قبله لملكٍ من ملوك الأرض قتل ابن بارزان[5]، ومقدَّم الدَّاوية، وابن صاحب طبرية، وأخو أسقف صُور، وصاحب جبيل، وأصحاب الحصون والقلاع، ومقطعو الأقاليم والضِّياع، وحصل تحت اليد النَّاصرية –أعلاها الله– مئة وستون كلُّهم تُثْنَى عليهم الخناصر، وتُقْطَرُ بهم العساكر.

ومنها : دخول العساكر إلى عمل بيروت وصور، وغارتها على غِرَّة من أهلها، وقَطْع كلِّ شجرةٍ مُثْمرةٍ من أصلها.

---

(1) أبو شامة، الروضتين، ج3، ص 35

(2) وقعة الهنفري : هاجم الفرنج أعمال دمشق في ذي القعدة 574هـ (أبريل 1179م)، فأرسل صلاح الدين ابن أخيه فرخشاه في جمعٍ من العسكر إلى دمشق، وأمره إذا قاربهم أن يرسل إليه بخبرهم وألا يقاتلهم؛ إلا أن الفرنج باغتوا فرخشاه في الطريق فاضطر لقتالهم وحدثت معركة كبيرة انتهت بانتصار المسلمين، وقتل في المعركة عدد كبير من مقدميه وكان من بينهم هنفري، وهو من كبار زعماء الفرنج وقادتهم، ، وعرفت تلك المعركة باسم" وقعة الهنفري" نسبة لمقتله، ونجا ملك الفرنج الذي كان مشاركاً في المعركة بأعجوبة من الموت وقتل حصانه، ومن حوله من الفرسان. ابن الأثير : الكامل، ج11، ص452، 453؛ أبو شامة : الروضتين، ج3، ص20، 21.

(3) مرج عيون : بعد وقعة الهنفري خرج الملك بلدوين الرابع لمواجهة صلاح الدين، الذي كان قد أرسل جماعة من العسكر مع جالبي الميرة فهاجمهم الفرنج، فأرسلوا إلى صلاح الدين يعلمونه بالخبر، فخرج لملاقاتهم وأوشك الفرنج على الانتصار في بداية المعركة؛ لكن المسلمين ثبتوا أمامهم واضطر الفرنج للتراجع، وهزموا هزيمة شديدة وتعرضت أعداد كبيرة منهم للقتل أو الأسر، وكان من بينهم عدد من كبار قادة الفرنج وزعمائهم منهم : ابن بارزان صاحب الرملة ونابلس، وأخو صاحب جبيل، وصاحب طبرية، وصاحب جنين، ومقدم الداوية، ومقدم الإسبتارية. ابن شاهنشاه : المضمار، ص17؛ ابن كثير : البداية والنهاية، ج12، ص302.

(4) في اليوم الذي كسرت فيه الفرنج بموقعة مرج عيون ظفر الأسطول المصري ببطسة كبيرة، فاستولى عليها وعلى أخرى، وعاد إلى الثغر مستصحباً معه ألف رأس من السبي. أبو شامة : الروضتين، ج3، ص29.

(5) ابن بارزان : هو الاسم الذي أطلقه العرب على الأمير باليان الثاني دي إيلين، زوج الملكة ماريا كومنين. الداوداري : كنز الدرر وجامع الغرر، ج7، ص84؛عاشور : الحركة الصليبية، ج2، ص812.

قال : وكانت الأساطيل المنصورة قد تضاعفت عِدَّتُها إلى أن بلغت ستين شينياً[1]، وعشرين طريدة، فسارَتِ الشَّواني خاصَّةً، فدخلت البلاد الرُّومية، ودوَّخَت السَّواحل الفرنجية، وأسرت ألف عِلجٍ أحضرتهم أسرى في قيد الإسار، وقتلت الرِّفاق الكبار، وغَنِمَتْ من هذه الغَزْوة أقوامٌ كانت أعينهم لا تعرفُ عين الدِّرْهم، ولا وَجْهَ الدِّينار.

(1) الشواني : جمع شيني أو شينية، وهي سفن حربية كبيرة، وكانت أكثر السفن استعمالاً في مصر. البقلي : التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، ص 207.

كتاب رقم(56)[1]

وصف حصن بيت الأحزان وتخريبه 575هـ/1179م [2]

أرسلَ صلاحُ الدين هذا الكتابَ بقلم الفاضل إلى الخليفةِ العباسيِّ الناصر لدين الله، وجاء فيه :

وقد عُرِّض حائِطُه إلى أن زاد على عَشرة أذرع، وقُطِعَتْ له عِظامُ الحجارة؛ كل فَصٍّ منها من سبع أذرع إلى ما فوقَها وما دونها، وعِدَّتُها تزيد على عشرين ألف حجر، لا يستقرُّ الحجرُ في مكانه، ولا يستقلُّ في بُنْيانه إلا بأربعة دنانير فما فوقها، وفيما بين الحائطين حَشْوٌ من الحجارة الصُّمِّ، المُرْغم بها أُنوف الجبالِ الشُّمِّ، وقد جُعلت تسقيتُه بالكِلْس الذي إذا أحاطت قَبْضَتُهُ بالحجر مازَجَه بمثل جِسْمه، وصاحبه بأوثق وأصلب من جِرْمِهِ، وأوعَزَ إلى خَصْمه من الحديد بألا يتعرَّضَ لِهَدْمه".

(وكانَ مبنياً على تلٍّ، وفيه صِهْريج[3]، لما فتح المسلمون الحِصْن رموا فيه ما يناهز ألف قتيل، ودابَّة محرقة بالنَّار، فما سدَّت عَرْصَتَه ولا ملأت حُفْرَتَهُ، وكان فيه نحو ألف زَرَدِيَّة، والمقاتلة ثمانون فارساً بغِلْمانهم، وخمسة عشر مقدَّماً للرِّجال، مع كل مقدَّمٍ خمسون رجلاً، هذا إلى الصُّنَّاع[4] ما بين بنَّاء ومعمار وحدَّاد ونجار وصَيْقَل[5] وسيوفي، وصُنَّاع أنواع الأسلحة. وكان به من أسرى المسلمين ما يزيد على مئة رجل، نُزِعَتِ القيود من أرجلهم وَجُعلت في أرجل الفرنج. وكانت فيه أقواتٌ لِعدَّة سنين، وأنواع اللحوم الطيبة والخبيثة فيها بلاغ ومتاعٌ إلى حين. ولما قوتل أول يوم هُجِمَ حَوْشُه وفيه جماعةٌ من المقاتلة، فَضُرِبَتْ رِقابُهم، وأُخذت دوابُّهم، وفي الحال علقت النقوب على خمس جهات، وَحُشِيَتْ بالنِّيران، وتأخَّر وقوعُ الجدرانِ لفرطِ عَرْض البُنْيان، ولم تزلْ النَّار توقَد، ثم تخرج، ثم تُشْعل، ثم تُخْمد إلى أن تمكَّنَتِ النقوبُ، وحُشيت بالأحطاب، وأُطلقت فيها النِّيران في يوم الخميس، فيومئذٍ وَقَعَتِ الواقعة، وانشقَّت الأَبْرجة فهي يومئذٍ واهية، وملك المسلمون الحِصْنَ بما فيه ومَنْ فيه، واشتعلت النِّيران في أرجائه ونواحيه)[6].

---

(1) أبو شامة : الروضتين، ج3، ص 42-44 (أ)؛ ابن واصل : مفرج الكروب، ج2، ص84، 85 (ج).

(2) حصن بيت الأحزان : بلد يقع بين دمشق والساحل، سمي بذلك لأنهم زعموا أنه كان مسكن يعقوب عليه السلام أيام فراقه يوسف عليه السلام، كان الفرنج قد عمروا حصن بيت الأحزان في مدة مقام الملك الناصر على بعلبك واشتغاله بأمرها؛ فبنوه على مخاضة بيت الأحزان، وبينه وبين صفد وطبرية نصف يوم. وكان في بنائه ضرر عظيم على المسلمين، فبذل لهم الملك الناصر في هدمه مائة ألف دينار فأبوا ذلك، فقرر المسير إليه في التاسع عشر من ربيع الأخرة 575هـ/ أغسطس1179م. النويري : نهاية الأرب، ج28، ص264.

(3) الصهريج : حوض كبير للماء. المعجم الوسيط، ج1، ص 527.

(4) هذا دليل على أن حصون الفرنج كانت مجهزة تماماً بما في ذلك الصناع من البناءين والحدادين والنجارين ووصانعي السيوف.

(5) الصيقل : شحَّاذ السيوف وجلاَّؤها. وجمعها صياقل أو صياقلة. ابن منظور : لسان العرب، ج3، ص 2473.

(6) زيادة في أ.

(وكان الطاغية مُقَدَّم الحصن يشاهد ما حَلَّ بِبُنْيانه، وما نَزَلَ من البلاء بأصحابه وأعوانه. ولما وصلت النَّار إلى جهته ألقى نَفْسَه في خندقِ نارٍ صابراً على حَرِّها، ففي الحال نقلته هذه النَّار إلى تلك النَّار. ولما أُخذَ أُسارى الإفرنج، وهم عِدَّةٌ تزيدُ على سبعمائة بعد المقتولين، وما تقصر عِدَّتُهم عن مثلها، توفَّرتِ الهِمَّة على هَدْم هذا الحصن، وتعفية أثره، وإزالة ضَرره، فألحقت أعاليه بقواعده، وصارَ أثراً بعد عَيْنٍ مُشاهده، هذا، والفرنج مجتمعون في طَبَرِيَّة يشاهدون الأمر عِياناً، وينظرون إلى الحِصْن قد مُلِيء نيراناً، وارتفع دُخَّاناً. وسارت العساكر إلى أعمال صيدا وبيروت وصور، فانْثَنتْ مُغيرة، فاستثارت كُلَّ غامضة، ووصلت إلى كل ذخيرة، وصارت بلاد الفرنج لا يسكن منها إلا كل قلعة أو مدينة، ولا يقيم فيها إلا مَنْ نَفْسُه لشدَّة الخوف معتقلة في نَفْسه أو مشحونة)[1].

وباتَ النَّاسُ في ليلة الجُمُعة مُطيفينَ بالحِصْن والنَّار به مُطيفة، وعليه مُشْتَمِلة، وعَذَباتُ ألسنتها على تاجه مُنْسَدِلة[2]، ومن خَلْفِهِ مُسْبَلة[3]، ونارهم قد أطفأها الله بتلك النار الواقدة، ومَنَعَتُهُمْ قد أذهبها الله بتلك الأبرجة السَّاجدة، وَبَنَفْسَجُ الظَّلْماء قد استحالَ جُلَّناراً، والشَّفَقُ قد عمَّ الليلة فلم يختصَّ آصالاً ولا أسحاراً. ونفحاتها حميميَّة وَقُودُها النَّاس والحجارة، والبلاء ينادي بلسان مُصابها : إياكِ أعني واسمعي يا جارة. فولجت النَّارُ موالجَ[4] تضيق منها الفِكَر، وتعجَزُ عنها الإِبَرُ، ونَقَلَتِ النبأَ من العين إلى الأَثر، وقال الكُفْر : إنها لأحدى الكُبَر. وخُولِفَ المَثَل : إنَّ السَّعادَةَ لتلحظُ الحجر.

وأغنى ضوؤها لسانَ كلِّ إمَّعة أن يسألَ هذا وهذا : ما الخَبَر، وَقَذَفَتْ بِشَرَرٍ كالجمالات الصُّفْرِ[5]، وزَفَرَت بغيظٍ تعَفَّر له خدودُ الجبال الصُّعْر، وتلحقها بالكُثُبِ العُفْر. وبات الليل والنَّهار (يشُلُّه)[6]، وكلما أغمده الخمودُ جعل الوقود يَسُلُّه، إلى أن بدا الصَّباح كأنَّه منها امتار الأنوار، وانشقَّ الشَّرْقُ ومن عُصْفُرها صَبَغَ الإزار، فحينئذٍ تقدَّم الخادم، فاقتلع (بيده)[7] الأحجارَ من أُسِّها[8]، ومحا حروفَ البُنْيان من طِرْسِها، وتَبِعَهُ الجيشُ ورفاقه، وكافَّة من اشتمل عليه نِطاقُه.

---

(1) زيادة في أ.

(2) منسدلة : مسترسلة. ابن منظور : اللسان، ج2، ص1976.

(3) مسبلة : مرسلة. ابن منظور : اللسان، ج2، ص 1930.

(4) موالج : جمع مَوْلَج، وهي المداخل. ابن منظور : اللسان، ج5، ص4912.

(5) اقتباس من قوله تعالى : "إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ، كَأَنَّهُ جِمَالاتٌ صُفْرٌ". سورة المرسلات، آية 32و33.

(6) ج : يثله.

(7) أ : شدُّه.

(8) أسها : المقصود بها أساس البناء. المعجم الوسيط : ج1، ص17.

كتاب رقم (57)[1]
غزوة بحرية سنة 575هـ/1179م

أرسل صلاح الدين هذا الكتاب بقلم الفاضل إلى الخليفة العباسي الناصر لدين الله، وجاء فيه :

تأخَّر فلانٌ لضروراتٍ، منها أمراضٌ كانت قد عمَّت بها البَلْوى، وكَثُرَتْ بها الشَّكْوى، وكان أكثرها خاصاً بالعائدين من العساكر من نوبة فتح الحصن[2]. وكان خادما المجلس السَّامي ابن أخيه تقي الدين[3]، وابن عمه ناصر الدين[4] قد جهدا وأُثخنا، وبلغا حدَّ اليأس وامتُحنا، وكادا يَسْقُطان من ضمير المَنَى، فَمَنَّ الله تعالى بالشِّفا، وهذه البُشْرى بفتح الحِصْن، وإن كانت شريفةً مواقِفُها، عامَّةً منافِعُها، فقد تجدَّدت بعدها بشارةٌ طلعت بِشَارَةٍ رائقةٍ، وجاءت في مكان الرَّديف لأُخرى، لا فَرْقَ بينهما إلا أَنَّ تلك سابقة وهذه لاحقة؛ وذلك أن الأسطول المِصْري غزا غزوةً أخرى غير الأُولى، وتوجَّه عن السَّواحل الإسلامية مرة أُخرى، مَنَّ الله فيها مِنَّةً أخرى. وكانت عِدَّته في هذه السَّنة قد أُضعفت وقُوِّيت، واستفرغت فيها عزائم الجهاد واستقصيت، واحتلت به[5] الرجال الذين يعملون في البحر، ويفتكون في البر، ومن هو معروفٌ من المغاربة لغزو بلاد الكُفْر، فسارت على سوارٍ هي كنائن، إلا أنها تمرق مروقَ السِّهام، ورواكد هي مدائن إلا أنها تمرُّ مَرَّ السحابِ غيرِ الجَهَام[6]، فلا أعجب منها تسمَّى غُرباناً، وتنشُرُ من ضُلوعها أجنحة الحَمَام، وتُسمَّى جواري وكم مُبشِّر مُجْريهَا من النصر بِغُلام. وطوقت في الأحد حادي عشر جُمادى الأُولى ميناء عَكَّا، وهي قُسْطنطينية الفرنج، ودار كُفْرهم، أبدلها الله من الكُفر إسلاماً، وخلَعَ عنها الشِّرْك البالي، وخَلَعَ عليها من التوحيد أعلاماً. وكانت مفروسة فأصبحت مفترسة، وباتت جميع الفرنج محترسة وغدت مترسة، فما هي إلا أن حُذفت والجةً على الميناء، وفيه المراكبُ والبضائع، فاستولت على عِدَّةٍ من المراكب تحطيماً وتكسيراً، ونطاحاً يُقَلْقِلُ ولو كان ثَبِيراً[7]، وأخلَتْ ساحل الفرنج بقتالها، وباشرت مثل الماء بنزولها ونِزَالها، وهذا مما لم يُعهد من

---

(1) أبو شامة، الروضتين، ج3، ص 44-46.

(2) يقصد فتح حصن بيت الأحزان سنة 575هـ/1179م.

(3) تقي الدين : ألملك المظفر تقي الدين عمر ابن الأمير نور الدولة شاهنشاه بن أيوب بن شاذي صاحب حماة، كان بطلاً شجاعاً مقداماً جواداً ممدحاً، له مواقف مشهودة مع عمه السلطان صلاح الدين وكان قد إستنابه على مصر، وله وقوف بمصر والفيوم، وسمع من السلفي وابن عوف وروى شيئا من شعره. الذهبي : سير الأعلام، ج21، ص202.

(4) ناصر الدين : هو ناصر الدين محمد بن شيركوه، ابن عم صلاح الدين وزوج أخته ست الشام بنت أيوب، توفي بحمص سنة 581هـ/ 1185 م، وتولى بعده ابنه أسد الدين شيركوه بأمر من صلاح الدين. ابن خلكان: وفيات الاعيان، ج2، ص480.

(5) احتلت به : أي نزلت به. معجم متن اللغة، ج2، ص151.

(6) الجَهَام : السحاب الذي لا ماء فيه. المعجم الوسيط : ج1، ص144.

(7) ثبيرًا : هلاكاً. المعجم الوسيط : ج1، ص93.

الأُسطول الإسلامي مثلُه في سالف الدَّهْر، لا في حالة قوَّةِ إسلامٍ ولا ضُعْفِ كُفْرٍ، ومما سبيله أن تُطَرَّزَ السِّيَرُ الكريمة بفخره، كما طرَّز الله الصحيفةَ الشَّريفة بأَجْره. وقُتل على قلعة عكا ثلاثة نفرٍ بأليم السِّهام، أبعد ما كانوا وقفوا عنها، وآمن ما كانوا منها، فصرعتهم الأيدي والأفواه، وخرُّوا سُجَّداً على الجباه، سجوداً لا يرفعون منه الرُّؤوس، ولا ينتقلون منه إلى حالةِ الجلوس، ولا يرفع فيما يرفع لهم من علم، ولا لهم فيه من قِبْلَةٍ ولا لهم به من قِبَل. وأقامت المراكب يومين تقابلها وتقاتلها وتُناضلها.

كتاب رقم (58)[1]

دوافع توقيع الهدنة مع الفرنج سنة 576هـ/1178م[2]

أرسل صلاح الدين هذه الرسالة بقلم الفاضل إلى الخليفة العباسي الناصر لدين الله، وجاء فيها :

وقد علم الله أنَّا لهِدْنَتِهِمْ كارهون، وفي مصلحة أهل الإسلام وفي مصالحهم راغبون، ولكِنَّا قد بُلينا بقومٍ كالفَرَاش أو أخفّ عُقُولاً، وكالأنعام أو أَضَل سبيلاً، إن بُنيَ معهم فعلى غير أساس، وإن عُدِّد الغَدْرُ منهم فهو أكثر من الأنفاس[3].

(1) أبو شامة، الروضتين، ج3، ص 85.

(2) هاجم صلاح الدين الأيوبي طبرية وأعمالها والمناطق المحيطة ببانياس، ومكث فيها مع عسكره، فخشي ملك الفرنج من وجود صلاح الدين في منطقة طبرية وإغارته عليها وعلى ما حولها، فأرسل الملك وفداً إلى صلاح الدين يعرض عليه الهدنة، فعقدت الهدنة بين الطرفين، وشملت البر والبحر، والأجانب والمقيمين، وتم تبادل الأيمان بينهما على تلك الشروط، وكانت تلك الهدنة مؤقتة ومدتها المتفق عليها عاماً. الصوري، الحروب، ج4، ص 254

وقد أشارت المصادر الإسلامية إلى هذه الهدنة. ينظر أبو شامة : الروضتين، ج4، ص54.

(3) يرجع توقيع صلاح الدين لهذه الهدنة حاجته إليها لتنظيم أوراقه في الشام واستكمال مشروعه في ضم ما تبقى من بلاد الشام والجزيرة تحت إمرته في مواجهة الفرنج، هذا إضافة إلى رغبته في العودة إلى مصر للاطمئنان على أحوالها وتنظيم شئونها. حول مجمل أسباب توقيع هذه الهدنة ينظر عطية : إمارة أنطاكية، ص195؛ نوري، سياسة صلاح الدين، ص174، 175؛ رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص679.

كتاب رقم (59)[1]

الغارةُ على حصني الكرك[2] و طبرية سنة 578هـ/1183م [3]

أرسلَ صلاحُ الدين هذا الكتابَ بقلم الفاضل إلى الخليفة العباسي الناصر لدين الله ، وجاء فيه:

(كان الخادم طالع بخروجه من مصر طالباً للغَزَاة المفروضة، والمسافةُ بين مصر والشام لمن يَرْفُقُ في المسير لا تقصر عن ثلاثين يوماً، فحشد الفرنج، ونزلوا بالكَرَك على إرْجافٍ بالمصافّ، ولم يَزَل الخادم على مداومة الإعمال إلى أوساط الأعمال[4]، فَحَلَّ بها وشنَّ الغارة فأبعد، وأذكى النَّار فأَوْقد، وطلبَ الماء المحميَّ أَزْرَقُه بأَزْرقهم[5] فَأَوْرَد، وسَفَكَ دم الخِصْبِ بالنَّار، وأخذ فيها عدلُ السَّيْف الجار بالجار، وعلم أَنَّ الفرنج قد تسلّلوا لواذاً[6]، وتعلَّلوا بالحصون احتجازاً ولياذاً، وأنهم لا يقاتلون إلا في قُرىً محصَّنة، ولا يقاتلون إلى على نجاةٍ متيقَّنة)[7]، وسرَّح الخادم إلى تلك الذَّراري، واستنفر لها من كلِّ فِرْقَةٍ منهم طائفة، وساروا في طريقٍ على العدو (غير خافية، ومنهم غير خائفة)[8]، وركب هو وحَمِيَّةُ الإسلام الحامية[9]، التي تستنهضُ أرواح الكُفْرِ إلى نار الله الحامِيَّة، وسلك البلاد المؤدية أوديتُها إلى سيول الشرك الطَّامية، وسيوف الضَّلال الدامية، فجثموا[10] جثوم الكسير، وجَدَعوا[11] أنوف الأُنُفِ جَدْعاً قَصَّرَ فيه رأي قصير[12]. وجاز الخادم

(1) أبو شامة، الروضتين، ج3، ص 107-110 (أ)؛ مكاتبات من الترسل : ص 111 (هـ).

(2) الغارة على حصن الكرك : خرج صلاح الدين من مصر في الخامس من محرم سنة 578هـ(مايو/ 1182م)، وبعد خروجه بخمسة أيام وصل إلى العقبة، وكان الفرنج قد قرروا بقطع طريقه فاجتمعوا في حصن الكرك، فلما قارب صلاح الدين بلادهم سير من معه من العامة والضعفاء والتجار ممن خرجوا معه من مصر مع أخيه تاج الملوك بوري إلى دمشق وبقي هو في عسكره، وأغار بهم على أطراف العدو خاصة الكرك، فلم يخرج إليه أحد ثم سار حتى وصل دمشق في صفر 578هـ (يونيو/1182م).ابن شاهنشاه : المضمار، ص94؛ ابن شداد : النوادر، ص 125.

(3) طبرية : مدينة تقع في الشمال الغربي من فلسطين على شاطئ بحيرة طبرية الغربي، سميت باسم طيباروس نسبة للإمبراطور الروماني، وكانت تقع على طريق القوافل بين دمشق ومصر. شراب : معجم بلدان فلسطين، ص 498.

(4) الأعمال : مفردها عمل وهو الولاية أو المركز. المعجم الوسيط، ج 2، ص 628.

(5) الأزرق : هي السنان وتُسمى زُرقاً للونها. الزبيدي : تاج العروس، ج25، ص395.

(6) لواذاً : أي لجؤوا إليه واحتموا به.ابن منظور : اللسان، ج5، ص4097.

(7) زيادة في أ.

(8) زيادة في أ.

(9) الحامية : الجماعة من الجيش التي تحمي البلد. المعجم الوسيط، ج1، ص201.

(10) جثموا : لزموا أماكنهم. المعجم الوسيط : ج1، ص111.

(11) جدعوا : قطعوا.المعجم الوسيط : ج1، ص115.

(12) قصير هو ابن سعد اللخمي صاحب جذيمة الأبرش، ومنه المثل : "لا يطاع لقصير أمر" وهو مثل يُضرب في اتهام النصيح. العسكري : جمهرة الأمثال، ج2، ص394.

المسافة المقابلة لهم التي كانت تُجازُ في يومٍ واحد في أيام، (وأورد)[1] عليهم طيفَ الخوف غير لابسٍ ثياب الأحلام، ويَسَّر الله الوصول، ورقاب عُصْبة الكُفْر تكاد تتوثب عليها رِقاقُها، وعيون الأعيان منهم قد قَيَّدَها للذُّلِّ (إطراقُها)[2] (وكانت العساكر الشامية قد استدعت فسمعت لدعوته، ولبت واستقدمت، فأقامت بعقوبة، وألبت فطوى دمشق طي الجائز وطلب العدو طلب المناجز)[3].

وتوجَّه يوم الاثنين سابع شهر ربيع الأَوَّل، (بعد أن ترفعت غزوته عن الفلول في حال من أحوالها وأنفت عن الاختلاس، وإن كان الخدعة في الحرب لا ضيق في مجالها ومنها، ولم يبق إلا أن يهجمَ للخروج، ويُخرجَهم الهياج، ويدعهم محصورين ويسلكَ الفتوح بالإسلامِ واسع الفجاج)[4] ونَزَل أمام (طبرية)[5] ليلة (الثلاثاء)[6] (تاسع عشر ربيع الأول، فجاءه الخبر بأنَّ الفرنج رحلوا في ليلٍ ركبوه جَمَلاً، ولَبِسُوه سِتْراً دون اللِّقاء مُسْبلاً، وأصبحت الأطلابُ الإسلامية طالبةً الأُرْدُنّ)[7]، (وأشرف عليهم المملوك فَرُّخْشاه، وكان على ميسرة الإسلام، فما خرج منهم من أخرج كفّاً، ولا تطرَّف منهم من أَجال طَرْفاً، ولا ركَّض طِرْفاً[8]، ولم يَزَل الخادم مقيماً ينادي للخروج الصُّمَّ الذين لا يسمعون الدُّعاء، إلى أن طوى النَّهار مُلاءَتَهُ، وَمدَّ عليهم كِلاءته[9]، فإنَّه رعى ما بينه وبين مناسبةِ وجوههم وصحائفهم بسواده، ولأنَّ اللَّيلَ يُدْعى كافراً فهداهم وخبأهم في فؤاده، وانبرى لهم من المماليك ذووا سهام، كلُّ رمية منها طَعْنة، وكلُّ أَنَّةٍ من قَوْسها تُجاوبها للحَيْنِ أَنَّة، فاستخرجوا ضمائرَ كنائنهم، وقصدوا بها ضمائر ضغائنهم، فمرَّت كأن التوفيق يَقُودُها إلى حيث أَمَّتْ فأماتتْ، وطارتْ جَرَاداً ترعى زَرْعَ الحياةِ فَبَتَّتْ وما أباتتْ، ولم يروا مضاجِعَ ذوات حَسَكٍ كمضاجعَ حَسَكُها السِّهام، ولا ليلةَ هَمٍّ ذات أحلام كليلةٍ حُلْمُها يقظةُ الحِمام، وأصابَتْ خيولَهم صوائِبُها، وتعلَّقت نِصالُهم بِدُهْمها، فكأنهم في ظُلُماتِها كواكِبُها، فلما انشقَّ الصُّبْحُ غَيْظاً من شِقاق كُفْرهم، شوهدوا نازلين من حِصْنهم الذي كانوا إليه آوين، وطالبي التباعد عنه إلى حِصْن الطُّور الذي كانوا إليه ناوين، فساقتْ إليهم أطلابُ المَيْسرةِ صُحْبة المملوك فُرُّخشاه. وساقَ المملوكُ عمرُ[10] من الميمنة

(1) هـ : ووافد.

(2) هـ : أطواقها.

(3) زيادة في هـ.

(4) زيادة في هـ.

(5) هـ : بيسان.

(6) هـ : الأربعاء.

(7) زيادة في أ.

(8) طِرفاً : هو الخيل الكريم العتيق. ابن منظور : اللسان، ج 3، ص 2657 .

(9) كلاءته : حفظه وحراسته. جمهرة اللغة، ج2، ص1083.

(10) يقصد تقي الدين عمر بن شاهنشاه أخو فرخشاه وابن أخي صلاح الدين.

طالباً لِحَوْمَةِ القتال، فرأَوْا الخُطَّة عليهم متضايقة، وشهادات البلاء إلى فئتهم متناسقة، وأنزل الله النَّصْرَ من سمائه على مطيعه في أَرْضه، ومنح نافلة الموهبة لمن قام في الجهاد بِفَرْضه. وتَوَالتْ من الفرنج حملاتٌ ألجأهم إليها الاضطرار لا الاختيار، وثَبَتَ من دنا منهم من المسلمين من الأطلاب، ولقوهم وَهُمُ الأعداء لقاءَ الأحباب، وتعانقت لغير الوداد فصارت أيديها أوشِحَة، وطارت إلى أقرانها فصارت أَرْجُلُ الخيلِ أجنِحَة، وصُرِعَتْ للفرنج أبطالٌ وخَيَّالة، وتمَّت الحَمْلة الإسلامية على من كان وراءهم من الرَّجَّالة، فأخذ القَتْلُ كثيراً وقليلاً تُرِك، وفَرَّ روح الكافر من الجَسَد، وعلمت النار أَنَّه سلك)[1]، وألجأهم البلاء إلى حِصْنٍ يعرف بِعَفْرَبَلا[2]، وَسَّع الخَوْفُ عليهم ما ضَيِّق، وتعلَّق بالحياة منهم مَنْ هو به متعلِّق، ولم تتصرف صدورُ الخيل دون أنِ اعتقلتهم في سِجْنه، وألزمتهم به فصاروا قُرْطاً في أُذْنه، (وكان اليوم من الأيام التي اضطرمت فيها نيرانُ الجحيم، ارتياحاً لمن قَدِمَها من أرْواح الكُفَّار. وكان قائم الظَّهيرة في الغَوْر قد مَنَعَ من استتمام عَوْدَةِ المُغَار، وموردِ الماء بعيدٌ من غريمه، والرِّيُّ –ولو أنه من حميم– أَحَبُّ إلى المرء من حميمه، فمالت الجنودُ إلى المناهل متفرِّقة عليها، ومتصرفةً إليها، وحافَّةً بها من حواليها، وأَذْعَنَ الكُفَّارُ بالحَصْرِ والتفادي من الإصحار، والاعتماد على المطاولة والاضّجار، والاستعصام بما لا يطاق من أنفاس الهجير الحِرَار)[3].

وبات الخادمُ والمسلمون على الحِصْنِ المذكور[4] الذي باتوا به نازلين، قد حقَّقُوا من أحوال اللِّقاء ما كانوا به جاهلين، (وفعل الله سبحانه وتعالى ﴿لاَ يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الذين كَفَرُوا في البلاد ﴾[5] وأَنَّ الكُفْرَ مُذْ قام قائِمُهُ، والشَّام مذ حَلَّه ظالمه، لم يَعْبُرْ أحدٌ من ولاة الأمر هذا الحدَّ إلا على حين غَفْلَةٍ من أهله، ولم يواجه الكُفْرَ وهو مجتمعٌ في خَيْلِهِ فَصْلاً عن رَجْله، ولم يهدِّدِ العدوُّ بضرب مصافٍّ إلا واستكانت العزائم لتهديده، ولم يُجْمِعْ أمره على اللِّقاء إلا صرفَهُ عنه الآمر بصرفه بذهبه لا بحديده، فأما الآن فقد أَنِسَ المسلمون بحزبِهم، وتمرَّنُوا بحربه)[6].

---

(1) زيادة في أ.

(2) عفربلا : بلد بغور الأردن قرب بيسان وطبرية.ياقوت : معجم البلدان، ج4، ص148.

(3) زيادة في أ.

(4) يقصد به حصن الكرك.

(5) سورة آل عمران : آية 196.

(6) زيادة في أ.

كتاب رقم (60)[1]

سيطرة الأسطول المصري على بُطسة بيزنطية سنة 578هـ/1183م

أرسل صلاح الدين هذا الكتاب بقلم الفاضل إلى الخليفة العباسي الناصر لدين الله، وجاء فيه :

وكان الخادم طالع بوصول الأسطول المِصْري إلى الشام الفرنجي، وما فعله في موانيه وسواحله، وما غنمه من مراكبه وقوافله، وورد كتابٌ من مِصْر بأنه كَسَبَ بُطْسة فرنجية، خرج مَنْ فيها هارباً من القُسْطَنْطِينيةَ لفتنةٍ وقعت فيها بين رومها وفرنجها[2]، فَقُتِلَ منهم خمسون ألف فرنجي[3]، وأُفلتت منهم بَطسٌ منها هذه البُطْسة، وفيها رجال أكابر، ومقدَّمون لهم فيها ذكر سائر، وغَنِمَ المجاهدون منهم ما ملأ أيديهم من سبي وذخائر، وانقلبوا بنعمةٍ مِنَ اللهِ وفَضْل[4]، وحازت القَبْضَةُ من الأسارى ما يزيد على أربع مئةٍ بعد من دَرَجَ بالقَتْلِ.

(1) أبو شامة : الروضتين، ج3، ص122.

(2) يقصد الصراع الذي دار بين الأمبراطورة ماري زوجة مانويل كومنين التي تولت الوصاية على ابنها الكسيس كومنين في الفترة (1180– 1182م) بعد وفاة الإمبراطور وبين الساخطين عليها من الأمراء البيزنطيين الذين اعتبروها إمرأة أجنبية حيث أنها سليلة البيت الصليبي الذي أسس إمارة أنطاكية وعملت على التمكين لأهلها من اللاتين من سكان أنطاكية في الدولة البيزنطية فوقعت فتن وحروب بين البيزنطيين واللاتين، انتهت بمقتل الإمبراطورة ماري 578هـ/1183م، والقضاء على النفوذ اللاتيني في القسطنطينية. الشيخ : تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، ص .

(3) تدلل هذا الرسالة على إطلاع صلاح الدين على الأوضاع الداخلية في الدولة البيزنطية وامتلاكه أدق التفاصيل عن التطورات هناك.

(4) اقتباس من قوله تعالى : "فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ" سورة آل عمران : آية 174.

كتب حول مهاجمة أرناط[1] للمدينة المنورة وتصدي المسلمين له سنة 578هـ/1183م [2]
كتاب رقم (61)[3]

أرسل صلاح الدين هذا الكتاب بقلم الفاضل إلى أخيه العادل ملك مصر، وجاء فيه :

وصل كتابه المؤرَّخ بخامس ذي القَعْدَة المُسْفِر عن المسفر من الأخبار، المتبسم عن المتبسِّم من الآثار، وهي نِعْمةٌ تضمَّنت نِعَماً، ونُصْرة جعلت الحرم حرماً، وكفايةٌ ما كان الله ليؤخِّر معجزة نبيِّه ﷺ بتأخيرها، وعجيبةٌ من عجائب البحر التي تحدَّث عن تسييرها وتسخيرها، وما كان الحاجب لؤلؤ[4] فيها إلا سَهْماً أصاب وَحُمِدَ مُسَدِّده، وسَيْفاً قَطَعَ وشُكِرَ مجرِّده، ورسولاً عليه البلاغ وإن لم يُجْهل ما أَثَّرَتْهُ يَدُه، وقد غَبَطْناه بأَجْر جهاده ونُجْح اجتهاده. رَكِبَ السَّبيلين برَّاً وبحراً، وامتطى السَّابقين مركباً وظَهْراً، وخطا فأوسع الخطو، وغزا فأنْجح الغزو، وحَبَّذا العِنان الذي في هذه الغزوة أُطْلق، والمال الذي في هذه الكرَّة أُنفق، وهؤلاء الأسارى فقد ظهروا على عَوْرة الإسلام وكشفوها، وتطرقوا بلاد القِبْلة وتطوَّفوها، ولو جرى في ذلك سبب –والعياذ بالله– لضاقت الأعذار إلى الله والخَلْق، وانطلقت الأَلْسُن بالمَذمَّة[5] في الغَرْب والشَّرق، ولا بدَّ من تطهير الأرض من أرجاسهم، والهواء من أنفاسهم، بحيث لا يعود منهم مُخْبِرٌ يدلُّ الكُفَّار على عَوْرات المسلمين، وإن هذا العدد القليل قد نال ذلك المَنَال الجليل، وهذا مَقَامٌ، إن روعي فيه

---

(1) أرناط : هو ريجنال دي شاتيون، حاكم الكرك، وكان نور الدين قد أسره سنة 455هـ/1063م حتى 572هـ/1176م، تزوج أرناط أرملة الحاكم السابق لحصن الكرك وتدعى كونستانس، اشتهر بالغدر والخيانة، وعدم الوفاء للعهود والوعود، وكان يميل إلى إشعال نار الحرب ضد المسلمين. الشامي : صلاح الدين والصليبيون، ص 123.

(2) عجز أرناط عن ايصال الأذى بالمسلمين في البر، فبنى سفناً وحملها على الجمال من الكرك إلى أيلة وقام بتجميعها هناك، ثم قسمها إلى فرقتين، إحداهما لمحاصرة حصن أيلة وهو للمسلمين، والأخرى أرسلها في بحر القلزم، فهاجموا السواحل ونهبوا وفاجؤوا الناس في تلك النواحي، وتوصلت أذيتهم إلى عيذاب، فخاف أهل المدينة من شرهم، كما اعترضوا المراكب الإسلامية وأسروا من فيها من التجار ونهبوا بضائعها، فأمر الملك العادل حسام الدين لؤلؤ صاحب الأسطول، أن يعمل مراكبه في البحر ويقاتل أرناط وأصحابه، فابتدأ بالمحاصرين لحصن أيلة فقتل بعضهم، وأسر الباقي، ثم لاحق الفرقة الثانية فأدركهم بساحل الجوزاء في طريقهم إلى المدينة المنورة، ، فأخذ خيلاً من سكان تلك الناحية ولاحقهم واشتبك معهم، فقتل أكثرهم، وأسر الباقي، وأرسل بعضهم إلى منى لنحرهم هناك، ليكونوا عبرة لغيرهم. ابن الأثير : الكامل، ج11، ص490، 491؛ أبو شامة : الروضتين، ج3، ص133– 135.

(3) أبو شامة، الروضتين، ج3، ص 136، 137.

(4) الحاجب لؤلؤ : هو حسام الدين لؤلؤ، متولي الأسطول بمصر، كان شهماً وشجاعاً، مقداماً ميمون النقيبة، خبيراً بقتال البحر. النويري : نهاية الأرب، ج28، ص282.

(5) المذمة : الملامة. ابن منظور : اللسان، ج2، ص1516.

حراسة الظَّاهر، والوفاء للكافر، حَدَث الفَتْقُ[1] الذي لا يُمْكِن في كلِّ الأوقاتِ سَدُّه ورَتْقُه، ولُدغَ المؤمن مرَّتين والأُولى تكفي لمن له في النَّظَر تفقُّه.

كتاب رقم (62)[2]

أرسل صلاح الدين هذا الكتاب بقلم الفاضل إلي الخليفة العباسي الناصر لدين الله، وجاء فيه :

وسارتِ المراكبُ الإسلامية طالبةً شوكة المراكب الحربيَّة المتعرِّضة للمراكب الحجازية واليمنية. وكانت مراكبُ العدو قد أوغلت في البحر، وَدَلَّها على عورات الساحلين من العربِ مَنْ أشبه ركَّابها في الكُفْر، فوصلت إلى عَيْذَاب[3]، فلم تنل منها مُراداً، غير أَنَّ ما وجدته في طريقها أو فُرْضَة[4] عَيْذَاب نالتْ منه، وشعثت[5] وأفسدت فيه، وعَتَتْ وتمادت في السَّاحل الحجازي إلى رابغ إلى سواحل الحَوْراء[6]، وهناك وقع عليها أصحابُنا، وأوقعوا بها أشدَّ إيقاع، وأخذوا المراكب الفرنجية على حكم البِدار والإسراع، وفَرَّ فرنجها إلى السَّاحل، فركب أصحابنا وراءهم خيول العُربان التي وجدوها، وأخذوا الكفار من شِعابٍ وجبالٍ اعتصموا بها وقصدوها، وكُفي المسلمون أشدَّ فسادٍ في أرضهم، وأقطع قاطعٍ لفَرْضهم، وانبسطت أمالُهم بقبضهم، وعَمِيَتْ على الكُفَّار هذه الطريق التي لو كُشِفَ لهم غطاؤها قِدْماً، ولو أحاطوا بها عِلْماً، لاشتطَّت نكايتهم، واشتدَّت جنايتهم، وعَزَّ على قدماء ملوك مصر أن يصرعوا هذه الأقران، ويطفؤوا هذه النِّيران، ويركبوا غوارب اللُّجَج، ويُرْخِصوا غوالي المُهَج، ويقتنصوا هذا الطَّائر من جوِّه الذي لا يُدْركه لُوْحُه، ويُدْركوا هذا العدوَّ الذي لا يُدْرَك إلا أن يُنْجَدَ عليه ملائِكَةُ الله ورُوحهُ.

كتاب رقم (63)[7]

أرسل صلاحُ الدين هذا الكتابَ بقلم الفاضل إلى الملك العادل بمصر، وجاء فيه :

---

(1) الفتق : الشق . معجم متن اللغة، ج2، ص354.

(2) أبو شامة : الروضتين، ج3، ص138–139.

(3) عيذاب : بلدة على ضفة البحر الأحمر، وهي مرسى للمراكب القادمة من عدن إلى الصعيد. ياقوت : معجم البلدان، ج4، ص171.

(4) الفرضة : محط السفن. الزاوي : مختار القاموس، ص474.

(5) شعثت : تفرقت. ابن منظور : اللسان، ج2، ص160.

(6) الحوراء : مدينة على حدود بلاد الحجاز، وتقع شرقي البحر الأحمر. ياقوت : معجم البلدان، ج2، ص 363.

(7) أبو شامة : الروضتين، ج3، ص 139–140(أ)؛ ابن واصل : مفر ج الكروب، ج2، ص129– 131(ج).

كان الفرنجُ قد ركبوا من الأمر نُكْراً، وافتضُّوا من البحر بِكْراً، وعمروا مراكبَ (حربية)[1] شحنوها بالمقاتلةِ، والأسلحةِ، والأزوادِ، وضربوا بها سواحل اليمن والحجاز، وأثخنوا وأوغلوا في البلاد، واشتدَّت مخافةُ أهل تلك الجوانب، بل أهل القِبْلَة لما أَوْمَضَ إليهم من خَلَلِ العواقب، وما ظنَّ المسلمون إلا أنها السَّاعة، وقد نُشِرَ مطويُّ أشراطها، والدُّنيا قد طُوي منشورُ بساطها، وانْتُظِرَ غَضَبُ الله لفناء بيته المُحرَّم، ومقام خليله الأكرم، وتراث أنبيائه الأقدم، وضريح نبيه الأعظمﷺ، ورجوا أن تَشْحَذَ البصائرَ آيةٌ كآية هذا البيت، إذ قصده أصحابُ الفيل، ووكلوا إلى الله الأمر، وكان حَسْبَهم ونِعْمَ الوكيل.

وكان للفرنج مقصدان، أحدهما قلعة أَيْلَة التي هي على فوهة بحر الحجاز ومداخله، والآخر الخوض في هذا البحر الذي تجاوِرُه بلادُهم من (ساحله)[2]، وانقسموا (فريقين)[3]، وسلكوا طريقين، فأما الفريق الذي قصد قلعة أيْلَة، فإنَّه قَدَّرَ أن يمنعَ أهلَها من مَوْرِدِ الماء الذي به قِوام الحياة، (ويقاتِلُهم)[4] بنار العَطَش المَشْبُوبِ الشَّبَاة، وأما الفريق القاصد سواحل الحجاز واليمن، فقدَّر أن يمنع طريق الحاجّ عن حَجِّه، ويحول بينه وبين فَجِّه، ويأخذ تجار اليمن وأكارم عدن، ويلمّ بسواحل الحجاز، فيستبيحَ –والعياذ بالله– المحارم، ويَهِيْجَ جزيرة العرب بعظيمةٍ دونها العظائم.

وكان الأخ سيف الدين بمصر قد عَمَّر مراكب، وفَرَّقها على (الفريقين)[5]، وأمرها بأن تطوي وراءهم الشقتين. فأما السَّائرة إلى قلعة أَيْلَة، فإنها انقضَّتْ على مُرَابطي الماء انقضاضَ الجوارحِ على بنات الماء، وقذفتها قَذْفَ شُهُبِ السَّماء مسترقي سَمْعَ الظَّلْماء، فأخذتْ مراكبَ العدوِّ برمتها، وقتلت أكثر مقاتلتها، إلا من تعلَّق بهضبةٍ وما كاد، أو دخل في شِعْبٍ وما عاد، فإنَّ العُرْبان اقتصُّوا آثارَهم والتزموا إحضارهم، فلم يَنْجُ منهم إلا من ينهى عن المُعَاودة، ومن قد عَلِمَ أَنَّ السَّاعة واحدة.

وأما السائرةُ إلى بحر الحجاز، فتمادَتْ في الساحل الحجازي إلى رابغ سواحل الحَوْراء، فأخذتْ تُجَّاراً، وأخافت رِفاقاً، ودلَّها على (عَوْرات)[6] البلاد مِنَ الأعراب مَنْ هو أشدُّ كُفْراً ونفاقاً، وهناك وقع عليها أصحابُنا، وأُخذت المراكبُ بأسرها، وفَرَّ فرنُجها بعد إسلام المراكب، وسلكوا في

---

(1) ج : بحرية

(2) ج : سواحله.

(3) ج : فرقتين.

(4) ج : يقابلهم.

(5) ج : الفرقتين.

(6) ج : غوارب.

الجبال مهاوي المهالك، ومعاطن المعاطب[1]، وركب أصحابُنا وراءهم خيل العرب، يَشُلُّونهم شَلاً، ويقتنصونهم أَسْراً وقَتْلاً، وما زالوا يتبعونَهم خمسةَ أيامٍ خيلاً وَجْلاً، نهاراً وليلاً، حتى لم يَتْركواعنهم مُخبراً، ولم يُبْقوا لهم أثراً ﴿وسيْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إلى جَهَنَّمَ زُمَراً﴾[2] وقُيِّدَ منهم إلى مِصر مئة وسبعون (أُسَراً)[3].

(1) المعاطب : المهالك. ابن منظور : اللسان، ج3، ص2993.

(2) سورة الزمر : آية 71.

(3) ج : أسيراً.

كتاب رقم (64)[1]

تهنئة صلاح الدين للملك العادل بنصره وإصدار تعليماته بقتل المهاجمين للمدينة سنة 578هـ/1183م[2]

أرسل صلاح الدين هذا الكتاب بقلم الفاضل إلى أخيه العادل ملك مصر، وجاء فيه :

ونحن نُهنِّئ المجلس السَّامي بظفره، ولم لا نكمله؟ وبنَصْره، ولم لا نشكره شكراً نُعجِّلْه؟ وليس في قَتْلِ هؤلاء الكُفَّار مُرَاجعة، وللشَّرْعِ في إبقائهم فُسْحة، ولا في استبقاء واحد منهم مصلحة، ولا في التَّغاضي عنهم عند الله عُذْرٌ مقبول، ولا حُكْم اللهِ في أمثالهم عند أهل العلم بمشكلٍ ولا مجهول، فليمضِ العَزْمُ في قتلهم ليتناهى أمثالُهم عن فعلهم، وقد كانت عظيمة ما طُرِقَ الإسلام بمثلها، وقد أتى الله بعدها بلطيفة أجراها على يد من رآه من أهلها.

---

(1) أبو شامة، الروضتين، ج3، ص 137.

(2) أصدر صلاح الدين تعليماته لأخيه العادل ملك مصر بقتل الأسرى من الداوية المهاجمين للمدينة المنورة لما عُرفوا به من شدة البطش بالمسلمين وبسبب حُرمة المدينة المنورة.

كتاب رقم (65)[1]
تأكيد صلاح الدين على تعليماته بقتل المهاجمين للمدينة المنورة[2]

أرسل صلاح الدين هذا الكتاب بقلم الفاضل إلى أخيه العادل ملك مصر، وجاء فيه :

قد تكرَّر القول في معنى أسارى بحر الحجاز[3]، فلا تَذَر على الأرض من الكافرين ديَّاراً[4]، ولا توردهم بعد ماء البحر إلا ناراً، فأقلهم إذا بقي جنى الأمر الأصعب، ومتى لم تعجِّلِ الرَّاحة منهم وعَدَتِ العاقبةُ بالأشقِّ الأتعب.

---

(1) أبو شامة، الروضتين، ج3، ص 137-138.

(2) أرسل صلاح الدين لأخيه الملك العادل أمراً بقتل أسرى الفرنج الذين أخذوا غلى مصر، وذلك لأنهم اطلعوا على أخبار تلك النواحي وأسرارها، وخوفاً من نقل المعلومات إلى الفرنج إذا ما أفرج عنهم فيما بعد، لكن الرسائل المتكررة توحي بأن الملك العادل تردد في قتل اولئك الأسرى وتنفيذ الحكم عليهم، لكن بعد تكرار الرسائل تم قتل جميع أولئك الأسرى. ابن الأثير : الكامل، ج11، ص 491.

(3) يقصد بهم أسرى الفرنج الذين أسرهم حسام الدين لؤلؤ أثناء غارتهم على المدينة المنورة.

(4) اقتباس من قوله تعالى : "وقال نوح ربِ لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً" سورة نوح، الآية : 26.

كتاب رقم (66) [1]

أسرُ بطسة فرنجية ومن فيها سنة 579هـ/1183م [2]

كتبَ صلاحُ الدين هذا الكتابَ بقلم الفاضلِ إلى الخليفةِ العباسي الناصر لدين الله، وجاءَ فيه :

ومن جُمْلة البشائرِ الواصلة من مصرِ عود الأسطولِ مرةً ثانية كاسراً كاسباً، غانماً غالباً، بعد نكايته في أهل الجزائر، وإخراب ما وجده فيها من الأعمال والعمائر، ومن جملة ما ظَفرَ به في طريقه بَطْسةً من مراكبِ الفرنج، تحمل أخشاباً منجورة[3] إلى عكا، ومعها نَجَّارون ليبنوا منها شواني، فأُسر النَّجَّارون ومن معَهم، وهم نيِّفٌ وسبعون، وأما الأخشاب فقد انتفع بها المجاهدون، وكُفي شَرَّها المؤمنون، وللخادم في المغرب عسكرٌ قد بلغت أقصى أفريقية فُتُوحُه، وعاوَدَ به شخصُ الدِّين في تلك البلاد روحَه.

---

(1) أبو شامة، الروضتين، ج3، ص141 (أ)؛ ابن واصل : مفرج الكروب، ج2، ص131 (ج).

(2) هاجم الأسطول المصري في محرم 579هـ(أبريل/1183م)، بطسة فرنجية فيها ثلاثمائة وخمسة وسبعون فرنجياً من المقاتلين والتجار كانوا في طريقهم إلى سواحل الشام، فوقعوا بين قتيل وأسير، وعاد المسلمون بالغنائم والأموال إلى مصر. أبو شامة : الروضتين، ج3، ص141.

(3) منجورة : تمت نجارتها وتسويتها. المعجم الوسيط : ج2، ص902.

كتاب رقم (67)[1]

غزوةٌ بحريةٌ وصدُّ فرنجِ الداروم[2] عن أيلةِ [3]

أرسلَ صلاحُ الدين هذا الكتابَ بقلم الفاضلِ إلى الخليفةِ العباسيِّ الناصر لدين الله ، وجاء فيه :

أدام الله أيام الدِّيوان العزيز ، ولا زالت منازل مملكته منازلُ التَّقديس، والتطهير (وآيات نعمة الله في وجوده واضحة، تغنى بها الألباب عن التبيين والتفسير)[4]، والوقوف بأقصى المطارح من أبوابه موجباً للتقديم والتقدير ، والأُمة مجموعة الشَّمْلِ بإمامته جمع السَّلامة لا جمع التكسير . الخادمُ ينهي أن (الذي يحمله على ما يحمله، أن الديوان العزيز مَنْ كتبه، وندبه من رسله، وكتب به، داعي طبيعة المسترسل فيه على رِسْلِهِ أمران أحدهما)[5] الذي يفتتحه من البلاد ويتسلَّمه إما بسكون التَّغَمُّدِ أو بحركةِ ما في الأغماد، إنما يَعُدُّه طريقاً إلى الاستنفار إلى بلاد الكُفَّار ، ويحسِبُه جناحاً يمكنه به المطار إلى ما يلابسه الكُفَّار من الأقطار (والثاني إعلام أمير المؤمنين أن تقليداته، وتقليدات آبائه الطاهرين، التي صدرت عنه وعنهم قُربت، وما عُصيت ونُفذت وما نُبذت، فيعلم أن له عبدًا يمتثل أمرَه ويُلزِم الناسَ بامتثاله، وخادماً يطيع حكمه الجليل ويحكم على غيره بطاعته وإجلاله)[6] وعلى هذه المقدِّمة فهو يستفتح بذكر ظَفَرين للإسلام : بري وبحري (شامي ومِصْري)[7]، أحدهما (وهو البحري)[8] عَوْدُ أحدِ الأُسطولين، اللذين أغزاهما أخو الخادم أبو بكر بمصر ، وكانت مُدَّة غيبته من حين خروجه إلى وقت عَوْده إلى دِمْياط تسعة أيام، (لأنه غزى فيهما

---

(1) أبوشامة : الروضتين، ج3، ص177–180 (أ)؛ مكاتبات من الترسل : ص 131، 132 (هـ).

(2) الداروم : قلعة بعد غزة للقاصد إلى مصر . ياقوت : معجم البلدان، ج2، ص483.

(3) خرجت عصابة كبيرة من الفرنج سنة 579هـ/1183م من نواحي الداروم إلى نواحي مصر ليغيروا عليها وينهبوا، فسمع بهم المسلمون، فخرجوا إليهم على طريق أيلة، فسبق الفرنج المسلمون إلى ماء العسيلة، فأتاهم المسلمون وهم عطاش قد أشرفوا على الهلاك، فرأوا الفرنج قد ملكوا الماء، فأنشأ الله سبحانه وتعالى، بلطفه سحابة عظيمة، فمُطروا منها حتى رووا، وكان الحر شديداً، فلما رأوا ذلك قويت نفوسهم، ووثقوا بنصر الله لهم، وقاتلوا الفرنج فنصرهم الله عليهم فقاتلوهم، وغنم المسلمون ما معهم من سلاح ودواب، وعادوا منصورين قاهرين بفضل الله تعالى. ابن الأثير ، الكامل، ج11، ص 495، 496.

(4) زيادة في هـ.

(5) زيادة في هـ.

(6) زيادة في هـ.

(7) زيادة في أ.

(8) زيادة في أ.

في خمس عشر المحرم وقفل رابع عشرين منه)[1] فظفر ببطسة مقلعةٍ من الشَّام، فيها ثلاثمائة وخمسة وسبعون عِلْجاً، منهم خيَّالة ذوو شِكَّة وازِعة، وتُجَّارٌ ذووا ثَرْوةٍ واسعة.

والثاني، وهو البَرِّي، نهوض فرنج الدَّاروم إلى أطراف بعيدة، فَنَذِرَ بهم والي الشَّرْقية، فركب إليهم الليلَ فَرَساً كما ركبوه جَمَلاً، وسروا ثقيلاً وسرى رَمَلاً[2]، فتوافى الفريقان إلى ماء يُعْرَف بالعسيلة[3]، سَبَقَ الفِرَنْج إلى موردته، والسَّابق إلى الماء محاصِرٌ للمسبوق، ووردوا أزرقه فتغضَّب لأزرقِهِم، فظنَّ المؤمن أن الكافرَ مرزوق، واشتدَّ بالمسلمين العطش، (فأنشأ الله في تأخر الهواء سحابة صيفٍ أسقاهم بها من فوقهم، ومن تحت أرجلهم، وأمسك به أيديهم فاستمسكت على أنصلهم)[4] ثم ثابوا إلى الفرنج بقوة إنجاد السماء بالماء، (ذاكرين معجزة اليوم البدري يوم من الله على أهله بالتطهير وبالري)[5] فلم ينجُ من الفرنج إلا رجلان، أحدهما الدليل، والثاني الذليل، وعاد المسلمون برؤوس عَدُوِّهم في رؤوس القَنَا[6] وقد اجتنوا ثمراتِها، وبأرواحهم في رؤوس الظُبى (وقد أطفؤوا بمائها جمراتِها)[7].

---

(1) زيادة في هـ.

(2) رَمَلاً : القليل من المطر.الزبيدي : تاج العروس، ج29، ص100.

(3) العسيلة : هو ماء في جبل شرقي سميراء. ياقوت : معجم البلدان، ج4، ص141.

(4) زيادة في هـ.

(5) زيادة في هـ.

(6) القنا : الرمح الأجوف. المعجم الوسيط، ج2، ص764.

(7) زيادة في أ.

كتاب رقم (68)[1]

غزوة بيسان 579هـ/1183م [2]

أرسل صلاح الدين هذا الكتاب بقلم الفاضل إلى الخليفة العباسي الناصر لدين الله، وجاء فيه :

لما كان بتاريخ الثَّامن من جُمادى الآخرة سار الخادم من أدنى المنازل من بلاد الإسلام إلى بلاد الكُفْر، وقد تكاملت جنودُ الإسلام، وتعيَّنت ميامنه ومياسره، وأُخذت أُهَبُهُ، وشُحِذت قُضُبه[3]، وباعوا الله ما اشتراه، وَمُثِّل لأعينهم ثوابه فكأنَّها تراه، وساروا تحت ليل عَجَاجٍ[4] سَتَرَ السَّائِرُ تحته سُرَاه، وأصبح الخادم وإياهم بعين الله في سبيله على ماء الأُرْدُن؛ وهو النهر الفاصل بين الإسلام والكُفْر، والمخاضة المضروب منها بسورٍ على ذلك القُطْر، فخاض ذلك البحر وذلك النهر، وأمدَّته نُطَفُ الحديد فإذا الماء يرمي بالشَّرر ويقذف بالجمر، وذلك يوم الخميس ثاني يوم المسير وهو تاسع الشَّهر. ولما جاز المخاضة أخذ البلادَ ضَرْبُ المخاض[5]، وزُلْزِلَتْ أرضُها فهي بالقوم تُرَضُّ أو للقيامة تُرَاض، وأخذت رجال المسلمين تنقُصُ الأرضَ من أطرافها، وتَقْلَعُ قِلاع الجبال، وتطيِّرُ رؤوسها من أكتافها، فإذا البلادُ قد انهزم أهلها، فألحقها المسلمون مساكنها في الهزيمة، وعوَّلوا فيها على سيوف المعاول، فإذا هي راحلة وكأنها مقيمة، وهذه البلادُ مدن ما كان غرم قَبْلُ منها مُدْنياً، وعماراتٌ ما كان أملٌ إليها مفضياً، بل طالما كان عنها مغضياً، مثل بَيْسان وعَفْرَبَلا وزرعين وجينين[6]، كلها بلاد مشاهير لها قُرى مُغِلَّة، وبساتين مُظلَّة، وأنهار مقلَّة، وقلاع

---

(1) أبو شامة، الروضتين، ج3، ص 187-189.

(2) عبر صلاح الدين نهر الأردن في التاسع من جمادي الآخرة 579هـ (أكتوبر/1183م)، وسار في بلاد الفرنج حتى وصل بيسان، فأحرقها وخربها، وأغار على النواحي المحيطة بها، فخرج الفرنج لملاقاته، حيث عسكروا في مواجهته وكان ظهرهم على جبل هناك، وتخندقوا على أنفسهم ولم يجرؤوا على قتال صلاح الدين، فاستفزهم الجيش برمي السهام ومناوشتهم فلم يخرجوا للقتال لخمسة أيام، فرأى صلاح الدين التراجع عنهم إلى موقع آخر، لكنهم أيضاً لم يفكروا في مهاجمته أو قتاله، فاكتفى بالإغارة على تلك النواحي، وجمع المسلمون الغنائم فلما كثرت معهم رأوا العودة بها وبمن أسر منهم إلى دمشق. ابن الأثير : الكامل، ج11، ص 501؛ ابن كثير : البداية والنهاية، ج12، ص336.

(3) قُضُبه : الدواب من الإبل والأغنام. المعجم الوسيط، ج2، ص741.

(4) عجاج : الغبار والدخان المعجم الوسيط، ج2، ص584.

(5) المخاض : الطلق أي وجع الولادة. ابن منظور : لسان العرب، ج5، ص 4153.

(6) جينين : بلدة بين نابلس وبيسان. ياقوت : معجم البلدان، ج2، ص235.

تعد إحدى المدن الرئيسة في فلسطين بالرغم من قلة عدد سكانها، تتمتع بأهمية موقعها حيث تقع جنوب مدينة الناصرة وإلى الجنوب الشرقي من مدينة حيفا، وإلى الشمال من مدينة نابلس، وسميت بجنين نسبة إلى الجنائن التي تحيط بها. حنيفى، موسوعة المدن الفلسطينية، ص 152؛ الموسوعة الفلسطينية، مج2، ص 83.

مُطلَّة، وأسوار قد ضُربت على جهاتها وأحاطت بجنباتها، واتخذتها المدن سياجاً على قصباتها، فغنم المسلمون ما فيها من أقواتٍ مُخْتَزنةٍ، وشفوا منها حزازات القلوب المضطغنة، وأحرقوا أوعية كُفْرها بالنَّار، وعذَّبوها عذاب أهلها من الكُفَّار، وقتلوها وكان الضِّرام لها دماً، وكتبوا عليها الخراب وكان السَّيفُ فيها قلماً، فأجلوا عن حماها حُمماً، وتساقطت جُدُرُها فكأنَّما أسارَّت فيها النوى لَمماً[1].

ولما كان يوم السبت الحادي عشر ورد الخبرُ بأن عسكر الكافرين قد رَكِبَ من مكان مُجتمعه، وزحف بلابسه ومُدَّرِعه، فركب الخادم يبوِّئُ المؤمنين مواقف القتال ومنازل النِّزال، فمن متسرِّع يطوف عليهم بصفاحٍ ليطاف عليه بصحاف، ومن متثبت يمشي إلى الموت مَشْيَ العَرُوس ساعةَ الزِّفاف، وهنالك منظرٌ وَدَّ المؤمنون لو أن أميرهم له ناظر، كما هو به آمر، ولا غَرْوَ أن يصفه الخادمُ ليسرَّ المخدوم لا ليوصف الخادم، وَمَنْ وَصَفَ ضَرْبة السيف فإنما وصف الضَّارب ولم يصف الصَّارم، ونزل العدو إلى الأرض منحطاً عن سَرْجه[2]، ومنحازاً عن فَجِّه[3]، وسالكاً نهجاً غير نَهْجه، وأحدقَ به راحله، وهو زُهاء عشرين ألف راجل، ورَكَزَ صليبَ صلبوته، فاستوى في العَجْز المحمول والحامل، ونزل محصوراً، وخَنْدَقَ فكأنما أصبح الكافر في حفر ذلك الخندق مقبوراً، وأقام بإزائه خمسة أيام تماسيه الوقائع وتصابحه، وتماشيه الرِّوائع وتصافحه، ويفزع فيه إلى الحفير[4]، ويتكرَّر إليه في اليوم الواحد النَّفير، ويبعث إليه السهم وهو في الحرب السَّفير، فيقبل تحيِّة الضَّرْب متردّدةً ولا يَرُدُّها، وتتبسَّم إليه صفيحة النَّصْل متودّدة فلا يؤدُّها، ويجتهد في استخراجه وقد رأى العزائم ولم يخرج لدعوتها، والمكارم ولم يرحل لِبُغْيتها.

---

(1) اللمم : هو الجنون.الفراهيدي : العين، ج8، ص322.

(2) سرجه : كذبه. ابن منظور : اللسان، ج2، ص1983.

(3) فجه : طريقه الواسع. المعجم الوسيط : ج2، ص674.

(4) الحفير : الخندق. ابن منظور : اللسان، ج1، ص925.

كتب حول حصار حصن الكرك ووصف حصانته سنة 580هـ/1183م [1]

كتاب رقم(69)[2]

وصف الفاضل حصار حصن الكرك في أحد كتبه، فقال : ،

هو شَجَاً[3] في الحناجر، وقذىً[4] في المحاجر[5]، قد أخذ من الآمال بمخنقها الله من الحَجِّ، وقَعَدَ بأرصاد العَزَائم وطُرُقها، وصار ذنباً للدَّهْر في ذلك الفَجِّ، وعُذْراً لتارك فريضة الله من الحّجِّ وهو وحصن الشَّوْبك –يسر الله الآخر– كبيت الواصف للأَسدين :

ما مَرَّ يَوْمٌ إلا وعِنْدَهُما لَحْمُ رجالٍ أو يُوْلِغانِ دَمَا[6]

كتاب رقم (70)[7]

وأما الكَرَك فكفَّات المنجنيقات عليه متضافرة، وحجارتُها على مَنْ فيه حاجرة[8]، وقد جُدعتأنوف الأَبْرَجة، وأَسْبَلَتْ قناع السَّتائر وجوهها المتبرِّجة، وكلُّ جوانبها وَعْرة المُرْتَقى، صَعْبَة المُخْتطى، والسُّلْطان يستعذب المشقَّات التي تتفادى منها الهِمَم، ويباشر جمرات الشِّتاء الكالح بوجهه المبتسم.

---

(1) عاد صلاح الدين لمهاجمة الفرنج بعد أقل من شهر من غزوة بيسان، حيث راسل أخاه الملك العادل في مصر وطالبه بالاجتماع إليه عند الكرك، وخرج هو على رأس قواته إلى أن وصل إليها في رجب وحاصرها حصاراً شديداً، ورماها بالمنجنيق ليلاً ونهاراً، وعلم صلاح الدين بخروج الفرنج لنجدة الكرك، ورأى أن الحصن شديد الحصانة، وأن أمر فتحه يطول فاكتفى بما حاز من أمواله وما ألحدثه فيه من تخريب، وفي ربيع الآخر 580هـ(يوليو/1183م) عاد لمهاجمة الكرك مرةً أخرى، وبدأ في حصارها بعد أن وصلها في جمادي الأولى 580هـ(أغسطس/1183م)، وأمر بنصب المجانيق على ربضه، فملك المسلمون الربض، وبقي الحصن، إلا أن بينهما خندقاً عظيماً عمقه نحو ستين ذراعاً، فأمر صلاح الدين بجمع الحجارة ونقل التراب وإلقائه فيه لردمه لتيسير الطرق إلى الحصن، كما أمر ببناء الحيطان من الطوب والأخشاب على طرف الخندق لحماية الناس من سهام الفرنج، وحينما أشرف صلاح الدين على الانتهاء من طم الخندق علم أن الفرنج خرجوا بكل قواتهم لنجدة الكرك وأنهم عسكروا عند موقع الواله فخرج للقائهم وعسكر عند البلقاء بسبب صعوبة الطرق وضيقها عند الواله، ثم تراجع قليلاً ليضمن تقدمهم إليه إلا أن الفرنج لم يتقدموا باتجاهه خشية لقائه، وساروا ليلاً باتجاه الكرك حتى دخلوها، فلما علم صلاح الدين بذلك علم أنه لا يبلغ غرضه.ابن الأثير : الكامل، ج11، ص506؛ ابن شداد : النوادر، ص110.

(2) أبو شامة، الروضتين، ج3، ص 204.

(3) شجاً : الحزن والهم. المعجم الوسيط : ج1، ص493.

(4) قذىً : ما يتكون في العين من ومص وغمض. المعجم الوسيط : ج2، ص722.

(5) المحاجر : ما دار بالعين من العظم. ابن منظور : اللسان، ج1، ص783.

(6) هذا البيت لابن قيس الرقيات، والولغ هو شرب السباع أو الكلاب بألسنتها. ابن منظور : لسان العرب، ج5، ص4917.

(7) أبو شامة، الروضتين، ج3، ص 205.

(8) حاجرة : مانعة. المعجم الوسيط : ج1، ص157.

كتاب رقم (71)[1]

وقد جمعت الحجارة في الإسقاط بين رؤوس الأبراج ورؤوس الأعلاج، فرمت الشَّراريف والواقفين عليها لحمايتها، وأرت الفرنج باهتدائها إلى أردائها غاية غوايتها، فما أَخْرَجَ أحدٌ منهم رأساً إلا دخل في عينه نَصْلٌ، وما هَجَرَ قِرابَ الإسلامِ سيفٌ إلا وله مع رقاب الكُفْر عند قَطْعها وَصْل، وما على الحَجَرِ في الإسراف والتبذير حَجْر، ولكلِّ ليلةٍ من نَقْعِ الحوافر من سنا الأسِنَّة فَجْر، ولقد أخذنا من العدوِّ بالمخنق، وشرعنا في طَمِّ الخَنْدَق، والحائط واقع والواقعة بهم محيطة، والمدرَّع بالسيوف مُفَصَّلة وبالجروخ[2] مخيطة.

كتاب رقم (72)[3]

عذاب الله بالحِصْنِ وأهله واقع، ما له من دافع، وإن دليلَ النَّصْرِ قد ظهر وما دونه من مانع، وأما المنجنيقات فقد نكأت[4] في الأبراج بالهَدْم، وفي الأعلاج بالهَتْكِ، فلم تُبْقِ لها الحجارةُ الطَّائرة إليها حجارةً قائمة، وإن لها من إمطارها عليها ليلاً ونهاراً دِيْمَة دائمة، وأطفنا عليها بالزَّرَجُون[5] حتى وقعت الأسوار من سُكْرها، وضربنا دونها الستائر حتى ترنَّمت لصخرها، وعاطَتْها[6] كفة المنجنيق عُقار عقرها، فالسُّور المقابل للمنجنيقات قد انهدمت أبراجه وأبدانه، وانهدَّت قواعده وأركانه، ولولا الخندق الذي هو وادٍ من الأودية واسع عميق، لما تعذَر إلى الزَّحْفِ إليهم والهَجْمِ عليهم طريقٌ.

كتاب رقم (73)[7]

الحِصْن الذي نحن حاضرون وحاصروه في حصانة الحصانة، قد هدَّت الحجارةُ منه ما أحكموه بالحجارة، وغدا عليه بالتخريب ما أعدُّوه للعمارة، فقِسِي المنجنيقات ترمي ولا تُرَنِّم سهامُها، ويستديم من أعداء الله ومعقلهم بالقتل والهَدْم انتقامها، فما قابل المنجنيقات من الأبراج والأبدان، قد أتى التخريب على ما فيه من العُمْران، فلم يبق إلا طمُّ الخندق، والأخذ بعد ذلك من العدوِّ

---

(1) أبو شامة، الروضتين، ج3، ص 205.

(2) الجروخ : جمع جرخ وهو القوس. ابن إدريس : كشاف القناع، ج4، ص371.

(3) أبو شامة : الروضتين، ج3، ص205، 206.

(4) نكأت : هزمت وغلبت. الفراهيدي : العين، ج5، ص412.

(5) الزَّرَجون : الخمرة. معجم متن اللغة، ج3، ص 25.

(6) عاطتها : يقال للناقة التي لم تحمل سنوات من غير عُقر. الأزهري : تهذيب اللغة، ج3، ص68.

(7) أبو شامة : الروضتين، ج3، ص206.

بالمخنق، والقلوب واثقةٌ بحصول الفَتْح، وقد عَلِمَ كلٌّ واحدٍ منا أن متجره قد فاز بالرِّبْح، فما يُسْمع منا بحمدِ الله من أحدٍ ملل ولا ضَجَر، ولا تُسْفِرُ هذه النَّوْبة إن شاء الله تعالى إلا عن نَصْرٍ وظَفَر.

كتاب رقم (74)[1]

من هجمات صلاح الدين على الكرك

أرسل صلاح الدين هذا الكتاب بقلم الفاضل إلى الخليفة العباسي الناصر لدين الله، وجاء فيه :

ورد على المملوك ما شرف به من الإجابة الشريفة أعلى الله يد مسطرها، ولا خلت أحوال الأولياء من أثرها. وتم الجواب ساعة وقوفه على الكتاب، وهو يستأنف امتثال الأمر في بقية العداد، ويتلطف الحال ويبذل مجهود الاجتهاد.

وكان السلطان عز نصره في هذا اليوم، من أوله إلى آخره، ومن سَحره إلى عَشائه راكباً ما نزل نازلاً ما رحل قبالة الكرك، يسر الله فتحه، إلى أن ذلت عرانينه وقُطعت بساتينه ودمرت مساكنه وأُخربت منازله، واستوصلت كرومه، ورُعنت زروعه، وأجدَّ أهل البلاد بالانتقال منها، والرحيل عنها، ورأوا من معاملة التركمان ما لاعهد لهم بمثله وما لا صبر لهم على أقله.

وأخبار الفرنج خذلهم الله إلى المولى قريبة، وقد رسم في مناهضتهم ما يقف المولى عليه، وينهي إليه. والله تعالى ينصر رايته، ورأيه، ويثبت له في كل قلب، ولاءً وولايةً، طالع بذلك، والرأي أعلىَ.

---

(1) مكاتبات من الترسل، ص 26.

كتاب رقم (75)[1]

علاقة صلاح الدين مع الإمبراطور البيزنطي وملك صقلية

أرسل صلاح الدين هذا الكتاب بقلم الفاضل إلى الخليفة العباسي الناصر لدين الله، سنة 581هـ/1185م، وجاء فيه:

سلامُ الله الأطيب، وبركاتُه التي يستدرُّها الحُضَّر والغُيَّب؛ وزكواتُه التي ترفع أولياءه إلى الدَّرَج، ونعمُه التي لم تجعَلْ على أهل طاعته في الدين من حَرَج – على مولانا سيِّد الخلق، وسادّ الخَرْق، ومسدِّد أهل الحق؛ ولابِس الشِّعار الأطهر سَوَاداً، ومستحق الطاعة التي أسعد اللهُ من خصَّه بها بدءاً ومَعَاداً، ومولى الأُمَّة الذي تَشابَه يومُ نَدَاه وبأسِه إن رَكَض جُوداً أو جواداً؛ وواحدِ الدهر الذي لا يُثَنَّى، وإليه القلوب تُثْنى؛ ولا يقبَلُ الله جمعاً لا يكون لولائه جمعَ سلامةٍ لا جمعَ تكسير، ولا استقبالَ قبلةٍ ممن لا تكون محبَّتُه في قلبه تُقِيم، واسمُه في عمله إلى الله يَسِير؛ مولانا أمير المؤمنين؛ وعلى آبائه المالئي الأرض عَدْلاً، المِلاَءِ أهلاً وفَضْلاً، والضاربين فَيْصَلاً والقائلين فَصْلاً، ومن تقول الجنةُ لأهلها بهم أهْلاً؛ المخصوصين بالعناية الإلهيَّة، الحاكمين فكُلُّ أمةٍ بطاعتهم مأمورةٌ وعن معصِيَتِهم منهيّة، والمشَرِّفي الأسارير على أسِرَّة الشرف فكم ملأتِ البَهْوَ مناظِرُهم البهيّة.

المملوك – يخدُم الحرم الشريفَ باحترامه، والفِناءَ الكريم بإعظامه؛ والبساطَ المقَبَّل بطُول استلامه، والسِّتْرَ الذي أسبلَهُ[2] على العباد بتحيَّته وسلاَمِه؛ ويُنْهِي أنه آخِرُ الخَدَمِ عن أن ينتظم الأوقاتَ المتجدِّدة، ويقتضب الحالات المتجرِّدة؛ والرُّسُلِ عن أن تَتواردَ دراكاً، وتَتَوالى وِشَاكاً؛ والإنهاءات عن أن تَثْبُت بالمقاماتِ الشريفةِ النبوية، ومجالس العرض العلية؛ ما انتهتْ إليه الأقدار، وما أفضى إليه من كثير المَنَاجح وقَليلِ الأعذار؛ فإنَّ أدب الأمالي عن المطالعة كالصوم لا يُفَضُّ ختامُه، ولا يُحلُّ نظامه؛ إلا بُعَيدَ يَطْلُع هلالُه، مبَشِّرا، ويُبَثُّ خبره في الآفاق معَطِّرا؛ فلو أن متكلِّفا أفطر قبل مَوْعِده، وورد الماء قبل مَوْرِده؛ لكان مُفْسِدا لعَقْده، ناكثا لعَهده.

كذلك المملوك أمسكَ حين كانت الأخبارُ بجانبه مشتَبِهة، والحقائقُ لديه غيْرَ متوَجِّهة؛ فإنَّ طاغيتَي الكفرِ بقُسْطَنْطِينيَّة وصِقلِّية كانا قد أوقَدا للحرب ناراً، ورَفَعا لها أوزاراً؛ واتخذَا لها أُسطُولاً جارياً وعَسْكراً جَرَّاراً، وتبارَيَا ولم يَزِدِ اللهُ الظالمين إلا تَبَارا[3]؛ وكتبا إلى الفَرَنْج بعد انهزامهم بالنَّجْدة والنُّصْرة، وتضمَّنَا لهم الخروجَ والكَرَّة، ويَصفان ما استعدَّا به بما لا يعبِّر عنه إلا بالكَثْرة؛ واستطارت الشَّناعةُ[4] وتداولتها الألْسُن، وخرجَتْ من الأفواه حتى لقد كادت تدخُل فيما رأته الأعيُن؛ وورد إلى

---

(1)القلقشندي : صبح الأعشى، ج6، ص515-516.

(2) أسبله : أرسله.ابن منظور : اللسان، ج2، ص1930.

(3) فيه اقتباس من قوله تعالى : "رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ". سورة نوح : آية 28.

(4) الشناعة : الفظاعة. ابن منظور : اللسان، ج3، ص2339.

المملوك رسولٌ من طاغيةِ القسطنطِينِيَّة وهو أقدمُ ملوك النصرانية قدَما، وأكثَرُهم مالاً منْتمَى؛ فعرض عليه مُوادَعةً يكون بها عسكره مُودَعاً، ويكون له بها مَفْزَعا، له ولصاحب صِقِلِّيَّة الذي زعم أنه أصلٌ للشرِّ يكونُ الشر منه مُفَرَّعاً؛ فلم يكن ولم يُجِبْ إلى السَّلْم، ولم يَزَعْه[1] أن عسكره خذله الله مُبَارٌ في البَرِّ وفي اليَمِّ[2]؛ إن شاء الله تعالى.

---

(1) يزعه : يكفه. ابن منظور : اللسان، ج5، ص 4825.

(2) اليم : البحر. ابن منظور : اللسان، ج5، ص4966.

كتاب رقم (76)[1]

استعداد صلاح الدين سنة 582هـ/1186م، للمواجهة الكبرى مع الفرنج[2]

أرسل صلاح الدين هذا الكتاب، بقلم الفاضل إلى الخليفة العباسي الناصر لدين الله، وجاء فيه :

كان كتاب المملوك صدر إلى مجلس مولاناَ أدام الله سلطانهَ، وأسبغ فضله، وإحسانه، وأجرى بالصالحات يده، ولسانه، ومكن من الأعداء سيفه، وسنانه، وأطلق في ميدان المكرمات عنانه، وأنجد بنصره العزيز أنصاره، وأعان به أعوانه. مقترنا بمكاتبة سلطانية أولاً وثانياً، وخدمته الآن مقترنة بمكاتبة سلطانية أيضا أجيب بها عن كتبه، ومقصود المملوك أن يؤديَ الفريضةَ من الخدمة الأفضلية السعيدة، ويستمر على العادة في مواصلتها في أوقات الإمكان القريبة والبعيدة.

والأخبار عن السلطان أعز الله نصره سارةً لأوليائه، كابتةً لأعدائه، مبشرة لقرب الفتح الجليل، وبحسن صنع الله الجميل، فلم يبقَ من ملوك الأطراف وولاتها ومقدمي العساكر وحماتها إلا من حضر سماطه[3]، ووطئ بساطه ولبس خلعه، وركب خيله ووقف بين يديه وألقى أمره إليه. وأقرب الواصلين عهداً زين الدين صاحب إربل وصل في عسكر يقارب ألف طواشي، ومعه تحمل ظاهر وبرك واسع، وكاثر العساكر وخدم فيها، وانفصل عن الجانب الفلاني وباينه، وشاه أرمن والبهلوان وأخوه قزل؛ كل منهم يمهد بجنبه، ويعمل عند السلطان لنفسه، ويتقرب إليه بكتبه ورسله وهداياه، ولا يناقضه ولا يعارضه في شيء من قضاياه.

وقد اقتطعت بلاد الموصل للعساكر الجديدة والقديمة، ووزعت بينهم وقسمت رساتيقها[4] الجليلة وضياعها العظيمة، ولا تتأخر البشارة الكلية بمشيئة الله بالفتح القريب والنصر العزيز، فإن المحصور في الحداد والمحشور من وراء الأسوار معتقل في حبس حاصره، لا سيما إذا كان يقاتله رعيته بسلاح الدعاء وترميه بمجانيق الضعفاء، والله تعالى يزيد سلطاننا قوة إلى قوته ومملكةً إلى مملكته، ويُوزع الخلق شكر النعمة بوجوده، ولا يخلي الأيدي والقلوب من محبته وَجودِه. إن شاء الله عز وجل.

---

(1) مكاتبات من الترسل : ص 19.

(2) أرسل صلاح الدين بعد فراغه من ضم الموصل إلى بلاد الشام ومصر يستدعي العساكر من كل البلاد التي تحت يده ويستنفرها لحملة كبيرة ضد الفرنج، فتجمعت عنده العساكر والأمراء من مصر، والموصل، وسائر بلاد الشام استعداداً لمعركة حطين. أبو شامة : الروضتين، ج3، ص276، 277.

(3) السماط : الصف من الرجال. ابن منظور : اللسان، ج3، ص2094.

(4) رساتيقها : مفرده الرستاق وأصله فارسي : الرزدق، وهي البيوت المجتمعة. ابن منظور : اللسان، ج3، ص1641.

كتاب رقم (77)[1]

استعداد صلاح الدين للمواجهة مع الفرنج سنة 582هـ/1186م، قبيل معركة حطين [2]

أرسل الفاضل هذا الكتاب إلى بعض أصحابه، وجاء فيه :

"كتبتُ هذه المكاتبة من جسر الخشب ظاهر دمشق، وقد ورد السُّلْطان –أعزَّ الله أنصاره– للغَزَاة إلى بلاد الكُفْر، في عسكرٍ فيه عساكر، وفي جمعِ البادي فيه كأنه حاضر، وفي حَشْدٍ يتجاوز أن يُحصِّله الناظر، إلى أن لا يُحصِّله الخاطر، وقد نهضت به هِمَّةٌ لا يُرْجى غير الله لإنهاضها، ونجحت به عزمةٌ، اللهُ المسؤول في حَسْم عوارض اعتراضها، وباع اللهَ نفساً يستمتع أهلُ الإسلام بهيئتها، ويُذْهِبُ اللهُ الشِّرْكَ بهيبتها، وأرجو أن يتمخَّض[3] عن زُبْدةٍ تستريح الأيدي بعدها عن المخض، وأن يكون الله قد بعث سَفْتَجَة[4] نُصْرة الإسلام، وسُلْطانُه قد نهضَ للقَبْض.

---

(1) أبو شامة، الروضتين، ج3، ص 275.

(2) هاجم أرناط صاحب الكرك قافلة في طريقها من مصر إلى الشام، فأسر من فيها وغنم ما وقعت عليه يداه من أموال ودواب وسلاح، فأرسل صلاح الدين إليه ودعاه إلى احترام الهدنة التي وقعت بين الفرنج والمسلمين، ودعاه إلى إعادة القافلة، والإفراج عن الأسرى، فرفض أرناط ولم يجب إلى ذلك، وكانت نتيجة ذلك أن أقسم صلاح الدين على قتله إن ظفر به، وأرسل إلى بلاد الموصل والجزيرة ومصر وسائر بلاد الشام يأمرهم بالاستنفار للجهاد في سبيل الله لمواجهة الفرنج. ابن الأثير : الكامل، ج11، ص 528.

(3) يتمخض : يتجمع، والمخيض ما أُخذ زبده من الألبان. الفراهيدي : العين، ج4، ص180.

(4) سفتجة : فارسية معربة وهي الحوالة. المعجم الوسيط، ج1، ص462.

كتاب رقم (78)[1]

معركة حطين[2] 583هـ/1187م[3]

أرسل صلاح الدين هذا الكتاب بقلم الفاضل إلى الخليفة العباسي الناصر لدين الله ، وجاء فيه :

صبَّح الخادِمُ طبرية، فافتضَّ عُذْرَتَها بالسَّيف، وهجم عليها هجوم الطَّيف، وتفرَّق أهلها بين الأَسْر والقَتْل، وعاجلهم الأمر فلم يقدروا على الخداع والخَتْل[4]، وجاء الملك ومن معه من كُفَّاره، ولم يشعر أن ليل الكُفْر قد آن وقتُ إسفاره، فأضْرَمَ الخادمُ عليهم ناراً ذات شَرَار، أذكرت بما أعدَّ الله لهم في دارِ القَرَار، فترجَّل هو ومن معه عن صهواتِ الجياد، وتسنَّموا[5] هضبةً رجاء أن تنجيهم من حَرِّ السُّيُوف الحِداد، ونصبوا للملك خيمةً حمراء، وضعوا على الشَّرْك عمادها، وتولَّت الرجال حِفْظَ أطنابها فكانوا أوتادها، فأُخذ الملك أسيراً ﴿وكَانَ يَوْماً على الكافِرِيْنَ عَسِيراً﴾[6] وأُسِرَ الإبرنس[7] –لعنه الله– فحصد بَذْره، وقتله الخادم بيده ووفَّى بذلك نَذْره، وأُسر جماعةٌ من مقدَّمي دَوْلته، وكُبراء ضلالته، وكان القَتْلى تزيد على أربعين ألفاً، ولم يبق أحدٌ من الدَّاوية، فلله هو من

---

(1) أبو شامة، الروضتين، ج3، ص 312–313.

(2) حطين : قرية عربية تبعد نحو تسعة أكيال غربي مدينة طبرية، تتميز بموقعها الجغرافي لتحكمه بسهل حطين الذي يتصل بسهل طبرية. شراب : معجم بلدان فلسطين، ص 295.

(3) معركة حطين : وقعت يوم السبت الخامس والعشرين من ربيع الآخر 583هـ (يوليو/1187م)، وهو اليوم الذي اجتمع فيه الطرفان وبدأت المعركة بينهما باقتحام مملوك من مماليك صلاح الدين اسمه "منكورس" لصفوف الفرنج منفرداً فقاتل الفرنج قتالاً شديداً حتى تمكنوا منه وقتلوه، فاشتبك الطرفان، اجتمع على الفرنج ثلاثة أمور هيأت لهزيمتهم وانتصار المسلمين، وهي شدة العطش بسبب منع المسلمين لهم الوصول إلى طبرية، وحر النار حيث أن المتطوعة من جيش المسلمين أشعلوا النيران حول جيش الفرنج وكانت الرياح باتجاههم فحملت إليهم حر النار والدخان، وبطش السهام حيث أن المسلمين أمطروا الفرنج بالسهام؛ مما أوقع القتل في جنود الفرنج وخيولهم، ولما أحس القومص كونت طرابلس باختلال صفوف الفرنج هرب هو وعدد من أصحابه من ميدان المعركة، واتجه بطريقه إلى صور، مما أدى إلى وهن الفرنج وضعف روحهم المعنوية، فلجأوا إلى تل بناحية حطين لكن المسلمون أحاطوا بهم وأكثروا فيهم القتل والأسر، وتمكن المسلمون من أسر الملك وجماعة من كبار الأمراء وزعمائهم، ومن بينهم أرناط صاحب الكرك، ومقدم الداوية والإسبتارية. ابن شداد : النوادر، ص 155؛ غنيم : الدولة الأيوبية، ص37.

(4) الختل : المراوغة والخداع. المعجم الوسيط : ج1، ص218.

(5) تسنَّموا : ركبوا واعتلوا. المعجم الوسيط : ج1، ص455.

(6) سورة الفرقان : آية 26.

(7) يقصد به أرناط صاحب الكرك.

يومٍ تصاحب فيه الذّئب والنَّسْر، وتداول فيه القَتْل والأسر. أصدر الخادم هذه الخدمة من ثَغْر عَكًّا[1]، والإسلامُ قد اتَّسع مجاله، وتصرَّف أنصارُه ورجالُه، والكُفْرُ قد ثبتت أوجاله ودَنَتْ آجالُه.

(1) اتجه صلاح الدين بعد حطين مباشرةً إلى عكا ففتحها وفتح مدن الساحل في مملكة بيت المقدس جميعاً ما عدا صور. العماد : الفتح، ص62– 77.

كتاب رقم (79)[1]
الاستعداد لفتح بيت المقدس

أرسل صلاح الدين هذا الكتاب بقلم الفاضل إلى الخليفة العباسي الناصر لدين الله، وجاء فيه :

والمقصود إعلام المجلس العالي أنّا إلى يوم تاريخ هذه الخدمة بمنزلتنا، والعساكر مجتمعة، والجموع محتشدة، والآراء على غزوتيْ البر والبحر مصممة، وعلى قصد العدو إن تأخر معتزمة. هذا والعساكر قد استجمت، واستراحت، واشتغلت، واستراشت، وتجدد بركها، وكثر درهمها، وحم مشتعلها، وانتقل سعرها، واتسع عددها، وأخلفت عدوها.

والبلاد بحمد الله قد تحصنت ثغورها، وسدت عوراتها، وحفرت خنادقها، وتشرفت أسوارها، وتوعرت ظواهرها. والأساطيل المباركة قد توفرتْ أقواتُ مراكِبها، وتيسرتْ أبوابُ نفقاتها، وكثرت وقوف ارتفاعاتها، وسر الله المسلمين بعواقب غزواتها، إلا ما كان في هذه السنه من اغترار بعض مقدميها وغفلته ونزوله إلى البر عند اشتداد عطشه، وعطش جماعته، ومهاجمة مراكب عدو إلى الآن لم يحقق صاحبها، واستيلائهم بفضل استعدادهم وشدة غفلة أصحابنا. مع أن العدو متى تحرك، كنا من ورائه نفعل بإذن الله في بلاده ما يغص طرفه، ويعجل حتفه، ويلفت وجهه ويثني قصده ويفلُّ حده، ويخسره أضعاف ربحه.

ولا يستبعد أن تكون الحركة في هذا الوقت إلى بيت المقدس ميعاد فتحه، فإنَّا في ليل اجتهاد لا يقنع بأقمار جنحه دون إسفار صبحه، والله المسعدِ المساعِدُ المُدْني للأملِ المتباعد.

---

(1) مكاتبات من الترسل، ص 28.

كتاب رقم (80)[1]

فتح بيت المقدس[2] ووصف يوم حطين سنة 583هـ/ 1187م

أرسلَ صلاحُ الدين هذا الكتاب بقلم الفاضل إلى الخليفة العباسي الناصر لدين الله، وجاء فيه :

[أدام اللهُ أيّامَ الديوانِ العزيزِ النبويِّ الناصريِّ ولازالَ مظفَّرَ الجَدَ بكلِّ جاحد، غنيًّا بالتوفيق عن رأيَ كلِّ رائد، موقوفَ المساعي على اقناءِ مُطْلَقَاتِ المحامد، مستيقِظَ النَّصْرِ والنَّصْلُ في جفنِه راقِد، واردَ الجودِ والسَّحَابُ على الأرضِ وارد، متعدِّدَ مساعِي الفضلِ وإن كان لا يُلْقَى إلاّ بشُكْرٍ واحد، (ماضي حكم القول بعزمٍ لا يمضي إلا بنسلٍ غويٍ ورَيْشٍ راشد)[3] لا زالت غيوثُ فضلِه أنواءً إلى المرابعِ وأنواراً إلى المساجِد، وإلى الأعداءِ خيلاً إلى المرَاقِبِ، وخيَالاً إلى المرَاقِد. كتبَ الخادمُ هذه الخدمة، تِلْوَ ما صدرَ عنه مما كان يجري مجْرَى التّباشيرِ لصبحِ هذه العَزمة، والعُنوانِ لكتابِ وصفِ النعمة، فإنّها بحرٌ للأقلامِ فيه سبحٌ طويل، ولطفُ الشُّكْرِ فيه عِبْءٌ ثقيلٌ، وبشرَى

---

(1) أبو شامة : الروضتين، ج3، ص359–360. (أ)؛ القلقشندي : صبح الأعشى، ج6، ص496–504 (ب)؛ ابن واصل : مفرج الكروب، ج2، ص238– 241. (ج)؛ عبد الظاهر : الدر النظيم، ص 15– 34 (د).

(2) فتح بيت المقدس : وصل صلاح الدين إلى القدس في الخامس عشر من رجب 583هـ (سبتمبر/1187م)، ونزل غربي المدينة، وأخذ يبحث عن مكان يستقر فيه مع جيشه حتى اختار شمال المدينة، بالقرب من باب العمود، نصب صلاح الدين المجانيق عند وصوله للجهة الشمالية، ورمى بها المدينة، واشتد القتال بين الطرفين، واستشهد من المسلمين الأمير عز الدين عيسى بن مالك ابن صاحب قلعة جعبر، فلما استشهد عظم ذلك على المسلمين، فحملوا حملة رجلٍ واحد، فاضطر الفرنج للتقهقر، وتمكن المسلمون من نقب السور، وأشعلوا النيران فيه وهدم جزء منه، فأدرك الفرنج عجزهم عن حماية أنفسهم، ومواجهة صلاح الدين. فقرروا إرسال وفد لطلب الأمان من صلاح الدين، لكنه رفض وقال أنه سيفعل بهم كما فعلوا بالمدينة سنة 492هـ/1099م، لكن الفرنج عادوا مرةً أخرى يطلبون الأمان، وهددوا صلاح الدين بقتل أسرى المسلمين، فأشار عليه من حوله بالموافقة على ذلك واغتنام الفرصة، فوقع الصلح بين الطرفين، وقد نصت شروط الصلح : أن فدية الرجل عشرة دنانير، وفدية المرأة خمسة دنانير، والطفل من الذكر والإناث ديناران، وأن مدة دفع الجزية أربعون يوماً، فمن عجز عن السداد بعد هذا الوقت صار مملوكاً، كما التزم باليان بدفع ثلاثين ألف دينار عن الفقراء، وسمح صلاح الدين للفرنج بحمل سلاحهم ليأمنوا شر اللصوص وقطاع الطرق، وإطلاق سراح جميع أسرى المسلمين، وكان عددهم ثلاثة آلاف أسير. وتسلم صلاح الدين المدينة يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب 583هـ(أكتوبر/ 1187م)، وقد تعذر إقامة صلاة الجمعة في ذلك اليوم، بسبب انشغال صلاح الدين والجيش بتسلم البلد، وتنظيف المسجد الأقصى وتطهيره من نجس الفرنج. وصلى المسلمون وصلاح الدين في الجمعة الثانية في الرابع من شعبان في قبة الصخرة، وكان الخطيب الإمام محي الدين بن الزكي قاضي دمشق. وتسلق المسلمون إلى رأس قبة الصخرة وكان عليها صليب كبير، فقلعوه، وألقوه، وكبر المسلمون فرحاً بذلك. وهكذا حرر بيت المقدس من أيدي الفرنج وهذا ما أثار الغضب عند الفرنج في الشرق والغرب، ودعوا لتوجيه حملة صليبية ثالثة لاسترداد بيت المقدس من يدي المسلمين. أبو شامة : الروضتين، ج3، ص330، 331؛ ابن الأثير : الكامل، ج11، ص546–551؛ ابن كثير : البداية والنهاية، ج12، ص345– 346؛ طقوش : تاريخ الأيوبيين، ص161– 163.

قلعة جعبر : تقع على الفرات بين بالس والرقة قرب صفين، وكانت قديما تسمى دوسر.

(3) زيادة في ب.

للخواطرِ في شرحِها مآرب، ويُسْرَى للأسرارِ في إظهارِها مساربُ، وللهِ في إعادةِ شكرِهِ رضاً، وللنعمةِ الرّاهنةِ به دوامٌ لا يُقالُ معه : هذا مضى. ولقد صارت أمورُ الإسلامِ أحسنَ (مصايرِها)[1]، واستتبّت عقائدُ أهلهِ على بصائرِها][2]، وتقلَّصَ ظلُّ الكافرِ المبسوط، وصدق اللهُ أهلَ دينه فلما وقع الشّرطُ (حصل)[3] المشروط، وكان الدِّينُ غريباً فهو الآنَ في وطنِه. والفوزُ معروضاً فقد بُذِلت الأنفُس في ثمنِه، وأَمِرَ أمرُ الحقِّ وكان مُسْتَضْعَفًا، وأُهِلَ ربْعُهُ وكان قد عِيَف حين عَفَا، (وجاء أمرُ اللهِ وأنوفِ أهل الشّركِ راغِمة، فأَدْلَجَتَ السّيوفُ إلى الآجالِ وهي نائمة)[4]، (وصدَق وعدُ اللهِ في إظهارِ دينِه على كلِّ دين، واستطاعت له أنوارٌ أبانت أنَّ الصَّباحَ عِندها حِيَانُ الحِين)[5] ، واستردَّ المسلمون تراثاً كان عنهم آبِقًا، وظفِروا يقظةً بما لم يصدِّقوا أنهم يظفَرون به طيفاً على (النائم)[6] طارقاً، واستقرَّت على الأعلَى أقدامُهُم، وخفَقَت على الأقصَى أعلامُهُم، وتلاقت على الصَّخْرةِ قُبَلُهُمْ، وشُفِيَتْ بها وإن كانت صخرةً كما تُشْفَى بالماءِ غُلَلُهُم.

(ولما قدِم الدينُ عليها عَرَفَ منها سُوَيْدَاءَ قلبِه، وهنّأ كفؤُها الحجرُ الأسودُ ببتِّ عِصْمَتها من الكافِرِ بحربِهِ)[7]، وكان الخادمُ لا يسعى سعيَه إلا لهذه العُظمَى، ولا يُقاسي تلك البُؤْسَى إلا رجاءَ هذه النَّعْمَى، (ولا يُناجز مَن استمطَله في حربِهِ)[8]، (ولا يعاتِب بأطراف القَنا مَن تمادَى في عتبهِ)[9]، إلا لتكونَ الكلمةُ مجموعة، والدعوةُ إلى سامِعها مرفوعِة، فتكونَ كلمةُ اللهِ هي العُليا، وليفوزَ بجوهرِ الآخرةِ، لا بالعرضِ الأدنى من الدُّنيا، وكانت الألسنةُ ربما سلَقته فأنضَجَ قلوبها بالاحتقارِ، وكانت الخواطرُ ربما غَلَت عليه مراجلُها فأطفأها بالاحتمالِ والاصطبارِ، ومن طلب خطيراً خاطر، ومن رام صفقةً رابحةً تجاسَر، ومن سما لأن يُجَلِّيَ غَمْرَةً غامرَ، [وإلاّ فإن القُعودَ يُلينُ تحت نُيوبِ الأعداءِ المَعاجِمَ فَتعضُّها، ويُضْعِفُ في أيديها مَهْرَ القوائِمِ فُتَقُضُّها، هذا إلى كونِ القعودِ لا يقضي فرضَ اللهِ في الجهاد، ولا يُرعَى به حقُ اللهِ في العباد، ولا يُوَفَّى به واجبُ التقليدِ الذي تطوَّقَه الخادمُ من أئمةٍ قضَوْا بالحقِّ وبه كانوا يعدلون، وخلفاءُ اللهِ كانوا في مثلِ هذا اليومِ للهِ يَسألون، لا جرمَ أنَّهم أَوْرَثُوا سرورَهم وسريرَهم خلَفَهم الأطهر، ونجلَهم الأكبَر، وبقيَّتَهم الشريفة،

(1) د : مصيرها.

(2) زيادة في ب، د.

(3) أ، ج : وقع.

(4) زيادة في أ، ب، د.

(5) زيادة في ب، د.

(6) أ، ب، د : النأي

(7) زيادة في ب، د.

(8) أ، ج : ولا يحارب من يستظلمه.

(9) زيادة في ب، د.

وطلعَتَهم المُنيفة، وعُلْوَانَ صحيفةِ فضلِهم لا عدِم سواءَ العلمِ وبياضَ الصحيفةِ، فما غابوا لما حَضَر، (ولا غضوا)[1] لما نظَر، بل وصلهم (الأجر)[2] لما كان به موصولا، وشاطَرُوه العملَ لما كان عنه منقولاً ومنه مقبولاً، وخَلَصَ إليهم إلى المضاجع ما اطمأنَّت به جنوبُها، وفاز منها بذكرٍ لا يزال الليلُ به سميراً، والنهارُ به بصيراً، والشّرقُ يهتدي بأنوارِه، بل إن أبدَى نوراً من ذاتِه هتفَ به الغربُ بأَنْ وَارِه، فإنَّه نورٌ لا تُكِنُّه أغساقُ السُّدَف، وذكرٌ لا تواريه أوراقُ الصُّحُف][3].

[وكتابُ الخادمِ هذا وقد أظفر اللهُ بالعدوِّ الذي تشَطَّت قناتُه شَقَقًا، وطارتِ فِرَقُه فَرَقًا، وفُلَّ سيفُه فصار عصَا، وصُدِعَت حَصَاته وكان الأكثَرَ عدداً، فكلَّت حَمَلاتُه وكانت (قدرة الله)[4] تُصَرِّفُ فيه العِنان بالعِيان، عقوبةً من اللهِ ليس لصاحبِ يدٍ بها يدان، وعَثَرت قدَمُه وكانت الأرضُ لها حَلِيفة، وغُضَّت عينُه وكانت عيونُ السيوفِ دونَها كَسِيفة، ونام جَفْنُ سيفِه وكانت يقَظَتُه تُرِيق نُطَفَ الكَرى من الجُفُون، وجُدِعَت أَنُوفُ رِمَاحه وطالما كانت شامخةً بالمُنَى أو راِعفَةً بالمَنُون، وأضحت الأرضُ المقدسةُ الطاهرةَ وكانت الطّامِث، والرّبُّ المعبودُ الواحدَ وكان عندهم الثّالث، فبُيُوتِ الشِّركِ مَهْدومَة، ونُيُوبُ الكفر مهْتومةٌ، وطوائفهُ المحامية، مجتمعةٌ على تسليم البلادِ الحامية، وشجعانُه المتَوافِيةِ، مذعنةٌ ببذلِ المطامعِ الوافيةِ، لا يَرَوْن في ماءِ الحديدِ لهم عَصْرَة، ولا في فِناء الأفنيةِ لهم نُصْرَة، وَقَد ضُرِبت عليهم الذِّلَّةُ والمسكَنَة، وَبَدَّلَ اللهُ مكَانَ السّيِّئةِ الحسنَة، وَنَقَل بيتَ عبادتِه من أيدِي أَصحابِ المشأمةِ إلى أَيدي أَصحابِ الميمَنة][5].

(وقد كان الخادمُ لِقَيهم اللَّقَاةَ الأولى فأمدَّه اللهُ بمُدَاركَتِه، وأَنجَده بملائِكَتِه، فكسَرهم كسرةً ما بعدها جَبْر، وَصَرعَهم صرعةً لا يعيشُ معها بمشيئةِ اللهِ كُفْر؛ وأسرَ عليهم من أُسِرَتْ به السَّلاسِل، وَقَتَل منهم مَن فَتكَت به المَناصِلُ، وأَجْلَت المعركةُ عن صرعَى من الخيلِ والسلاحِ، فكم أَهلَّةِ سُيُوفٍ تقارَضْنَ الضِّرَابَ بها حتى عَادَت كالعراجِين، كم أَنجُمِ رماحٍ تبادلت الطِّعَانَ حتى صارت كالمطَاعين، وكم فارسيَّةٍ ركَضَ عليها فارسُها السَهمُ إلى أَجلٍ فاختَلَسه، وَفَغَرت تلك القوسُ فاها فإذا فُوها قد نَهَش القِرنَ على بُعْدِ المسافةِ فافترسَه)[6]، وكانَ اليومُ مشهودا، وكانت الملائكةُ شهوداً، (وكان الصليب صارخاً)[7] والإسلامُ مولوداً، (وجعل اللهُ ضلوعَ الكفّارِ لِنارِ جهنّمَ وَقُوداً)[8]، وَأُسِر الملكُ وَبيدِه أوثقُ

(1) زيادة في ب.
(2) زيادة في ب.
(3) زيادة في ب، د.
(4) زيادة في ب.
(5) زيادة في ب، د.
(6) زيادة في ب، د.
(7) زيادة في أ، ج.
(8) زيادة في ب، د.

وثائِقه، وآكدُ وُصْلَهِ بالدينِ وعلائِقه، وهو : صَلِيبُ الصَّلَبُوت، وقائدُ أهل الجَبَرُوتِ، ما دُهِمُوا قَطُّ بأمرٍ إلاَّ وقام بين دَهْمَائهم يبسُطُ لهم باعَه، وكان مدُّ اليدين في هذه الدَّفْعَةِ وداعَه، لا جَرَمَ أَنَّهم يتهافَتُ على نارِه فَراشُهم، وَتجتمِعُ في ظِلِّ ظَلاَمِه خَشَاشُهم[1]، فيقاتِلون تحتَ ذلك الصليبِ أَصلبَ قتالٍ وأصدقَه، وَيرَوْنَه ميثاقاً يبنُون عليه أَشدَّ عَقْدٍ وَأَوْثَقَه، (وَيعُدُّونه سوراً تَحْفِر حوافرُ الخيلِ خندَقَه)[2].

(وفي هذا اليومِ أُسِرَتْ سَرَاتُهم، وذهبَت دُهَاتُهُم)[3] (ولم يُفْلِتْ منهم معروفٌ إلاّ القومَصَ وكان لعنه اللهُ مليَّاً يومَ الظّفرِ بالقِتالِ، وَيوم الخِذْلان بالاحْتيَال؛ فنجاً ولكن كيف، وطار خوفاً من أن يلحقَه مَنْسِرُ الرُّمحِ وَجَنَاحُ السَّيف، ثمَّ أخذهُ اللهُ بعد أَيّامٍ بيدِه، وأهلكَه لموعِده؛ فكان لعِدَّتِهم فَذَلك، وانتقل مَن مَلَكِ الموتِ إلى مالِك)[4].

وبعد الكسرةِ مرَّ الخادمُ على البلادِ فطواها بما نَشَر عليها من الرّايةِ السوداءِ صِبْغاً، البيضاءِ صُنْعاً، الخافقةِ هي وقلوبُ أعدائِها، (الغالية)[5] هي (وعزائمُ أوليائها)[6] المستضاءِ بأنوارِها إذا فتح عينَها البِشْر، وأشارت بأناملِ العذباتِ إلى وجهِ النَّصْر، فافتتحَ بلدُ (كذا وكذا)[7] وهذه أمصارٌ ومدن، وقد تُسمَّى البلادُ بلاداً وهي مزارعُ وفُدُن. كلُّ هذه معاقلَ معاقِر، وبحارٍ وجزائر، وجوامعَ ومنائر، وجموعِ وعساكر، يتجاوزُها الخادمُ بعد أن يُحْرِزَها، ويتركُها وراءَه بعد أن ينْتَهِزَها، ويحصدُ منها كُفراً ويزرعَ إيمانا، ويحطُّ من منائرِ جوامِعها صُلْباناً ويرفعُ أَذانا، ويُبَدِّلُ المذابحَ منائرَ والكنائسَ مساجدَ، ويُبَوِّئُ بعد أهلِ الصّلبانِ أَهلَ القرآنِ للذّبِّ عن دينِ اللهِ مقاعد؛ ويُقِرُّ عينَه وعيونَ أهلِ الإسلامِ أن تَعلَّق النَّصْرُ منه ومن عسكرِه بجارٍ ومجرور، وأن ظفِر بكلّ سورٍ ما كان يخاف زِلزَالَه زِيَالَه إلى يومِ النّفخِ في الصُّور)[8].

(ولمَّا لم يبقَ إلاّ القدسُ وقد اجتمعَ إلَيها كلُّ شريدٍ منهم وطريد، واعتصمَ بمَنَعَتِها كلُّ قريبٍ منهم وبعيد؛ وظنُّوا أنّها من الله ما نِعَتُهم، وأنّ كنيستَها إلى اللهِ شافِعْتُهم؛ فلمّا نازَلها الخادمُ رأَى بلداً كبلاد، وجمعا كيومِ التناد، وعزائمَ قد تألَّبَت على الموتِ فنزلَت بعَرْصَتِه (وهان عليها مورد السيف

(1) الخَشاش : هو الثعبان العظيم المنكر. ابن منظور : اللسان، ج2، 1163.
(2) زيادة في ب، ج، د.
(3) زيادة في ب، د.
(4) زيادة في أ، ب، د.
(5) ب، د : الغالبة.
(6) زيادة في أ، ب.
(7) زيادة في ب.
(8) زيادة في ب، د.

وأن تموت بغصته فزاول البلد)[1] من جانبٍ فإذا أوديةٌ عميقة، ولُجَجٌ وَعْرةٌ غريقَة، وسورٌ قد انعطَف عَطْفَ السِّوار، وأبرِجَةٌ قد نزلَتْ مكانَ الواسِطَةِ من عِقْدِ الدّار، فعَدلَ إلى جهةٍ أخرى كان للمطامعِ عليها مُعَرَّج، وللخيلِ فيها مُتَوَلَّج، فنزلَ عليها وأحاطَ بها وقَرُبَ منها، وضُرِبَت خَيْمَتُه بحيث ينالُه السِّلاحُ بأطرافِه، ويزاحِمُه السُّورُ بأكنَافِه، وقابَلَها، ثم قاتَلَها، ونزلَهاوبرزَ إليها ثم بارَزَها، وحاجَزَهَا ثم ناجَزَها، فضمَّها ضمَّةً ارتقبَ بعدّها الفتحَ، وصدعَ أَهلَها فإذا هُم لا يصبِرون على عُبودية الجِدِّ عن عِتْقِ الصَّفْحِ، فراسلُوه ببذلِ قطيعةٍ إلى مُدَّة، وقصدوا نَظِرَةً من شِدَّة، وانتظاراً لِنَجْده، فعَرفَهُم في لحنِ القَوْل، وأجابَهُم بلسانِ الطَّوْل، وقدَّم المنجنيقاتِ التي تتولى عقوباتِ الحصُونِ عِصِيُّهَا وحِبَالُها، وأوترَ لهم قسيَّها التي تَضْرِبُ فلا تفارقُها سِهَامُها ولا يفارقُ سهامَهَا نصالُها، فصافحت السّورَ فإذا سهمُها في ثنايا شُرُفَاتها سِواك، وقدَّم النّصرُ نَسْراً من المَنْجَنِيقِ يُخلِدُ إخلادَه إلى الأرضِ ويعلُو عُلُوَّه إلى السّماك، فَشَجَّ مَرَادِعَ أبرجِها وَأَسمَع صوتَ عجيجِها، ورفعَ سِتارَ عَجَاجِها)[2]، فأخلَى السّورَ من (السَّيَّارة)[3]، والحربَ من النّظَّارةِ، فأمكنَ النَّقَّاب، أن يُسْفِرَ للحربِ النّقاب، وأن يعيدَ الحجَر إلى سيرتِه من التّراب، فتقدَّمَ إلى الصخرِ فمضَغَ سردَه بأنيابِ مِعْوَلِه، وحلَّ عَقْدَه بضربِه الأخرقِ، الدّالِّ على لطافَةِ أُنمُله وأسمَع الصّخرةَ الشريفةَ حنينهَ واستغاثَتَه إلى أن كادت ترقَى (لمقتله)[4]، وتبرَّأَ بعضُ الحجارةِ من بعضٍ، وأخذَ الخرابُ عليها مَوْثِقاً فلن تَبَرحَ الأرْض، (وفُتِحَ من السّورِ بابٌ سدَّ من نَجاتِهم أبواباً، وأُخذ نقبٌ في حِجْرِهِ قال عندَه الكافِرُ : يا ليتني كنتُ ترابًا، فحينئذٍ يئسَ الكفَّارُ من أَصحابِ الدُّور، كما يئس الكفَّارُ من أَصحابِ القُبُور، وجاء أَمرُ اللهِ وَغرَّهُم باللهِ الغَرُور)[5].

وفي الحالِ خرج طاغيةُ كفرِهم، وزمِامُ أمرِهم؛ ابنُ بارزان، سائلا أن يؤخَذَ البلدُ بالسَّلِم لا بالعَنْوَة، وبالأمان لا بالسَّطْوَة، وألقى بيدِه إلى التَّهْلُكةِ، وعلاه ذلُّ المَلْكَة بعد المملَكَة، وطرح جبينَه في التّرابِ وكان حيناً لا يتعاطاه طارِحٌ، وبذلَ مبلغًا من القطيعةِ لا يطمحُ إليهِ طرْفُ آملٍ طامِح، وقال هاهُنا أَسَارى مؤمِنُون يتجاوزُون الألوفَ وقد تعاقَد الفَرَنْج على أَنَّهم إنْ هُجِمَت عليهم الدّار، وحمَّلت الحربُ على ظهورِهم الأوزار، بُدِئَ بهم فَعُجِّلُوا، وَثُنِّيَ بنِسَاء الفَرَنْجِ وأَطفالِهم فقُتِّلوا، ثم استقتَلُوا بعد ذلك فلم يُقْتَلْ خصمٌ إلا بعد أَن يَنْتَصِف، ولم يُسَلَّ سيفٌ من يدٍ إلاّ بعدَ أَن تَنْقَطِع أَو يَنْقَصِف؛ وَأَشارَ الأمراءُ بالأخذِ بالميسور، من البلدِ المأسورِ، فإنَّه إنْ أُخِذَ حرباً فلا بدَّ أن تَقْتَحِم

(1) زيادة في ب.

(2) زيادة في ب، د.

(3) ج : الستارة.

(4) ب، د : لمُقبله.

(5) زيادة في ب، د.

الرجالُ الأنجاد، وتبذُل أنفُسَها فى آخرِ أمرٍ قد نِيلَ من أوَّلِه المراد، وكانت الجراحُ في العساكرِ قد تقدَّمَ منها ما اعتقَلَ الفتَكات، واعتاقَ الحركاتِ؛ فقُبِلَ منهم المبذولُ عن يدٍ وهم صاغِرون، وانصرف أهلُ الحربِ عن قدرةٍ وهم ظاهِرون، وملكَ الإسلامُ خِطَّةً كان عهدُه بها دِمنةَ سُكّان، فخَدمَها الكفرُ إلى أن صارت روضةَ جِنان؛ لا جرمَ أنّ اللهَ أخرجَهم منها وأهبطَهم، وأرضَى أهلَ الحقِّ وأسخطَهم، فإنّهم – خذلَهم اللهُ– وبنوها بالعمدِ والصفاح وأودَعُوا الكنائسَ بها (وبيوتَ)[1] الدَّيويَّة وَالاسبِتَارِيَّة منها كلَّ غريبةٍ من الرُّخامِ الذي يَطَّرد ماؤُه، ولا يُطْرَدُ لألاؤه، قد لَطُف الحديدُ في تجزيعِه، وتفنَّن في توشيعِه، إلى أن صار الحديدُ الَّذي فيه بأسٌ شديد، كَالذّهبِ الذي فيه نعيمٌ عَتيد، فما تَرَى إلاّ مقاعدَ (للرياض لها من بياض الترخيم رقراق وعُمداً كالأشجار لها من التنبيت أوراق)[2].

وأوعزَ الخادمُ بردِّ الأقصى إلى عهدِه المعهود، وأقام له من الأئمةِ من يوفِّيه وِردَه المورود، وأُقيمت الخطبةُ يومَ الجمعةِ رابعَ شهرِ شعبان فكادت السمواتُ يتفطّرنَ (للسُّجومِ)[3] (لا للوُجوم)[4]، والكواكبُ ينتَثِرن للطّرب (لا للرجومِ)[5]، ورُفِعَت إلى اللهِ كلمةُ التوحيدِ وكانت طرائقُها مسدودة، وظهرت قبورُ الأنبياءِ وكانتْ بالنَّجاساتِ مكدُودة. وأُقيمتْ الخمسُ وكان التثليثُ يُقْعِدُها، الألسنُ باللهُ أكبرُ وكان سحرُ الكفر، وجُهِرِ باسمِ أميرِ المؤمنون في وطنِه الأشرفِ من المنبرِ، فرُحِّبَ به ترحيبَ من بُرّ، وخَفَق علماهُ في حِفَافَيْه فلو طَار سُرُور لطَار بجَنَاحَيْه.

وكتاب الخادمِ وهو مُجِدٌّ في استفتاح بقيّةِ الثّغورِ، واستشراحِ ما ضاق بتمادِي الحربِ من الصدورِ، فإنَّ قُوَى العساكرِ قد استُنفدَتْ مواردُها، وأيّامَ الشتاءِ قد مَرَدَت مواردُها، والبلادُ المأخوذةُ المشار إليها قد جاسَتْ العساكرُ خلالَها، ونَهَبَت ذخائرَها وأَكَلَتْ غِلالَها، فهي بلادٌ تُرْفَدُ ولا تُسْتَرْفَد، وتُجَمُّ ولا تُسْتَنْفَد، وَيُنْفَق عليها ولا يُنْفَق منها، وَ تُجَهَّزُ الأساطيلُ لبحرِها، وتقامُ المرابِطُ لبَرِّهَا، ويُدْأَبُ في عمارةِ أَسوارِها، وَمَرَمَّاتِ معاقِلِها، وكلُّ مشقَّةٍ بالإضافةِ إلى نعمةِ الفتحِ محتَمْلة، وأَطماعُ الفرنجِ بعدَ ذلك مذاهبُهَا غيرُ مرجِئَةٍ ولا معتَزِلَةٍ، فلن يَدْعُوا دعوةً يرجو الخادمُ من اللهِ أَنها لا تُسْمَع، ولن تزولَ أَيدِيهم من أَطواقِ (في)[6] البلادِ تُقْطَع.

---

(1) ب : وبموت.

(2) زيادة في ب.

(3) ج : النجوم.

(4) زيادة في ب، د.

(5) زيادة في ب، د.

(6) زيادة في ب.

وهذه البشائرُ لها تفاصيلُ لا تكادُ من غيرِ الألسنةِ تتشَخَّصُ، ولا بما سوى المشافهةِ تَتَلَخَّصُ، فلذلك نفَّذْنا لسانًا شارحًا، ومبشراً صادحاً، يطالِعُ بالخبرِ على سِياقتهِ، ويعرِضُ جيشَ المسرَّةِ من طليعتهِ إلى ساقتهِ، (وَاللهُ الموفقُ للصَّوابِ، والحمدُ لله ربِّي، وعليهِ توكَّلْت وإليهِ أَنيبُ)[1].

(1) زيادة في د.

كتاب رقم (81)[1]

فتح حصن بُرْزَيَة[2]

أرسل الفاضل هذا الكتاب إلى صلاح الدين سنة 584هـ/ 1188م ، وجاء فيه :

وصلَتْ كُتُبُ البشارة بفتح حِصْن بُرْزَيَة وهو الذي تُضْرَب به الأمثال، وتُضْرِبُ عنه الآمال، ويكاد يَحْزُنُ إذا قادت أيدي السَّلاسل أَزِمَّةَ الجبال، ويكاد يُذِمُّ ساكنيه من خَطَرات الأوجال بل من خُطُوات الآجال، وكان للكُفْر دِرْعاً حصينةً طالما كانت تهزأ بالنِّصال، فعَظُمَتِ المِنَّة السُّلْطانية عند أهل الإسلام، ودعوا بأن يُفْلج[3] الله حُجَّة سيفه الألد الخصام.

وقد كان النَّاس يَعُدُّون مواهبه مما لا تُحصى، فقد لحقت بها فتوحاتُهُ فهي أيضاً لا تُحْصَر، فمرحباً بفتوحٍ يقول غائِبُها : الحمد لله، وحاضِرُها : الله أكبر، وما بقي المملوك يستبطئ خبر أنطاكية[4]، فقد ألقتِ الأرض أفلاذَها، وقد ولدت لِكَرَمِهِ ذهَبَها، ولِنَصْرِهِ فولاذَها، ولم نَرَ في نِعَمِ الله مِثْلَها نعمةً كريمة وجيهة، ولا نَعْرِفُ بعدها للزَّمنِ سيئةً ولا كريهةً، إلا أَنَّا نرجع في معرفة قَدْرِها، وإخلاص شُكْرِها إلى ما رضيه الله شكراً ممن نَجَّاه من أهوال يوم القيامة، وأدخله دار المُقَامة بأَنَّهم قالوا الحَمْدُ لله الذي أَذْهَبَ عَنَّا الحَزَن، الحمد لله الذي صَدَقَنَا وَعْدَه، الحمد لله الذي هَدَانا لهذا، وكان آخر دَعْوَاهُم أَنِ الحمدُ لله رَبِّ العالمين[5] فَرَضِيَ بالحمد منهم، ورضي عنهم، وأَثْنَى عليهم بأنهم اختتموا به وافتتحوا، وقَدَّسوا به وسَبَّحوا، وثَقُلَتْ به موازين أعمالهم فرجحت ورجحوا.

---

(1) أبو شامة : الروضتين، ج4، ص 35-37.

(2) كان من أكثر حصون الفرنج شدة وحصانة، يقع على قمة جبلٍ شاهق، حاصره صلاح الدين الأيوبي في الرابع والعشرين من جمادي الآخرة، وضرب أسواره بالمنجنيقات وقسم عسكره ثلاثة أقسام يتناوبون على الزحف، فكان صاحب النوبة الأولى عماد الدين صاحب سنجار فقاتل قتالاً شديداً حتى استوفي نوبته، وتسلم النوبة الثانية السلطان صلاح الدين نفسه، وصاح في الناس فحملوا عليها حملة الرجل الواحد، وهجموا على الحصن وأخذوه عنوة، وغنموا منه غنائم كثيرة، وعاد الناس إلى خيامهم غانمين، وعاد السلطان فرحاً مسروراً، وكان ذلك يوم الثلاثاء، السابع والعشرين من جمادي الآخرة سنة 584هـ/ أغسطس 1188م. ابن شداد : النوادر، ص149.

(3) يقلج : يقسِّم. ابن منظور : اللسان، ج2، ص346.

(4) أنطاكية : هي بلدٍ عظيم، ذات سورٍ ضخم له ثلاثمائة وستون برجاً، يطوف علية بالنوبة لحراسته أربعة آلاف حارس. ياقوت : معجم البلدان، ج1، ص316.

(5) فيه اقتباس من قوله تعالي : "وقالوا الحمدلله الذي أذهب عنا الحزن" سورة فاطر : الآية 34، وقوله تعالى : "وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده" سورة الزمر : الآية 74، وقوله تعالى : "وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا" سورة الأعراف : الآية43، وقوله تعالى : "وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين" سورة يونس : الآية 10.

ونحن نقول : الحمد لله على بهجة الدُّنيا بمولانا ونَضْرتها، وعلى عِزَّة المِلَّة به ونُصْرتها، وعلى بهجة القُلُوب به ومَسَرَّتها، وعلى غنى الأيدي به ومِيْزتها، وعلى روعة قلوب الأعداء به وحَسْرتها ﴿وإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ الله لا تُحْصُوْها﴾[1].

وفتوحُ مولانا من تلك النِّعَم وإن قَصَّرْنا في شُكْرها فما نُقَصِّر في ذكرها، وإن عَجَزْنا عن حَصْرها فما نَعْجِزُ عن المعرفة بفضل قَدْرها، وتلك النِّعم بحمد الله مُنْتَظمة العقود، مُطَّرِدَة السُّعود، متوافية الرُّسل، عامرة السُّبُل، خارقة العوائد، قارنة المساعي بالمساعد، كادت العيون قبل وقوعها تَلْحَظُها، وكادت المنابِرُ لما يُدْرَسُ عليها من كُتُبها تَحْفَظُها، فما يُشْرَحُ صدرٌ من خبرها فيسمعه ذو صَدْرٍ إلا انشَرَحَ، وما يسأل النَّاسُ : هل فَتَحَ الملك النَّاصر، وإنما يقال ما اسم البلد الذي فتح، فمن عند مولانا الجَنَان، ومن عندنا اللِّسان، وعليه الجُهْد، وعلينا الحمد، فهي فتوحٌ كثمرات الجَنَّة لا مقطوعة ولا ممنوعة، وأعمالها المبرورة إلى الله تعالى مرفوعة.

(1) سورة إبراهيم : الآية 34.

كتاب رقم (82)[1]

فتحُ حصونِ كوكبَ وصفد[2] والكركَ سنة 584هـ / 1188م [3]

أرسلَ صلاحُ الدين هذا الكتابَ بقلم الفاضلِ إلى أخيه سيف الإسلام باليمن مبشراً له بفتح هذه الحصون ومستقدماً له لمعاونته على قتال الفرنج :

ومما تجدّد بحَضْرتنا فتُوحُ كَوْكب : وهي كرسيُّ الاستبارِيَّةِ[4] ودارُ كُفْرهم، ومستقَرُّ صاحبِ أمرهم، وموضعُ سِلاحِهم وذُخْرهم؛ وكان بمجمع الطُّرُق قاعدا، ولمُلْتقى السُّبُل راصدا؛ فتغلَّقتْ بفتحه بلادُ الفتح واستوطنَتْ، وسُلِكتْ الطُّرُقَ فيها، وأمِنَت، وعُمِرت بلادُها، وسكنَتْ؛ ولم يبقَ في هذا الجانب إلا صُور، ولولا أن البحرَ يُنْجِدها، والمَرَاكبَ تَرِدها؛ لكانَ قِيادُها قد أمكن، وجِمَاحُها قد أذْعَن؛ وما هم بحمد الله في حِصْن يَحْميهم، بل في سِجْن يَحْويهم؛ بلْ هم أُسارى وإن كانُوا طُلَقَاء، وأمواتٌ وإن كانوا أحْياء؛ قال الله عز وجل﴿ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إنمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾[5] (ولكُلِّ امرىء

---

(1) أبو شامة : الروضتين، ج4، ص54–57.(أ)؛ القلقشندي : صبح الأعشى، ج7، ص23–27 (ب).

(2) صفد : بلدة بالقرب من طبرية .ياقوت : معجم البلدان، ج3، ص412.

(3) فتح حصن كوكب : نزل صلاح الدين بعد انتهاء موسم الشتاء في أوائل محرم سنة 584هـ (مارس 1188م)، ونزل على حصن كوكب فحاصره، لكنه رأى أن أمر فتحه وحصاره سيطول فرحل عنه، ومضى إلى دمشق فوصلها في ربيع الأول، وكان سبب اهتمام صلاح الدين بذلك الحصن؛ أنه كان قد جعل عليه جماعة يحاصرونه منذ مسيره إلى عسقلان، فاغتنم الفرنج نوم من يقومون بالحراسة ذات ليلة، فهاجموا المسلمين المحاصرين وقتلوا مقدمهم ومن معه، فاتجه صلاح الدين إلى كوكب بعد 584هـ/1188م، فحاصرها وضربها بالمنجنيق، وثبت في حصارها على الرغم من دخول الشتاء وكثرة الأمطار، فقد تمكن المسلمون من ثقب السور، فلم يبقى أمام الفرنج سوى طلب الأمان، فأمنهم وتسلم الحصن في منتصف ذي القعدة. ابن الأثير : الكامل، ج12، ص22، 23 ؛ابن شداد : النوادر، ص165، 180.

(4) الإسبتارية : من الطوائف الدينية العسكرية، وهم جماعة من النصارى الأتقياء بأمالفي، وكانوا قد أنشأوا نزلاً في بيت المقدس يأوى إليه الحجاج الفقراء، وأذن والي بيت المقدس من قبل مصر التي كانت وقتذاك تمتلك المدينة لقنصل أمالفي أن يختار موقعاً مناسباً، وتقرر تدشين الدار باسم القديس يوحنا المتصدق بطريرك الإسكندرية في القرن السابع الذي اشتهر بالإحسان، وكان جل القائمين على هذه الدار من الرهبان الأمالفيين الذين خضعوا لإدارة مقدم يخضع بدوره للسلطات البندكتية التي استقرت بفلسطين، وكان مقدم هذه الدار عند استيلاء الصليبيين على بيت المقدس رجلاً اسمه جيرار، والراجح أنه كان من الأمالفيين، وأمر حاكم بيت المقدس المسلم نفيه مع سائر المسيحيين قبل أن يبدأ الصليبيون حصار المدينة، وكان لدرايته بأموال البلاد أهمية عند الصليبيين، فحثَّ حكومة الفرنج الجديدة في بيت المقدس بأن تجعل لهذه الدار أحباساً، واتخاذ عدد كبير من الحجاج إلى هيئته التي لم تلبث أن تحررت من ولائها وطاعتها للبندكتيين، وأضحت طائفة مستقلة بذاتها، واتخذت الإسبتارية، وتدين للبابا مباشرة بالطاعة . البقلي : التعريف بمصطلحات الأعشى، ص 18، 19.

(5) سورة مريم : أية 84.

أجلٌ لا بُدّ أن يَصْدُقه غائبهُ، وأملٌ لا بدّ أن يَكْذِبه خائبه)[1] وكان نزولُنا على كَوْكب بعد أن فُتِحت صَفَدُ بلدُ الديوية (ومعقِلُهم، ومشتَغَلُهم وعملُهم، ومَحلُّهم الأحصَنُ ومنزلِهم)[2]؛ وبعد أن فتحنا الكَرَكَ وحصونَه؛ (والمجلس السامي)[3] أسماه اللهُ أعلَمُ بما كان على الإسلامِ من مئُونَتِهِ المُثْقِله، وقضِيَّته المُشْكِله، وعلَّتِه المُعْضِله؛) وأن الفَرَنْج –لعنهم الله– كانوا يَقْعُدون منه مَقَاعِدَ للسَّمْع، ويتبوَّءُون منه مواضِعَ للنَّفْع؛ ويحولُون بين قات، وراكبها، فيذَلِّلُون الأرضَ بما كان منه ثِقْلاً على مَنَاكِبِها؛ والآنَ ما أَمْنُ بلادِ الهَرَمَيْن، بأشدِّ من أمْنِ بلاد الحَرَمَيْن؛ فكلُّها كان مشترَكاً في نُصْرة المسلمين بهذه القلعةِ التي كانت تُرامِي ولا تُرام، وتُسامِي ولا تُسَام؛ وطالَمَا استفْرغْنا عليها بيوتَ الأموال، وأنفقْنا فيها أعمارَ الرجال، وقرَعْنا الحديدَ بالحديد إلى أن ضَجَّت النِّصالُ من النِّصال)[4]؛ والله المشكورُ عى ما انطوى من كلمة الكُفْر وانتشَرَ من كلمة الإسْلام. وإنَّ بلاد الشام اليومَ لا تَسْمَع فيها لَغْواً ولا تأثِيماً إلا قيلاً سَلَامًا سَلَامًا[5]. وكان نزولُنا على كوكب والشتاءُ في كَوْكَبه، وقد طلع بيُمْن الأنواء في مَوْكِبه؛ والثلوجُ تنْشُر على البلاد (مُلاءَها الفَضِيض)[6]، (وتكْسُو الجبالَ عمائِمَها البِيض)[7]؛ والأوديةُ قد عَجَّتْ بمائها، وفاضَتْ عند امتلائِها؛ وشمَخَتْ أُنُوفُها سُيُولا، فَخرقتِ الأرضَ وبلغَتِ الجبالَ طُولا؛ والأوحالُ قد اعتقَلتِ الطُّرُقات، ومشى المُطْلَقُ فيها مِشْيَةَ الأسِير في الحَلَقَات؛ فتجشَّمْنا[8] العَناء نحن ورجالُ العساكر، (وكابرنا)[9] العدوَّ والزمانَ وقد يُحْرِزُ الحظَّ (المكابر)[10]؛ وعلِمِ اللهُ النيةَ فأنجَدَنا بفضلِها، وضميرَ الأمانة فأعانَ على حَمْلها؛ ونزلنا منْ رُءُوس الجبال بمنازلَ كان الاستقرارُ عليها أصعَبَ من ثَقَلها، (والوقوفُ بساحتها أهونَ من نُقَلِها؛ ﴿ وأمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فحدِّث﴾)[11].

(والحمد لله الذي ألْهمَنا بنِعْمتِهِ الحديث، ونصَرَ بسيف الإسلام الذي هو سيفُه وسيفِ الاسلامالذي هو أخُونا الطيبَ على الخَبِيث؛ فمدْحُ السيفِ ينقَسِم على حدّيه، ومدْحُ الكريم يتعدّى

(1) زيادة في ب.

(2) زيادة في : ب.

(3) ب : ولا مجلسُ السيفيُّ.

(4) زيادة في ب.

(5) فيه اقتباس من قوله تعالى : ﴿لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً إلا قيلاً سلاماً سلاماً﴾ سورة الواقعة : آية 25.

(6) في أ. : مُلأها.

(7) زيادة في ب.

(8) تجشم : حمل نفسه عليه. ابن منظور : اللسان، ج1، ص 629.

(9) ب : كاثرنا.

(10) ب : المكاثر.

(11) سورة الضحى : آية 11؛ زيادة في ب.

إلى يدَيْه)[1]؛ والآنَ فالمجلسُ –أسماه الله– يعْلَم أن الفَرَنْج لا يَسْلُون عما فتَحْنا، ولا يصْبِرون على ما جَرحْنا؛ فإنهم –خذلهم الله– أممٌ لاتُحْصى، وجيوشٌ لا تُستقْصى؛ (ووراءهم من ملوكِ البحر مَنْ يأخُذُ كلَّ سفينة غَصْبا، وَيطمَعُ في كل مدينة كَسْبا)؛ (ويدُ الله فوقَ أيديهم)[2]، واللهُ محيطٌ بأقربِيهم وأبعديهم)[3]؛ و﴿سيجْعَلُ اللهُ بعد عُسْر يُسْرا﴾[4]، ﴿لا تَدْري لعَلَّ اللهَ يُحْدِثُ بعدَ ذلك أمْرا﴾[5].

وما هم إلا كلابٌ قد تعاوَتْ، وشياطينُ قد تغاوَتْ؛ وإن لم يُقْذَفُوا من كلِّ جانب دُحُورا، (ويُتْبَعوا بكلِّ شهابٍ ثاقبٍ مَدْحورا)[6]، استأسَدُوا واستكلَبُوا، وتألَّبوا وجلَّبُوا وأجلَبُوا، وحاربُوا، وحزَّبوا؛ وكانُوا لباطِلِهم الداحض، أنصَرَ منَّا لحقِّنا الناهض؛ (وفي ضلالِهم الفاضِح، أبصرَ منا لهدانا الواضح، ولله درُّ جرير حيث يقول :

إنَّ الكريمةَ ينصُرُ الكَرَمَ ابْنُها، وابنُ اللئيمةِ للِّئامِ نَصُور!)[7]

(وكَتَبَ المستخدمون بالإسكندرية وصاحب قُسْطنطينية والثغور المغربية يُنذرون بأنَّ العدوَّ قد أجمع أمراً، وحاول نُكْراً، وغضبوا زادَهم الله غضباً، وأوقدوا ناراً للحرب جعلها الله عليهم حطباً، وسَلُّوا سيوفاً للبغي لا يبعد أن يكونوا أغمادها، وتواعدت جموعُ ضلالتهم أخلف الله ميعادها. وأما نحن فبالله ندفع ما نطيق وما لا نطيق، وإليه نرغب في أن يُثَبِّتَ قلوبنا إذ كادت تزيغ قلوبُ فريق. ونحن الآن نستجذبُ أخانا، وندعوه إلى ما له دُعينا، ونؤمِّل من الله أن ينصرنا دُنيا وديناً، وأن يمدَّنا بنفسه سريعاً، وبعسكره جميعاً، وبذخره الذي كان لمثله مجموعاً، وأن يلبِّيها دعوةً؛ إما أن يطيع بها ربَّه، لأنها دعوته، وإما أنْ ينصرَ بها نبيَّه ﷺ، فإنها شريعتُه، وإما أن يعينَ بها أخاه؛ فإنها شِدَّة الإسلام لا شِدَّتُه. هذا وإن كان المجلس قد قعد عَنَّا، ولم يَعُدْنا في مرض الأجسام، فلا يقعد عَنَّا في مرض الإسلام)[8] فالبِدَارَ إلى النَّجْدة البِدَار! (فإن لم يكن الشام له بدار، فما اليمن له بدار)[9]، والمُسارعةَ إلى الجنة فإنها لا تُنالُ إلا بإيقاد نارِ الحرب على أهل النَّار؛ والهِمَّةَ الهمةَ! فإن البحار لا تُلْقى إلا بالبِحار، والمُلوكَ الكِبار لا يقِفُ في وجوهها إلا الملوكُ الكِبار :

---

(1) زيادة في ب.

(2) اقتباس من قوله تعالى : ﴿ يَدُ اللهِ فَوْقَ أيديهم﴾ سورة الفتح : آية 10.

(3) زيادة في ب.

(4) سورة الطلاق : آية 7.

(5) سورة الطلاق : آية 1.

(6) زيادة في ب.

(7) زيادة في ب.

(8) زيادة في أ.

(9) زيادة في أ.

وما هِيَ إلا نَهْضَةٌ تُورِثُ العُلَا ليَوْمِكَ ما حَنَّتْ رَوَازِمُ نيبُ!

ونحنُ في هذه السنة –إن شاء الله تعالى– نَنْزِل على أنطاكِيَةَ، وينزل ولدُنا الملك المظفَّر –أظفره الله– على (طَرابُلُس)[1]؛ ويستقرُّ الركاب العادليّ –أعلاه الله– بمصر؛ فإنها مذكورةٌ عند العدوّ –خذله الله– بأنها تُطْرَق، وأن الطلب على الشام ومصر يُفرق؛ ولا غِنَى عن أن يكُون المجلس السيفيُّ –أسماه الله– بحراً في بلاد الساحل يزْخَر سِلاحاً، ويجرِّد سيفاً يكون على ما فتَحْناه قُفْلا ولما لم يُفْتَح بعدُ مِفْتاحا؛) فإنه ليس لأحدٍ ماللأخِ من سُمْعةٍ لها في كل مَسْمع سَمْعه، وفي كل رُوع رَوْعه؛ وفي كل مَحْضَرٍ مَحْضَر، وفي كل مسجِدٍ مِنْبر، وفي كل مَشْهَدٍ مَخْبَر)[2]؛ فما يُدْعى العظيمُ إلا للعظيم ولا يُرْجى لموقف الصبر الكرِيم إلا الكرِيم هذا والأقدارُ ماضيه، وبمشيئةِ الله جاريه؛ فإن يشاءُ اللهُ ينصر على (العدوّ)[3] المضعَّف، بالعددِ الأضعف؛ ويُوصِّلْ إلى الجوهر الأعلى بالعرض الأدنى؛ فإنا لا نرتابُ بأن الله ما فتح علينا هذه الفتوحَ ليُغْلِقَها، ولا جَمَع علينا هذه الأمَة ليفرِّقَها؛ (وأن العدوّ إن خرج من داره بَطَرا، ودخل إلى دارنا كان فيها جَزَرا؛ وما بقَى إن شاء الله إلا أموالٌ تُساق إلى ناهبها، ورقابٌ تقادُ إلى ضارِبِها، وأسلحةٌ تحمَلُ إلى كاسبها، وإنما نُؤْثِر أن لا تنطويَ صحائفُ الحمد خاليةً من اسمه، ومواقفُ الرشْد خاويةً من عَزْمه)[4]؛ ونؤثر أن يُساهِم آلَ أيُّوبَ في ميراثهم منه مَوَاقعَ الصبر، ومطالع النصر؛ (فو الله إنا على أن نُعْطيه عطايا الآخِرةِ الفاخره، أشدُّ مِنَّا حِرْصا على أن نُعطِيهَ عطايَا الدنيا القاصره)[5]؛ وإنا لا يسُرُّنا أن ينقضيَ عمرُه في قتالِ غير الكافِر، ونِزالِ غير الكُفْء المناظِر؛) ولا شكَّ أن سيْفَه لو اتصل بلسانٍ ناطقٍ وفَمْ، لقال ما دُمْتُ هُناك فلسْتُ ثَمّ؛ وما هو محمول على خُطَّة يَخافُها، ولا متكلِّفٌ قضيةً بحكمنا يَعَافُها؛ والذي بيده لا نَستكْثره، بل نستقْصِره عن حقه ونستَصْغِره؛ وماناوَلْناه لفتحِ أرضه السِّلاح، ولا أعَرْناه لمِلْك مركَزِه النَّجاح؛ إلا على سخاءٍ من النفْس به وبأمثاله، على علمٍ مِنَّا أنه لا يقْعُد عنَّا إذا قامت الحرب بنفسه وماله؛ فلا نكُنْ به ظَنًّا أحسنَ منه فِعْلا، ولا نَرْضى وقد جعلنا الله أهلاً أن لا نراه لنَصْرِنا أهلا؛ ولْيستَبْشِرْ أهلَ الرشَّاد فإنهم لا يألونه حقًّا واستِنْهاضاً، ولْيَعْصِ أهلَ الغَوَاية فإنهم إنما يتغالون به لمصالحهم أغراضاً؛ ومن بيته يَظْعَن، وإلى بيته يَقْفُل؛ وهو يُجيبنا جوابَ مثله لمثلنا، ويَنْوِي في هذه الزيارة جمعَ شَمْل الإسلام قبلَ نِيَّة جمع شملنا؛ ولا تَقْعُد به في الله نهضةٌ قائم، ولا

---

(1) أ : أطرابلس، وهي نفس البلد..

(2) زيادة في ب.

(3) أ : العدد.

(4) زيادة في ب.

(5) زيادة في ب.

تخذُلُه عزمةُ عازم، ولا يستفت فيها فوت طالب ولا تأخُذُه في الله لومةُ لائم)[1]؛ فإنما هي سَفْرَةٌ قاصده، وزَجْرَةٌ واحده؛ فإذا هو قد بَيَّضَ الصحيفةَ والوجهَ والذِّكْر (والسُّمْعه، ودانَ اللهَ أحسنَ دَيْن فلا حرجَ عليه إن فاء إلى أرضه بالرَّجْعه؛ ولْيتدَبَّر ما كتبناه، وليتفَهَّم ما أردْناه؛ وليُقدِّم الإِستخاره، فإنها سراجُ الإِستتاره وليغضب لله ورسوله ولدينه ولأخيه فإنها مكان الاستغضاب والاستشارة)[2] ولْيَحْضُرْ حتّى يشاهد أولاداً لأَخِيه يستشْعِرون لفُرْقته غَمًّا، وقد عاشُوا ما عاشُوا لا يعرِفُون أن لهم مع عمِّهم عَمًّا؛ (والله سبحانه يلهمه توفيقا! ويسلُكُ به إليه طرِيقا؛ ويُنْجِدُنا به سيْفًا لرقبة الكفر مَرْقًا ودمِه مُرِيقا؛ ويجعلُه في مِضْمار الطاعات سابقاً لا مسبُوقاً)[3]

---

(1) زيادة في ب.

(2) زيادة في ب.

(3) زيادة في ب.

كتاب رقم(83)[1]

رد صلاح الدين على اعتذار أخيه عن المثول بين يديه سنة 584هـ/1188م[2]

أرسل صلاح الدين هذا الكتاب بقلم الفاضل إلى أخيه سيف الإسلام باليمن، وجاء فيه :

وكأنه بعد اعتذاره عن الحضور : المولى على حسب اختيارِهِ، وإن سار فمثله من سار وسَرَّ، وقاد الجيش وجَرَّ، ونفع الوليَّ وضَرَّ العدوَّ الذي أضَرَّ، وإن أقام فالعُذْرُ الذي أقعده، وإشفاق السلطان –عَزَّ نَصره– الذي رَدَّه عن وجهه، والرأي الذي رَدَّدَه، فلا يكن في صدره من الأمرين حَرَج، ولا يَخَف استقصار عزمه إن رَكَدَ أو خرج، فمكانه مكانه من القلب، وودُّه وُدُّه، وله من اللِّسان حَمْدُه، وهو سيف الإسلام إن ضُرِبَ بحدِّه، أو صِيْنَ في غمده، لا زال المولى منوَّهاً باسمه، وَمُرَفَّهاً في جسمه، ومجرِّداً سَيْفَ عزمه، وسعيداً بحكم التوفيق فلا خرج التوفيق عن حُكْمه.

---

(1) أبو شامة : الروضتين، ج4، ص 57.

(2) بعث صلاح الدين إلى أخيه سيف الإسلام صاحب اليمن رسالتين شرح فيهما فتوحاته لصفد وكوكب والكرك وحصونه من قبل، ويدعوه فيها للحضور إليه لمؤازرته في ظل المعلومات المتواردة عن غضب الأعداء من فتوحاته ورغبتهم في الانتقام. أبو شامة : الروضتين، ج4، ص54–57.

كتاب رقم (84)[1]

وصف بعض المعارك مع الفرنج خلال حصارهم لعكا 585هـ/1189م .

أرسل صلاح الدين هذا الكتاب بقلم الفاضل، وجاء فيه :

فاستدارت بهم رجال الجاليشية[2]، تقذف شياطينهم بشهابها، وتهوي إلى أوكار أفئدتهم طيرُ نُشَّابها، وتُجْنيهم من القَنَا والنُّشَّاب[3] ثمر الرَّدى متشابهاً، وقد ارتفع الإسلامُ إلى درجاتٍ سيذكر أمرها، وانخفض الكفر إلى دركات سيمرُّ ذكرها، فالنَّصْر خافق علمه، وكتاب البشارة قد استمدَّ قلمه، وقد وثقنا بلطف الله تعالى فيما يأتي، فتأهبت الخواطر لمعاني المسارّ، وأعدَّت ألفاظ البُشْرى المهداة إلى كافة البَشَر من الاستبشار، فإنَّ الفرنج محصورون، والنَّازل المحصور كالمركب المكسور، والنَّصْر قد أعرب لعسكر الإسلام، والكفر جار ومجرور.

---

(1) أبو شامة : الروضتين، ج4، ص 85-86.

(2) الجاليشية : الجاليش راية عظيمة في رأسها خصلة في الشعر. البقلي : التعريف بمصطلحات الأعشى، ص81.

(3) النُّشَّاب : النبل المعجم الوسيط، ج2، ص921.

كتاب رقم (85)[1]

سرور الفاضل بسلامة السلطان في معارك عكا 585هـ/1189م [2]

أرسل الفاضل هذا الكتاب إلى العماد الكاتب، وجاء فيه :

وعرفت ما جرى على قضيته، فسبَّحتُ الله تعالى، فإن من عجائب قُدْرَتِهِ سلامة سَيِّدنا على ضَعْف حركته، والأمر كان عظيماً، والمدفَعُ أعظم، والسَّلامة كانت غريبة إلا أن نقول : ولكنَّ الله سَلَّم، والسُّلْطان –أَعَزَّه الله– إذا سَلِمَ فكلُّ النَّاس قد سَلِموا، وإذا وجد وقد عدم النَّاس كلهم فقد وُجدُوا وما عُدموا، وكلُّ جوهر بالإضافة إلى عَرَض، وهو جوهر بالحقيقة ما عنه من كلِّ جوهر عَرَض.

(1) أبو شامة : الروضتين، ج4، ص 100.

(2) أصيب صلاح الدين بمرض القولنج بعد الانتهاء من معركة عكا ضد الفرنج سنة 585هـ/1189مـ، وأصابه المرض بسبب العدد الكبير الذي قتل من الفرنج، وجافت الأرض من نتن ريحهم وفساد الهواء والجو، مما عكر الأمزجة وأفسدها، فأشار عليه الأمراء والأطباء بالانتقال لمكانٍ آخر، ففعل بما أشار عليه من حوله حتى شفاه الله. ابن شداد : النوادر، ص178؛ ابن الأثير : الكامل، ج12، ص39– 41.

كتاب رقم (86) [1]

استنجاد صلاح الدين بملك المغرب[2] سنة 585هـ/1189م [3]

أرسل صلاح الدين هذا الكتاب بقلم الفاضل إلى ملك المغرب خلال حصار عكا مستنجداً فيه ضد الصليبيين، وجاء فيه :

"فتح الله بحضرة سيدنا أمير المؤمنين، وسيد العالمين، وقسيم الدنيا والدِّين؛ أبوابَ المَيَامِن، وأسبابَ المَحاسِن؛ وأحَلَّه من كفايته في الحرَمَ الآمن، وأنجزه من نُصْرَةِ الحق ما اللهُ له ضامن، وأصلَحَ به كلَّ رَأيِ عليه الهوى رائن[4]؛ ومكَّن له في هذه البَسِيطة بَسْطه، وزاده بالعِلم غِبْطه؛ حتّى يكونَ للأنبياء بالعِلم وللأرض بالعزم وارِثاً، وحتّى يُشَيِّد بحادثٍ قديماً من مجده الذي لا يزال بفَضِّ الحديث حادثاً.

كان من أوائل عَزْمنا وفواتح رَأْينا عند وُرُودنا الديارَ المصريةَ مفاتحةُ دولة سيدنا، وأن نتيمَّن بمكاتبتها، ونَتَزَيَّن بمخاطبتها؛ ونُنْهِضَ إليها أماثِلَ الأصحاب، ونستَسْقِيَ معرِفَتَها استسقاء السَّحاب؛ ونَنْتَجِعَها[5] بالخواطر ونجعل الكُتبَ رسُلَها، وأيديَ الرسل سُبُلَها؛ ونُمْسِكَ طَرَفاً من حَبْل الجهاد يكونُ بيد حضرة سيدنا العاليةِ طَرَفُه، ونَمْسَح غُرّة سبقٍ وارثُها ووارثُ نُورها سلَفُه؛ ونتجاذبَ

---

(1)القلقشندي : صبح الأعشى، ج6، ص526– 530

(2) المقصود به المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي ويكنى بأبي يوسف، ينتمي لدولة الموحدين، أمه رومية واسمها ساحر، بويع له في حياة أبيه وكان له من العمر اثنان وثلاثين عاماً، حكم ستة عشرة سنة وثمانية أشهر، توفي سنة 595هـ، عن عمر أربعة وثمانين عاماً. المراكشي : المعجب، ج1، ص261.

كان صلاح الدين قد أرسل إلى الملك المنصور هدية كبيرة تشتمل على مصحفين، ومائة درهم من البلسان، وعشرين رطلاً من العود وستمائة مثقال من المسك والعنبر، وكتب إليه كتاب يبدأ من صلاح الدين إلى أمير المسلمين، فغضب الملك المنصور لأنه لم يناديه بأمير المؤمنين بدلاً من المسلمين، لكنه هناك ما يفند ذلك بدليل أن المنصور يعقوب أرسل مائة وثمانين سفينة وحال دون وصولها استيلاء الفرنج على سواحل الشام، ودلل ابن خلدون على ذلك بتفوق ملوك المغرب على ملوك المشرق في إنشاء الأساطيل الجهادية، بالإضافة إلى ان يعقوب كان على أهبة الاستعداد لحرب النصارى في الأندلس.ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ج6، ص490؛ الصلابي: صلاح الدين ، ص591.

(3) اجتمع سنة 585هـ/1189م .، فرنج صور وساروا إلى مدينة عكا فأحاطوا بها، وحاصروها من كل جانب، فعندما بلغ صلاح الدين خبرهم سار إليهم من دمشق مسرعاً، فرأى المناعة والحصانة التي تحصنوا فيها، ورأى الآلات والأمتعة تفد إليهم من البحر في كل وقت، وفي العشر الأخير من شعبان برز الفرنج من مراكبهم في نحو ألفي فارس وثلاثين ألف راجل، فاقتتلوا مع جيش صلاح الدين، ولما انتهت المعركة انتقل صلاح الدين إلى مكان بعيد عن رائحة القتلى، فانتهز الفرنج ذلك وقاموا بحفر خندق من البحر حول مخيمهم، فقويت شوكتهم على المسلمين، فأمام هذا الخطر، أرسل صلاح الدين إلى جميع الملوك يستنفر ويستنصر. ابن كثير : البداية والنهاية، ج12، ص355– 356.

(4) رائن : مُغطٍ. ابن منظور : اللسان، ج8، ص232.

(5) ننتجعها : من النجعة وهي طلب الكلأ والخير. ابن ادريس : المحيط في اللغة، ج1، ص261.

أعداء الله من الجانبين، لا سيما بعدَ أن نُبْنا عنه نِيابَتَيْنِ في نَوْبَتَيْن : فالأولى تطهيرُ الأَرْضَيْنِ المصريَّة[1] واليمنيَّة[2] من ضلالة أغضَتْ عيونَ الأيَّام على قَذَاها، وأنامَتْ عُيونَ الأنام بائعةً يقظَتَها بكَرَاها؛ ونيابةٌ ثانية في تطهير بيت المَقْدِس ممن كان يُعارِض برِجْسه تقديسَه، ويُزْعج ببناء ضَلاله تأسيسه؛ وما كان إلا جَنَّةَ إسلام فَخَرج منها المسلمونَ خُروجَ أبيهم آدمَ من الجَنَّة، وأعقبهم فيها إبليسُ الكفرِ وما أجارته مما أعْقَبه اللَّعْنة، وما كانتْ لنا بذلك قوة بل لله القوة، ولا لنا على الخلق مِنَّة بل لله المنَّة.

ولما حُطِّمت لِدِين الكفرِ تيجان، وحُطَّت لذويه صُلْبان؛ وأَخْرسَ الناقوس الأذانُ؛ ونَسخَ الإنجيلَ القرءانُ؛ وفُكَّتِ الصخرةُ من أَسْرها، وخَفَّ ما كان على قَلْب الحجر الأسود بِخفَّة ما كان على ظهرها؛ وذلك أن يَدَ الكفر غطَّتْها وغمرتْها، فلله الحمدُ أنْ أحرمت الصخرةُ بذلك البُنْيان المُحيط، وطَهَّرها ماطرٌ من دمِ الكُفْر وما كان ليُطَهِّرها البحرُ المحيط؛ فهُنالك غُلِب الشركُ وانقلب صاغراً، واستجاشَ كافرٌ من أهله كافراً؛ واستَغْضَب أنفاره النافِرة، واستصرخَ نَصْرانِيَّته المتناصرة؛ وتظاهَروا علينا وإن اللهَ مَوْلانا، وطاروا علينا زُرافاتٍ[3] ووُحْدانا، فلم يبق طاغيةٌ من طواغيتهم، ولا أُثْفِيَّة[4] من أثافيهم، إلا أَلْجَم[5] وأَسْرَج[6]، وأجْلَبَ وأرهج، وخَرج وأخرج، وجاد بنَفْسه أو بولده، وبعَدَده وبعُدده؛ وبذا تصدره وبذاتِ يَدِه، وبِكتائبِه بَراً، وبمَرَاكبه بحراً؛ وبالأقوات للخَيْل والرِّجال، والأسلحةِ والجُنَن لليمين والشِّمال؛ وبالنقدين على اختلاف صِنْفيهما في الجمع، وائتلاف وَصْفَيْهما في النَّفْع؛ وأنهضَ أبطالَ الباطل، من فارسٍ وراجِل؛ ورامح ونابِل، وحافٍ وناعِل، ومُواقِف ومقاتِل؛ كلٌّ خرج متطوِّعاً، وأَهْطَع مُسْرِعاً، وأتى متبَرِّعاً، ودعا نفسه قبل أن يُستَدْعى؛ وسعى على حَتْفها قبل أن يُسْتسْعى؛ حتّى ظنَنَّا في البحر طريقاً يَبَساً، وحتّى تَيقَّنَّا أن ما وراء البحر قد خَلاَ وعسا؛ وقلنا : كيف نَتْرك، وقد علم أنه يُدْرَك؛ وزادت هذه الحُشُود المتوافية، وتجافَتْ عنها الهِمَمُ المتجافية؛ وكَثُرت إلى أن خرجَتْ من سجن حَصْرها، ومستَقَرِّ كُفْرها، وبقِيَّةِ ثَغْرها –وهو صور– فنازَلَتْ ثغرَ عكَّا في أسطول مَلك بَحْره، وجمع سَلَكَ بَرّه –فنهضنا إليه، ونزَلْنا عليهم وعليه؛ فضَرب مَعَنا

---

(1) يقصد إسقاط الخلافة الفاطمية في مصر والخطبة فيها للخليفة العباسي سنة 567هـ/1172م. ينظر أبو شامة : الروضتين، ج2، ص198، 199.

(2) يقصد القضاء على حكم عبد النبي صاحب اليمن والخطبة فيها للخليفة العباسي سنة 569هـ/1174م . ينظر أبو شامة : الروضتين، ج2، ص271.

(3) زُرافات : جماعات من الناس.المعجم الوسيط، ج1، ص392.

(4) الأُثْفِيَّة : ما يوضع عليه القدر. ابن منظور : اللسان، ج1، ص490–491.

(5) ألجم : يعني لجام الدابة، وهو عصا أو حبل تدخل في فم الدابة. ابن منظور : اللسان، ج4، ص4001.

(6) السرج : هو رحل الدابة. المصدر نفسه، ج2، ص1983.

مَصَافَّ قُتِّلَتْ فيه فُرسانُه، وجُدِّلتْ[1] شُجعانُه، وخُذِلت صُلْبانه؛ وساوى الضربُ بين حاسِرٍ[2] القوم ودارعهم[3]، وبَرَز الذين كُتِبَ عليهم القَتْلُ إلى مَضَاجِعِهِمْ[4]؛ فهُنالك لاذُوا بالخَنَادق يَحفِرُونها، وإلى الستائر يَنْصِبُونها؛ وأخْلَدُوا إلى الأرض متثاقِلين، وحَمَلُوا أنفُسَهم على الموت متحاملين، وظاهَرُوا بين الخنادق، وراوَحُوا بين المَجانِق؛ وكلما يُجِنُّ القتلُ من عددهم مائةً أوصلها البحر ممن يَصِل وراءه بألف، وكُلَّما قلُّوا في أعيننا في زحف، وقد كَثُروا فيما يَليه من الزَّحْف؛ ولو أن دُرْبة[5] عساكرنا في البحر كدُرْبتها في البر، لعَجَّل اللهُ منهم الانتصاف واستقَلَّ واحدُنا بالعشرة ومائتُنا بالألف؛ وقد اشتهر خروجُ ملوكِ الكُفَّار[6] في الجمع الجَمّ، والعدد الدُّهْم[7]؛ كأنَّهم إلى نُصُبٍ يُوفِضُون، وعلى نارٍ يُعْرَضُون؛ ووصولهم على جهة القسطنطينية –يسر الله فتحها– على عزم الائتمام إلى الشام في مُنْسَلَخ الشتاء ومستهَلِّ الصيف، والعساكُر الإسلاميةُ لهم تستَقْبِل، وإلى حربهم تنتقل؛ فلا يُؤْمَن على ثغور المسلمين أن يتطرَّق العدُوُّ إليهم وإليها، ويفْرُغ لها ويتَسَلَّط عليها؛ واللهُ مِنْ وَرَائِهم مُحيط، وإذا قُسِمت القوةُ على تلقِّي القادم وتَوَقِّي المُقِيم؛ فرُبَّما أضر بالإسلام انقسامُها، وثَلَمه[8] والعياذُ بالله انْثِلامُها.

ولما مَخَض النظرُ زُبْده، وأعطى الرأيُ حقيقَةَ ما عنده؛ لم نَرَ لِمُكاثَرة البحر إلا بحراً من أساطيله المنصورة فإنّ عددَها واف، وشَطْرها كاف؛ ويمكنُه –أدام الله تمكينَه– أن يَمُدَّ الشامَ منه بعَدَّ كَثِيف، وحَدَّ رَهِيف، ويعهَدَ إلى واليه أن يُقِيم إلى أن يُرْتَبَع وَيِصيف؛ ويمكنه أن يَكُفَّ شطرا لأُسْطول طاغيةِ صِقِلِّيَّة ليَحُصَّ[9] جناحَ قُلوعه أن تَطِير، ويَعْقِل عُبَابَ[10] بحرِه أن يُغِير، ويعتَقِلَه في جزيرته، ويَجْري إليه قَبْل جَرِيرته؛ فيَذْهبَ سيدُنا وعقبُه بشَرَفِ ذِكْرٍ لا تُردُّ به المحامدُ على عَقِبها، ويُقِيمَ على الكفر قيامةً يُطْلِعُ بها شمسَ النصر من مَغْرِبها؛ فإذا نَفَذ طريقُه وعلم الناس بمَوْفِدِه، أوْرَدُوا وأصدَرُوا في مَوْرِده؛ وشخصَ المسلِمُ والكافرُ : هذا ينتظرُ بُشْرى البِدَار، وهذا يستَطْلِع لمن تكونُ عُقْبى الدار؛

---

(1) جُدلت : فتلت واشتدت. المصدر نفسه، ج11، ص103.

(2) حاسر : من لا درع عليه. المصدر نفسه، ج1، ص868.

(3) دارعهم : لابسي الدروع والحديد. المصدر نفسه، ج1، ص1261.

(4) اقتباس من قوله تعالى : "قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم" سورة آل عمران، آية 154.

(5) الدربة : العادة والجرأة على الحرب. ابن منظور : اللسان، ج2، ص 1350.

(6) يقصد الإمبراطور الألماني فردريك باربروسا.

(7) الدُّهم : العدد الكثير الضخم. ابن منظور : السان، ج12، ص211.

(8) ثلم : أي انكسر وتخلل. ابن منظور : اللسان، ج1، ص502.

(9) ليحص : يحلق ويقص. ابن منظور : اللسان، ج7، ص13.

(10) عُبَاب : كثرة الماء.ابن منظور : اللسان، ج3، ص2774.

وخاف وطْأَة مَنْ يصلُ من رجال الماء مَنْ وصلَ من رجال النار. ولو بزقَتْ عليهم بازقةٌ غربِيَّة لأغرقهم طُوفانُها، ولو طلعت عليهم جاريةٌ بحرِيَّة لنَعَقتْ[1] فيهم بالشَّتات غِرْبانُها.

وما رأينا أهلاً لهذه العَزْمة إلا حضرةَ سيدنا أدام الله صِدْق محبة الخيْرِ فيه، إذ كان منحه عادة في الرضى به وقُدرةً على الإجابة، ورَغْبةً في الإنابة؛ ولاية لأمر المسلمين، ورياسة للدُّنيا والدين، وقياماً لسلطان التوحيد القائم بالموحِّدين؛ وغَضَباً لله ولدينه، وبَذْلاً لمَذْخُوره في الذبِّ[2] عنه دون ما عوده؛ والآنَ قد خَلاَ الإسلام بملائكته، لما خَلاَ الكفرُ بشياطينه؛ وما أُجلت السوابقُ إلا لإطلاقها، ولا أُثِّلت الذخائرُ إلا لإنفاقها؛ وقد استشرف المسلمون طُلوعَها من جهته المحروسةِ جاراً من الأساطيل تغشى البِحار، وليالِيَ من المراكب تركَبُ من البحر النَّهار؛ وإذا خفقَتْ قُلوعُها خَفَقت للقِلاع قُلوب، وإذا تجافَتْ جُنوبُها عن المَوْج تجافَتْ من الملاعين جُنُوب؛ فهي بين ثَغرِ كُفْر تعتَقِله وتحصُره، وبين ثغر إسلام تُفَرِّج عنه وتنْصُره، يكون بها مصائبُ عند المسلمين، وتَظَل قلائُد المشركين لِغْربان بحره طَرَائِد، ويمضي سيفُ الله الذي لا يَعْدَم في كل زمان فيُعلَمُ معه أن سيف الله خالد؛ أعزَّ الله الإسلامَ بما يزيد حضرةِ سيدنا من عِزِّها، فيما مدّ عليها من ظلها، وبما يُسْكِنُه من حرْزها، فيما يَبْسُط على الأعداء بها من بأسها ويُنْزِل بهم من رجزها، وبما يجرده من سيوفها التي تقطع في الكفر قبل سَلِّها وهزها.

---

(1) نعقت : صاحت وزجرت. ابن منظور : اللسان، ج5، ص4476.

(2) الذبِّ : الدفاع. ابن منظور : اللسان، ج2، ص1483.

كتاب رقم (87)[1]

رسالة صلاح الدين إلى الإمبراطور الألماني[2]

أرسل صلاح الدين هذا الكتاب بقلم الفاضل إلى أبو الطاهر ابن قاضي عكا للسير رسولاً إلى الإمبراطور الألماني، وجاء فيه :

قدِّمِ استخارةَ اللهِ تعالى وإضمارَ يقينِه، واعلم أَنَّك عن المسلمين رسولٌ، وللدينِ لسانٌ، فأحسِنِ الأداءَ والاستيداءَ، وَأَظْهِرِ النّزاهةَ الّتي هي سلاحُ الأعداءِ، وأَنتَ عنوانٌ لمن سَيَّرَكَ، وعينٌ لمن سَفَّرَك، فعظِّم مقدارَ مَلِكِ الإسلام بما يَرَوْنه من إبائِكَ، وسديدِ آرائِك، وحضورِ حسِّك، وَنزاهةِ نفسِك، واللهُ يوفِّقُكَ وَيسدِّدُكَ. وَيَعْضُدُكَ وَيُرْشِدُكَ[3].

المهُّم الذي نُدِبْتَ لِسَبَبِه ما نذكرُه لكَ، وهو أَنَّ رسولَ ملكِ الألمانِ حضرَ بخطابٍ خطبَ فيه المودّةَ وأراد فيه الصداقة، وادَّعى رغبتَه في المحبّةِ والموافقة، فلمَّا أَردنا أن ننُدبَ رسولاً من رجالِنا، ونُسَيِّرَ هديّةً من خزائِنِناَ، ذكرّ لنا جماعةٌ من الجِنْوِيِّين أَنَّ هذا الرسولَ لا صحةً لرسالتِه، ولا حقيقةً لمكانتِه، وخُوطبَ من حضَر من الجِنْوِيِّين في تدارُكِ أمرِ الرسولِ الذي يُسَيَّر، وحراستِه في طرائقِه إذا وردَ وإذا صدَرَ، فظهر منهم توقُّفٌ، ما عُلِمَ : هل وراءَه العجزُ عن حفظِه، أَو الكراهةُ لمسيرِه؟ وقد كُتِبَ على يدِك كتابٌ إلى شيوخ الجنْوِيِّين، مضمَّناً أَنكُم تعلمُون أَنَّ رسُلَ الملوكِ يجبُ إظهارُ رسالاتِهِم وكراماتِهِمْ، وأَنَّ هذا الرّسولَ وردَ إلى حضْرَتِنا على يدِه كتابٌ ذكرَ أَنَّه من ملكِ الألمانِ، وكتابٌ منهم يشهدُ له بالرسالةِ، ويثبتُ صحّةَ وصولِه عن تلك الجهةِ، ووقفْنا على كتابِه، فوجدْنا ما فيه من الوصيّةِ بصغيرِكم وكبيرِكم، والسّؤالِ في ورودِكم وصُدورِكم، والرغبةِ في تسهيلِ مقاصدِكم وتيسيرِ أمورِكم، ولمَّا أَقام الرّسول المشارُ إليه في كرامتِنا المستمرّةِ، ورسومِ إحسانِنا المستقِرّةِ، وعوَّلَ على الرجعةِ رغبَ في رسولٍ يعودُ بعودتهِ، ويحملُ مكاتبةً يُجَابُ بها عن مكاتبتِه، فسيَّرنا القاضيَ السَّديدَ أَبا الطَّاهِرِ اسماعيلَ ابنَ عبدِ العزيزِ، ابنِ قاضي عكّا إلى بلادِكم، فإنْ كانت الرّسالةُ صحيحةً، والطّريقُ مسلوكةً والأخطارُ مأمونةً، والسَّلامةُ من العدوِّ بمشيئةِ الله مضمونةً، فاعتمدوا ما يُشكَرُ لكم، ويُعْرَفُ من خدمتِكم، وتَجْنُونَ ثمرتَه من إنعامِنا، وتتقدَّمُون به في أَيّامِنا، وهو أَن تُسَفِّرُوه مكرَّماً، وتُسَرِّحُوه إلى حيثُ ملكُ

---

(1) عبد الظاهر : الدر النظيم، ص 37- 42.

(2) وهو إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة فردريك باربروسا (1152-1190م). للمزيد ينظر عمران: معالم تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص205-207. يرجح أنَّ الرسالة أرسلت في العام 585هـ/1189م، حيث أن الإمبراطور الألماني خرج من ألمانيا في العام 585هـ/1189م، ووصل إلى مشارف الشام، حيث توفي عند الحدود الأرمينية 586هـ/1190م، وقد خرج فردريك من ألمانيا في سياق الحملة الصليبية الثالثة، وكان أول من بادر بالخروج، حيث اتخذ طريق البر، ومرَّ بأوروبا الشرقية ثم الأراضي البيزنطية، حيث وقعت الصدامات إلى أن اجتاز الأراضي البيزنطية باتجاه الأراضي السلجوقية، وتعرض الكثير من رجاله للموت نتيجة الهجرة، أو الجوع، وتمكن من دخول قونية عاصمة السلاجقة، ثم غادرها باتجاه الشام بعد أن بعث الرهائن، لكنه توفي في الطريق بعد أن غرق في نهر السالف. الذيل، ص 163-173.

(3) هذه التوصيات تتضمن وصايا قيمة تصلح لتأهيل السفراء والمبعوثين وخاصة المسلمين منهم.

الألمانِ موقَّراً مسلَّماً، وتخْتارُوا له الرّفيق، وترتادُوا له الطريقَ، وما سارَ إلا في صحبتِه، لأنه لا قصدَ لنا في سفرِه إلاَّ ألاَّ يُسْقِطَ الحِشْمَة، ولا يُضِيعَ حُرْمَة؛ وإنَّا نظرْنا في قدرِ ما يُهدى إليهِ، وعجزْنا عن رسولٍ يَفِدُ عليه، ولا يَخْفى عليكم أنَّ بلادَنا من بلادِه بعيدَة، وجهتَه من جهتِنا غيرُ مقصودَة؛ وإن تحقَّقْتُم أَنَّ هذه الرسالةَ من غير بلادِ الألمانِ، وهذه المكاتبة من غيرِ ملكِهم، وتبيَّنْتُم ذلكَ للرَّسولِ بوجهٍ صحيحٍ، وحقٍّ صريحٍ، فقد سُيِّرَ على يدِ رسولِنا من البضاعةِ ما يُتَعَوَّضُ به حاجاتٌ رسَمناها، ومطالبُ استدعيْنَاها، فساعِدُوه على ابتِياعِها، وعاضِدُوهُ على اجتماعِها، ورافِدوه على تَخَيُّرِ أنواعِها، فإنَّها إذا وصَلَتْ وهي موافِقَةٌ لأغراضِنا، ومُسْتَصْلَحَةٌ لخَزائنِنا، كنتُم المشكورين، بالقيامِ بالخدمةِ، المستوجبِين لمضاعَفَةِ ما بكُم مِنَّا من نِعْمَةٍ، وبِأَخْذِ البلادِ الدّاخلةِ تحت أَحكامِ الجِنْوِيِّين.

إذا قدِمتَ عليهِ، فأَوْصِل الكتابَ المسلَّم من جهتِنا إليكَ إليهِ، واذكرُ سلامَنا عليه؛ وإذا فاوضَك فيما أظهَرهُ من مودَّةٍ، وما أضمرَه من محبّةٍ، فأَعْلِمْهُ أَنّ مكاتَبَتَهُ قبلناها، ورسالَتَه أَعظَمْنَاها، وأَنَّا له كما يكونُ الصّديقُ للصّديقِ، والشّفيقُ على الشّفيقِ، وما يضرُّنا تباعُد البلادِ، إذا تقارَبت القلوبُ بالودادِ، وأَنَّ قدرَهُ لا يُجْهَل، ومكانَه من المملكةِ مرتَّبٌ في الصّدرِ الأوّل؛ فأَوْصِل إليه ما صَحِبَكَ : من هديَّةٍ قد سُلِّمَتْ بها الورقةُ إليكَ، وأَعْلِمْه إنّ الملوكَ تتهادَى لتدلَّ على صفاءِ أسرارِها، لا لتدلَّ على علوِّ أَقدارِها، ولو نُفِّذَ إليه بحسبِ الاستحقاق لَمَا وسعتْه الأيدِي ولا الخزائن، ولكن المعوَّلُ على ما هوَ في القلوبِ راهن؛ وإنْ سأَلَكَ عن أَحوالِنا، وقضايَا الأمورِ التي أَجراهَا اللهُ على آمالنا، فاذكرُ له ما لدوْلَتِنا من السِّيرةِ العادلة، ولأيَّامِنا من إقامةِ قوانينِ الدّينِ التي كانت زائلة، وما لعساكرِنا من القوّةِ والنّجدةِ، والعِدَّةِ والعُدَّةِ، وما لأَخْلاقِنا: من الوفاءِ بالعهودِ، وَالبَقاءِ على العقودِ، والمعاملةِ بالصدقِ، والإيثارِ للحقِّ، وأَشِرْ إلى نوبةِ دمياطَ[1] وما فعلَه صاحبُ القسطنطينية من إنجادِ صاحبِ الشّامِ، وكلاهُما كانَ في عَقدٍ من التَّوادُدِ والمصادقةِ، وتحتَ توثِقَةٍ من المجاملةِ والموافقةِ، وأَنّهما جمعاَ الخلائقَ التي لا تُحْصَى، والأممَ التي انتَهوْا في تكثيرِها إلى الأمدِ الأقْصى، وأَحْشَدَا برَّا وبحراً، وركبا ظهراً، فنصَرَنا اللهُ تعالى بلطفِه، وأَخرَجْناَ ملكَ الشامِ بالرغم من أَنفِه، واذْكُر له وصولَ ملكِ القسطنطينيةِ مرَّةً بعد أُخرَى يخطبُ سَلْماً، ويقرِّرُ من المودّةِ حكْماً، وأَنَّا أَعدْنا بعضَ رُسُلِه بغيرِ إجابةٍ عما وردَ منْه، ولا رسالةٍ عما أَرْسَلُوا به عنْه؛ لأنَّا لم توافِقناَ مودّةُ من لا يحفظُ عقدَه، ولا يوفِّي عهدَه، وظنَّ أَنَّا مِمَّنْ يَرُوجُ عليه الباطلُ، ورأَيْنا استطالةً ما وراءَها طائلٌ، وعلمنا أَنَّ ملكَ الشامِ قد استندَ إليهِ، واكتفى به واقتصرَ عليه، ونفَض من بقيّةِ ملوك دينهِ يديْهِ، فأوردْنا أَن نُعْلِمَ ملكَ الشّامِ أَنَّا لا نفكّرُ فيه ولا فيمن عول عليه، وهذا مكانُ ذكرِ غَدَرَات المذكورِ وفجُورِه، وكذِبِه وزُورِه، وخديعتِه لكلِّ من يستنجد به وغرورِه، وأَنّه يخرجُهم من أوطانِهم وأموالِهم، ويُبْرِزُهُم إلى مصارِعِهم، للجرائرِ[2] التي يَجُرُّها والجناياتِ التي يجنيها، وذلكَ أَشْهَرُ من

---

(1) يقصد الحملة الصليبية البيزنطية على دمياط سنة 564هـ/1169م، والتي حاصر خلالها الصليبيون والبيزنطيون دمياط، لكنهم فشلوا في احتلالها بفضل تحصين المدينة، وصمود أهلها، وإمدادات صلاح الدين ، وغارات نور الدين على قلاع الفرنج في الشام، والخلاف بين الصليبيين والبيزنطيين حول مستقبل المدينة بعد احتلالها. أبو شامة : الروضتين، ج2، ص130-132.

(2) الجرائر : الجنايات. ابن إدريس : المحيط في اللغة، ج6، ص401.

الشَّمسِ في الصباحِ، وأَظْهَرُ من أن يُحْتاجَ فيه إلى استِيضاَحٍ، وأنتَ عالمٌ بكل ما يُحْتَاجُ إليهِ في إنشاءاتِ الأساطيل المُظفَّرةِ، فمهما وحدتَه من معدومِها، أو ما قلَّ جَلْبُه منهاَ، فابتَعْهُ وسَيِّرْهُ، واللهُ يُهِيبُ بكَ إلى سواءِ السبيلِ، ويكونُ لك دليلاً إذا ضلَّ الدّليلُ، ووكيلاً لنا على إرشادِك وهو حسبُنا ونعمَ الوكيلُ، والحمدُ للهِ ربِّ العالمِين[1].

(1) هذا الكتاب مهم للغاية لأنه ينفرد بالإشارة إلى رسائل متبادلة بين صلاح الدين والإمبراطور الألماني.

كتاب رقم (88)[1]

استنصارُ صلاحُ الدين بالخليفةِ العباسي586هـ/1190م ، لمواجهة الحملة الصليبية الثالثة[2]

أرسلَ صلاحُ الدين هذا الكتابَ بقلم الفاضل إلى الخليفة العباسي الناصر لدين الله، وجاء فيه :

(أدامَ اللهُ ظلَّ الديوانَ العزيز النبويّ، الإماميِّ الشريفِ الناصريّ؛ ومَدَّه على الأمةِ ظليلا، وجعلَ الأنوارَ عليه دليلاً؛ وحاطَهُ بلُطْفه وتقبلَّ أعمالَهُ بقبولٍ حسنٍ وأنبتها، وأرْغَم أعداءه وكَبتها، ومسَّها بعذابٍ من عنده وسَحَتها؛ ولازالتْ رايتهُ السوداءُ بيضاءَ الخبَر، محمرَّة المَخْبَر في العُدَاة مسْوَدَّة الأثَر.

ورد على الخادمِ ما كُوتِب به من الديوان العزيزِ رائِداً في استخلاصه، مُبَرْهِناً عن اختصاصه؛ مُطْلِقاً في الشُّكْر للِسانِه، وفي الحَرْب لِعِنانِه؛ ومقْتَضِيا لأُمْنيَّةٍ كان يتهيَّبُها، ومُفِيضًا لمَكْرُمة لو سمَتْ نفسُه إليها كان يتهمها؛ فللهِ هو! من كتابٍ كأنَّه سورةٌ وكلُّ آيةٍ منه سَجْده، قابَلَه بالخُشُوع كأنما قلَمُ الكِتَابِ القضيبُ وطِرْسُه[3] البُرْده؛ وتَلَاه على من قِبَلَه من الأولياء مستَرْهِفًا به لعَزَائمهم، مستَجْزِلاً به لمَغَانمهم؛ مستثبتًا به للازمهم، مستدْعِيا به الخدمة للَوَازِمهم؛ مُرْهِفًا به ظُباهم في القتال، فاسِحًا به خُطَاهم يومَ النِّزال؛ فأثَّر فيهم كالاقتداحِ في الزَّنْد، وكالانْبجاسِ من الصَّلْد، وكالاستِلَالِ من الغِمْد؛ فشمَّرَ مَنْ كان قد أسْبَل، وانتهى مَنْ كان قد أجْبَلْ؛ وكأنَّما أُعْطُوا كتاباً من الدَّهر بالأَمَان، أو سمِعُوا منادياً يُنادي لِلْإيمان؛ وقالوا : سَمِعْنا وأطَعْنا، وعلينا من الخِدْمة ما استطَعْنا؛ هذا مع كونِهِم أنْضاءَ زُحُوف، وأشْلاءَ حُتُوف، وضَرَائبَ سُيُوف؛ وقد وسَمتْ وُجوهَهُم علاماتُ الكِفَاح، وأحالَتْ عرضهم أقلامُ الرِّماح؛ صابرين مُصابِرِين، مُكاثِرين مُكابِرِين، مُناضِلين

---

(1) أبو شامة : الروضتين، ج4، ص 140-141 (أ)؛ القلقشندي : صبح الأعشى، ج7، ص 126- 130 (ب).

(2) أثارت فتوحات صلاح الدين عامة وفتح بيت المقدس خاصة ردة فعل عنيفة في دول أوروبا ضد الإسلام والمسلمين؛ فانطلقت الصيحات العالية في أوروبا مجدداً تطالب بالقضاء على صلاح الدين واسترداد بيت المقدس، وطافوا ببلدان النصارى وذكروا ما جرى على أهل القدس، وأهل السواحل، من القتل والسبي، وخراب الديار، وتصوير صورة المسيح وصورة عربي آخر يضربه، لاقت تلك الصيحات ردة فعل إيجابية من قبل الملوك والأمراء والبارونات حتى من عامة الناس، وكان على رأس الملوك ملك انجلترا" ريتشارد" وملك فرنسا" فيليب أوغست" وملك ألمانيا" فريدريك بربروسا" تحركت تلك الجموع الغفيرة من أوروبا قاصدةً بلاد الشام مع الإمدادات الضخمة التي وصلت إلى بلاد الشام لتكون عوناً لهم في حربهم مع المسلمين، فبدأت الحملة أعمالها بحصار مدينة عكا وتكثيف الهجوم عليها حتى سقطت في أيديهم بعد قتال شديد بينهم وبين قوات صلاح الدين سنة 587هـ/1191م. ابن شداد، النوادر : ص 155، 156؛ ابن كثير : البداية النهاية، ج12، ص357.

(3) طرسه : ممحاته. الزبيدي : تاج العروس، ج16، ص201.

مُناظِرين؛ قد قامُوا عن المسلمين بما قَعدَ عنه سائِرهُم، ونزلُوا بقارِعة القِرَاع[1] فلا يَسِيرُ عنها سائِرهُم، وسَدَّسَتْ كعوبُ الرِّماحِ أَنملَهم، وأثبَتُوا في معتَرَك الموتِ أرجُلَهم؛ كلٌّ ذلك طاعةٌ لله ولرسوله ولخليفَتِهما، وإذا رمَوْا فأصابُوا قالُوا ولكِنَّ الله رَمى)[2]. ومن خبر (الفرنج)[3] أنهم الآن على عكا يمدُّهم البحر بمراكب أكثر عِدَّة من أمواجه، ويُخْرِج للمسلمين أَمَرَّ مَن أُجاجه، وقد تعاضَدَتْ ملوك الكُفْر على أن يُنهضوا إليهم من كلِّ فرقة طائفة، ويرسلوا إليهم من كل سلاح شَوْكَة، فإذا قَتَلَ المسلمون واحداً في البَرِّ، بعث ألفاً عِوَضه البحرُ (وإذا ذهب بالقتل صنفٌ أخلف بدله صِنفا)[4]، فالزَّرْعُ أكثرُ من (الحُصَّاد)[5]، والثمرةُ أنمى من (الجُدَّاد)[6]، وهذا العدوُّ (المقابل)[7] –قاتله الله– قد زرّ عليه من الخنادق دروعاً متينة، واستجنَّ من الجنويات[8] بحصونٍ حصينة، فصار مُصْحِراً ومتمنعاً، حاسراً ومتدرِّعاً، مواصلاً ومنقطعاً، (وكُلَّما أخرجَ رَأْسا قد قُطِعت منه رءُوس، وكُلَّما كَشَفَ وجْها كُشِفت من غِطَاء أجسادها نُفُوس؛ فكم من يوم أرسَلُوا أعِنَّة السوابق، فَذمُّوا عُقْبى إرسالها، وكَمْ من ساعةٍ فَضُّوا بها أقفالَ الخَنَادق، فأفضى إليهم البَلاءُ عند فَضِّ أقفالِها)[9] وعددهم الجَمُّ قد كاثر القتل، ورقابهم الغُلْب[10] قد قطعتِ النَّصْل[11] لِشدَّة ما قطعها النَّصْل.

وأصحابنا قد أثَّرَتْ فيهم المُدَّة الطويلة، والكلف الثَّقيلة في استطاعتهم، لا في طاعتهم، وفي أحوالهِم لا في شجاعتهم (فالبَرْك[12] قد أنضَوْه، والسِّلاح قد أحفَوْه، والدِّرهمُ قد أفْنَوْه)[13]، وكل من يعرفهم يناشد الله فيهم المناشدة النَّبوية في الصُّحْبة البَدْرية : اللهم إنْ تُهْلِكْ هذه العِصَابة[14]، ويُخلص

(1) القراع : مقارعة ومضاربة السيوف. الزبيدي : تاج العروس، ج29، ص321.

(2) زيادة في ب.

(3) ب : الكفار.

(4) زيادة في ب.

(5) ب : الجداد.

(6) الجُدَّاد : من جد الشيء إذا قطعه. معجم متن اللغة، ج ص483؛ ب : الحصاد.

(7) ب : المقاتل.

(8) الجنويات : هي السفن الكبيرة الجنوية " نسبة إلى جنوة".البقلي : التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، ص277.

(9) زيادة في ب.

(10) الغُلْب : مفردها الأغلب وهو الغليظ الرقبة. معجم متن اللغة، ج4، ص 312.

(11) النَّصل : السهم والرمح. المعجم الوسيط، ج2، ص927.

(12) البَرْك : جماعة الإبل الباركة. ابن منظور : اللسان، ج10، ص397.

(13) زيادة من ب.

(14) يقصد دعاء النبي صلى الله عليه وسلم يو بدر : "اللهم آتني ما وعدتني اللهم أنجز ما وعدتني اللهم إن تهلك هذه العصابة لن تعبد في الأرض أبداً". ابن حنبل : المسند، ج1، ص32.

الدُّعاء، ويرجو على يد سيدنا أمير المؤمنين الإجابة (هذا والساحلُ قد تماسَكَ، وماتهَالَك؛ وتجَلَّد، وما تبَلَّد؛ وشجَّعته مَوَاعد النَّجْدة الخارجَه، وأسْلَتْه عن مصارعِ العِدّةِ الدَّارجه؛ فكيْفَ به إذا خرج داعيةُ الألْمان، ومُلُوك الصُّلْبان؛ وجموعُ ماوراء البحر، وحُشُودُ أجناسِ الكُفْر؟)[1]، واستخرج منهم كلَّ مذخور، وأغلق دونهم الكنائس، ولَبِسَ، وألبسهم الحِدَاد، وحَكَمَ عليهم أن لا يزالوا كذلك، أو يستخلصوا المَقْبُرَة، (ويُعِيدوا القُمامة[2]. ﴿وإذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أعمالَهُم وقالَ لا غَائِبَ لَكُمُ اليَوْمَ من النَّاس وإنِّي جارٌ لَكُمْ﴾[3] اللهم أخْفِرْ جِواره، واصْرِفْ جَوْره، وأخْلِفْ وَعْده، واكْسِرْ ضَمَانَه، وأنْكِصْه على عَقِبه، وعَجِّل في الدنيا، والآخرةِ منهم تَبابَه، وما بدَأْتَنا به من نعمتك فلا تقطَعْه، وما وهبْتنا من نَصْرك فلا تَسْلُبْه، وما ستَرْتَه من عَجْزنا فلا تَهْتِكْه في دُونِ ماالدِّينُ مستقْبِلُه، وعدوُّه خذله الله يؤَمِّله؛ ما يستَفْرِغُ عزائمَ الرجال، ويستَنْفِذُ خزائِنَ الأموال؛ ويُوجِب لإمام هذه الأمةِ أن يحفَظَ عليها قِبْلتها، ويُزِيحَ في قتل عَدُوِّها عِلَّتَها)[4] فيا عُصْبة محمد –عليه السَّلام– اخلُفْه في أُمَّته بما تطمئنُّ به مضاجعه، وَوَفِّه الحَقَّ فينا فإنَّا والمسلمون عندك ودائعُه.

وما مثَّل الخادم نفسه في هذا القول إلا بحاله لو وقف بالعَتَبات ضارعاً، وقَبَّل ترابها خاشعاً، وناجاها بالقول صادعاً، ولو رُفِعَتْ عنه العوائق لهاجر، وشافَهَ طبيبَ الإسلام بل مسيحه بالدَّاء الذي خامر، ولو أمن عدوّ الإسلام أن يقول قولاً آخر لسافر، ولولا أَنَّ في التَّصريح ما يعود على العِدَى له بالتجريح لقال ما يبكي (العيون)[5] وينكي القلوب (وتَنشق له المرائر وتُشق له الجيوب)[6]، ولكنه صابرٌ محتسب، منتظر لنصر الله مرتقب، قائم من نفسه بما يجب، ربِّ إني لا أَمْلِكُ إلا نَفْسي[7]، (وها هي في سبيلك مبذولة)[8]، وأخي وقد هاجر إليك هجرةً يرجوها مقبولة، وولدي وقد بذلتُ لعدوك صفحاتِ وجوههم، وهان على محبوبك بمكروهي فيهم ومكروههم، ونقف عند هذا الحد ﴿ولله الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾[9].

---

(1) زيادة من ب.

(2) يقصد كنيسة القيامة.

(3) سورة الأنفال : آية 48.

(4) زيادة في ب.

(5) ب : العين.

(6) زيادة من ب. هذه الفقرة تعكس حجم الألم والهم الذي أصاب صلاح الدين بسبب تكالب الفرنج على عكا والساحل.

(7) فيه اقتباس من قوله تعالى : "قال رَبِّ إني لا أملك إلا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين" سورة المائدة : آية 25.

(8) زيادة في أ.

(9) سورة الروم : آية 4.

كتاب رقم (89)[1]

إرسال المير إلى عكا المحاصرة سنة 586هـ/1190م

أرسل الفاضل هذا الكتاب إلى صلاح الدين وجاء فيه :

المملوك يقبِّل الأرض بين يدي مولانا الملك النَّاصر، لَطَفَ الله بقلبه، وحمل عنه، وَرَوَّح سِرَّه، ووصل الرَّاحة به، ونسأل أن يرحمه بنا الذي رَحِمَنَا به، فقد بلغتِ القلوبُ، وقد وقفت في طُرُقنا الذّنوب، وبينما نحن ننتظر من كتب المولى ما يستدلُّ به على أَنَّ قَلْبَ المولى قد طاب، وقَصْدَ العدوِّ قد خاب إذ تَرِدُ كُتُبٌ يكون الوقوف عليها قاطعاً للأكباد، مفتتاً للقلوب ولو أنها جماد.

ثم ذكر البُطَس[2] الذي تقدَّم ذكرها الواصلة إلى عكا ليلة نصف شَعْبان فقال : وبينما نحن نعتقد أن البطس في عكا وصل الخَبَرُ بأنها في دِمْياط[3]، ويوم وصل الخبر بأنها في دمياط نحن على انتظار خروجها منه، وكتب البطائق بالاستحثاث والاستعجال وتحذيرهم من تمادي المقام، وما تيقَّنَّا أَخَرَجت أم هي باقية، كأنَّ الرِّيح في بيتٍ ما خرجت منه في هاتين الجمعتين، ولها من تاريخ خُروجها من الإسكندرية، وإلى تاريخ تسطير هذه الخدمة خمسة عشر يوماً، والعيونُ ممدوةٌ، والأيدي مرفوعة بأَنْ يفرِّجَ الله عَنَّا وعنكم بوصولها، فمن شَبَعَ في هذه الأيام فما واسى المُسْلمين، ومن نام مِلْءَ عينيه فما هو من أُخوة المؤمنين.

والمملوك شفيقٌ على البطس في وقت الدُّخول حَذَرَ أن يعترض العدوُّ طريقَها فيحول بينها وبين الوصول، فينعكس المراد بها، ويحدث من المَضَرَّة بحرمانها أضعاف ما يحدث من النِّعمة بالفرج المُسَيِّر فيها، وأَكَّدَ هذه الحال في نفس المملوك وقوفُه على كتب أصحابنا من عكا، وقد وقع لهم هذا الواقع الذي وقع للمملوك من خوفهم عليها، واستبعادهم دخولها، فما المملوك وكل من يعرِف الأمر إلا كأهل الصِّراط : رَبِّ سَلِّم رَبِّ سَلِّم.

---

(1) أبو شامة : الروضتين، ج4، ص 175-177.

(2) البطس : جمع بطسة، مأخوذة عن الإسبانية، وتعني السفينة الكبيرة وتستخدم للحرب والتجارة، وترد أحياناً بلفظة بطشة. حلاق : المعجم الجامع، ص41.

(3) دمياط : هي مدينة مصرية قديمة. وهي ثغر من ثغور الإسلام، جاء في الحديث عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يا عمر إنه سيفتح على يديك بمصر ثغران الإسكندرية ودمياط، أما الإسكندرية فخرابها من البربر، وأما دمياط فهم صفوة من شهداءٍ من رابطها ليلة كان معي في حظيرة القدس مع النبيين والشهداء" ياقوت : معجم البلدان، ج2، ص537.

فنسأل الله سبحانه ألا يكلنا إلى أنفسنا فنعجز، ولا إلى النَّاس فنضيع، ومجهودُ أهلِ الأرض قد انتهى، وبقي ما يفعله الله، والخير منتظر منه، والفرج بالقوت قد سُيِّر في البحر من خمسة عشر يوماً، والفرج بالنفقة قد سُيِّر في البَرِّ من عشرة أيام، والله يا مولانا ما يُنْجَزُ شيء من هذه الأمور إلى أن تُضْرَبَ الوجوه بالشَّوْك، وتُسْتَحلَبَ الحجارة، ويُنَبَّه النُّوَّام، وتُبَحَّ الأصوات من التذكار، وتحفى الأقلام من الكتابة، ويُخْضَع لمن يلزمه الشُّغْل كالخضوع لمن لا يلزمه، والله المستعان، فليخلص المولى نيته في الاستعانة، فالأعوان قليل :

وقد كانوا إذا عُدُّوا قليلاً فقد صاروا أَقَلَّ من القليلِ

كتب حول مؤازرة من الفاضل إلى صلاح الدين سنة 586هـ/1190م ، خلال حصار عكا(1)

كتاب رقم (90) (2)

المملوك ينهي أن الله تعالى لا يُنال ما عنده إلا بطاعته، ولا تُفَرَّج الشَّدائد إلا بالرُّجوع إليه والامتثال لأمر شريعته، والمعاصي في كلِّ مكانٍ بادية، والمظالم في كلِّ مَوْضعٍ فاشية، وقد طَلَعَ إلى الله تعالى منها ما لا يُتَوقَّع بعدها إلا ما يُسْتعاذ منه.

وقد أجرى الله تعالى على يد مولانا من فَتْحِ البيت المقدَّس ما يكون بمشيئة الله له حُجَّة في رضاه، ونعوذ بالله أن يكون حُجَّة له في غضبه.

بلغ المملوك من كلِّ واردٍ منه مكاتبةً ومخاطبة بأنه على صفةٍ تَقْشَعِرُّ منها الأجساد، وتتصدَّع بذكرها الأكباد، والمملوك لا يتعرَّض لتفصيل ما بلغه من ظهور المنكرات فيه، وشيوع المظالم في ضياعه وخراب البلد، وعدم القُدْرة على المرمَّة لقُبَّة الصَّخْرة والمسجد الأقصى، وبالغفلة من مرمَّتهما، وبفقدهما في أشتية القُدْس العظيمة الجليلة المُثْلجة لا يُؤْمَنْ سقوطُهما، وافتضاح القُدْرَةِ في العجز عن إعادتهما، والمرمَّة أقربُ متناولاً من الإنشاء والتجديد.

ولا شُبْهة أن مولانا –عَزَّ نَصْرُه– في أشغال شاغلة، وأمور متشدَّدة، وقضايا غير واحدةٍ ولا متعدِّدة، ولكن قد ابتُلي النَّاس فصبروا، وأضجرتْهُمُ الأيامُ فما ضَجِرُوا، وأيُّ عبادةٍ أعظم من عبادته التي قام بها والنَّاس عنها قعود، وصَبَرَ في طلب جَنَّتها على ناري الحرب والوقت ذواتي الوقود، غير أن مولانا إذا ذكر نَصيبهُ من الإقدام فلا ينسى نصيبه من الحَزْم، ولا يعجل في الأمور الخطيرة، ولا يُقْدم بالعدد القليل على العِدَّة الكثيرة، فالمولى إذا قاتل كان واحداً، وإذا دَبَّر كان بالخلق، ولا يطمع بأن يقوم به الألف، وليذكر المولى نوبة الرَّمْلة التي كان وقوعها من الله سبحانه أدباً لا غَضَباً، وتوفيقاً لا

---

(1) وصل الفرنج إلى عكا يوم الإثنين الثالث عشر من رجب 585هـ (أغسطس/1189م) ونصبوا خيمة ملكهم جي دي لوزنيان على تل المصلبين قرب عكا، وقدرت أعدادهم بألفي فارس وثلاثين ألفاً من المشاة، وعندما علم صلاح الدين بذلك أسرع بقواته إلى عكا حتى وصلها يوم الأربعاء الخامس عشر من رجب 585هـ(أغسطس/ 1189م) ونصب خيمته على تل كيبسان القريب من عكا، وكان أول عمل قام به صلاح الدين هو إرسال البعوث من المقاتلين داخل عكا من حلال بعض المناطق التي غفل عنها العدو لتقوية من فيها، كما ارسل إلى الأطراف يستحث العساكر سرعة الوصول لنجدة عكا، وكان الفرنج حين وصول صلاح الدين قد أحاطوا بعكا وشددوا عليها الحصار، وكانت الأمداد تتوافد عليهم من البحر من الأقوات والذخائر والرجال.العماد : الفتح، ص 184- 185؛ ابن شداد : النوادر، ص 192، أمبرويز : صليبية، ج32، ص191- 195.

(2) أبو شامة : الروضتين، ج4، ص 174-175.

اتِّفاقاً، ولا يكره المولى أن تطول مُدَّة الابتلاء بهذا العدو، فثوابه يطول، وحسناته تزيد، وأثره في الإسلام يبقى، وفتوحاتُه بمَشيئة الله يَعْظُمُ موقعها، والعاقبة للتقوى، ﴿**وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ**﴾[1].

والله تعالى يشكر لمولانا جهاده بيده وبرأيه وبولده، وبخاصَّته وبعامة جُنْدِه، والإعداء في أعدائه، كجهاده بصاحب صيدا[2] في الفرنج، فهو جهادٌ قد أربى فيه رأي المولى فَرَجَحَ، والحديد بالحديد يُفْلَح، وأَكْيَدُ ما قوتل به العدوُّ سلاحُه، وأَسْرَعُ جَنَاحٍ طار لقبضه جَنَاحُه، ودولةُ مولانا كالبحر كرماً وظهور عجائب، وكالسَّماء مَطَراً وأَسنَّة كواكب.

كتاب رقم (91)[3]

أرسل الفاضل هذا الكتاب إلى صلاح الدين، وجاء فيه :

وما تجدَّد للعدو من الشُّروع في آلات الحِصار لعكا، وما أرجف به من النَّجْدتين الفرنجيتين الواصلة[4] والبعيدة[5]، وافتراق العساكر في هذا الوقت للضَّرورة، والتماس العسكر الشَّرْقي الدُّسْتُور للضَّجر، وحاجة المولى من الإنفاق إلى ما لا يَسَعُه التدبير، ويضيق عنه الإمكان، ومطالبة الغنيِّ بالزِّيادة مع الغِنَى، والضعيف بأكثر مما يحتاج إليه، وضياع فُرْصَةٍ بعد فرصة، واختلاف رأي بين المستشارين من الجماعة، وَجُود الألسنة بالآراء، وبُخْلُ الأيدي بالمعونة، وانفراد المولى بالتَّعب، واشتراك الناس في الرَّاحة، وما ابتلي به المسلمون من مَرَضٍ أظهروه ليكون لهم عُذْراً في القعود، وكتمه المولى على نَفْسِهِ لئلا يجلب لأصحابنا ضعف النُّفوس.

فهذه الأمور وإن كانت شدائد، وزائدات على العوائد، فقد أَلهمَ الله مولانا سَعَةَ الصَّدْر، وحُسْنَ الصَّبْر، لِيُشْعره أَنَّ صَبْرَهُ يَعْقِبُهُ النَّصْر، وحِسْبَتَهُ يعقبه الأَجْر، ولو لم يَرَ الله تعالى أن قُوَّةَ مولانا أكمل القُوَى، وعُرْوة عَزْمِهِ أوثق العُرَى لما أَهَّلَه لأَن يَنْصُرَ مِلَّةً لا يعرف المملوك غير الله ينصرها، وغير مولانا يباشر النُّصْرة ويحضرها، فليس إلا التجرُّد للدُّعاء، والتَّجلُّد للقضاء، فلا بُدَّ من قَدَرٍ مفعول، ودُعاء مقبول، ومن الأمثال المنظومة :

نحن الذين إذا عَلَوْا لم يَبْطَروا يوم الهِيَاجِ وإنْ عُلُوا لم يَضْجَروا

---

(1) سورة الحج : آية 40.

(2) صيدا : هي مدينة على ساحل بحر الشام، من أعمال دمشق شمال صور، سميت بصيدا نسبة إلى يصيدون بن صدقاء بن كنعان بن حام بن نوح عليه السلام. ياقوت : معجم البلدان، ج4، ص 561.

(3) أبو شامة : الروضتين، ج4، ص 177-179.

(4) يقصد حملة الملك الفرنسي فيليب أغسطس الذي وصل إلى عكا وشارك في حصارها في ربيع الأول 587هـ/ أبريل 1191م، وذلك قبل وصول ريتشارد. ينظر العماد : الفتح، ص280.

(5) يقصد حملة الملك الإنجليزي ريتشارد الذي تأخر قليلاً في جزيرة قبرص ووصل إلى عكا بعد الملك فيليب في جمادي الأول587هـ/ يونيو 1191م. ينظر العماد : الفتح، ص 285، 286.

ومعاذَ الله أن يفتح علينا البلاد ثم يُغلقها، وأن يُسْلِمَ على يدينا القدس ثم يُنَصَّرَه، ثم معاذ الله أن نُغلب على النَّصْر، ثم مَعَاذ الله أن نغلب على الصَّبْر.

وإذا كان ما يُقَدِّم إليه المماليك قَبِلَه المولى لا بُدَّ منه، وهو لقاء الله سبحانه، فَلأَنْ نلقاه والحُجَّة لنا خيرٌ من أَن نلقاه والحُجَّة علينا، فلا تَعْظُم هذه الفتوق على مَوْلانا فَتَبْهَرَ[1] صَبْرَه، وتملأ صَدْرَه ﴿**فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ**﴾[2].

وهذا دِيْنٌ ما غَلَبَ بكَثْرَةٍ، ولا نُصِرَ بثروة، وإنما اختار الله تعالى له أربابَ نِيَّات، وذوي قلوب معه وحالات، فليكن المولى نِعْمَ الخَلَفُ لذلك السَّلَف ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ**﴾[3]، واشتدِّي أزمة تنفرجي، والغَمَرات تذهب ثم لا تجي، والله تعالى يُسْمِعُ الأُذُن ما يُسِرُّ، ويصرف عن الإسلام وأهله غاشية هذا الكَرْب، ونستغفر الله العظيم، فإنه ما ابتلى إلا بذنب.

كتاب رقم (92)[4]

أرسل الفاضل هذا الكتاب إلى صلاح الدين ناصحاً ومواسياً سنة 586هـ، وجاء فيه :

إنما أُتينا من قبل أنفسنا، ولو صَدَقْناه لَعَجَّل لنا عواقب صدقنا، ولو أطعناه لما عاقبنا بعدونا، ولو فعلنا ما نَقْدِرُ عليه من أمره لفعل لنا ما لا نقدر عليه إلا به، فلا يستخصم أحدٌ إلا عمله، ولا يَلُمْ إلا نفسه، ولا يَرْجُ إلا رَبَّه، ولا ينتظر العساكر أن تكثر، ولا الأموال أن تحضر، ولا فلان الذي يعتقد عليه أن يُقاتل، ولا فلان الذي ينتظر أنه يُشير، فكلُّ هذه مشاغل عن الله ليس النَّصْر بها، ولا نأمن أن يكلنا الله إليها، والنَّصْر به، واللُّطْف منه، والعادة الجميلة له، ونستغفر الله سبحانه من ذنوبنا، فلولا أنها تسدُّ طريقَ دُعائنا لكان جواب دعائنا قد نَزَل، وفيض دموع الخاشعين قد غَسَل، ولكنْ في الطَّريق عائق، خار الله لمولانا في القضاء السَّابق واللاحق.

كتاب رقم (93)[5]

أرسل القاضي الفاضل هذا الكتاب إلى صلاح الدين ناصحاً ومواسياً سنة 586هـ، وجاء فيه . :

---

(1) تبهر : تقهر وتغلب. الزبيدي : تاج العروس، ج10، ص261.

(2) سورة محمد : الآية 35.

(3) سورة الأحزاب : الآية 21.

(4) أبو شامة : الروضتين، ج4، ص180– 181.

(5) أبو شامة : الروضتين، ج4، ص 181–184.

وعسكرنا لا يشكو والحمد لله منه خَوَراً، إنما يشكو منه ضَجَراً، والقُوَى البشرية لا بد أن يكون لها حَدٌّ، والأقدارُ الإلهية لها قَصْد، وكلُّ ذي قصد خادمٌ قصدها، وواقفٌ عند حَدِّها، وإنما ذكر المملوك هذا ليرفع المولى من خاطره مَقْتَ المتقاعس من رجاله، كما يثبت فيه شكر المسارع من أبطاله، قال الله تعالى : ﴿**فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ**﴾[1].

يا مولانا، أليس الله تعالى اطّلَعَ على قلوب أهل الأَرْض فلم يؤهِّل، ولم يستصلح، ولم يَخْتَرْ، ولم يسهِّل ولم يستعمل، ولم يستخدم في إقامة دينه، وإعلاء كلمته، وتمهيد سُلْطانه، وحماية شعاره، وحفظ قِبْلَة موحِّديه إلا أنت؟

هذا، وفي الأرض من هو للنُّبوَّة قَرَابة، ومن له المملكة وراثة، ومن له في المال كثرة، ومن له في العدد ثروة، فأقعدهم وأقامك، وكَسَّلهم ونَشَّطك، وقبضَهم وبسطك، وحَبَّبَ الدُّنيا إليهم، وبَغَّضها إليك، وصعَّبها عليهم وَهَوَّنها عليك، وأمسك أيديهم وأطلق يَدَك، وأغمد سيوفهم وجَرَّد سَيْفك، وأشقاهم وأنعم عليك، وَثَبَّطهم وَسَيَّرك ﴿**وَلَوْ أَرَادُواْ الْخُرُوجَ لأَعَدُّواْ لَهُ عُدَّةً وَلَـكِن كَرِهَ اللّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُواْ مَعَ الْقَاعِدِينَ**﴾[2].

نعم، وأخرى أَهَمُّ من الأُولى أنه لما اجتمعت كلمةُ الكُفْر من أقطار الأرض وأطراف الدُّنيا، ومغرب الشمس ومزخر البحر، ما تأَخَّر منهم متأخِّر، ولا استبعد المسافةَ بينك وبينهم مستبعد، وخرجوا من ذات أنفسهم الخبيثة، لا أموال تُنْفَق فيهم، ولا ملوك تحكم عليهم، ولا عصاً تسوقهم، ولا سيفٌ يزعجهم، مهطعين[3] إلى الدَّاعي، ساعين في أثر السَّاعي، وهم من كل حَدَبٍ يَنْسِلُون، ومن كلِّ بَرٍّ وبحر يقبلُون، كنت يَا مولانا كما قيل :

ولستَ بمَلْكٍ هازمٍ لنظيرهِ ولكنَّك الإسلامُ للشِّرْك هازِمُ

هذا، وليس لك من المسلمين كافَّة مساعد إلا بدعوةٍ، ولا مجاهد معك إلا بلسانه، ولا خارج معكم إلا بِهَمٍّ، ولا خارج بين يديك إلا بالأُجرة، ولا قانع منك إلا بزيادة، تشتري منهم الخُطُوات شبراً بذراع، وذراعاً بباع، تدعوهم إلى الله وكأنما تدعوهم إلى نَفْسك، وتسألهم الفريضة وكأنَّك تكلِّفهم النَّافلة، وتعرضُ عليهم الجَنَّة وكأنك تريد أن تستأثر بها دونهم.

والآراء تختلف بحضرتك، والمشورات تتنوَّع بمجلسك، فقائل : لِمَ لا نتباعد عن المنزلة، وآخر : لم لا نميل إلى المصالحة، ومتندِّم على فائت ما كان فيه حظ، ومشير بمستقبل ما يلوحُ فيه

---

(1) سورة آل عمران : آية 159.

(2) سورة التوبة : آية 46.

(3) من هطع وأهطع : أي أسرع مقبلاً خائفاً. معجم متن اللغة ج5، ص 644.

رُشْد، ومشيرٌ بالتخلِّي عن عكا حتى كأَنَّ تَرْكَها تغليق المعاملة، وما كأنها طليعة الجيش ولا قُفْل الدَّار ولا خَرْزَةُ السِّلْك إن وَهَتْ تداعى السِّلْك، وانبَتَّ في يد الملك، فألهمك الله قتل الكافر وخلاف المخذِّل، والتجلُّد وتحت قدمك الجمر، وأفرشك الطمأنينة وتحت جنبك الوَعْر[1] :

ولكنَّ مولانا صفيحة وجههِ   كَضَوْءِ شهابِ القابسِ المتنوِّرِ

قليلُ التَّشكِّي للمهمِّ يصيبُهُ   كثيرُ الهوى شَتَّى النوى والمسالِكِ

لا شُبْهة أَنَّ المملوك قد أطال، ولكن قد اتسع المجال، وما مُرَاده إلا أن يشكر الله على ما اختاره له، ويَسَّره عليه، وحبَّبه إليهن فَرُبَّ ممتَحَنٍ بنعمة، ورُبَّ مُنْعَمٍ عليه بمشقَّة، وكم مغبوطٍ بنعمة هي داؤه، ومرحومٍ من بَلْوى هي دواؤه.

ويريد المملوك بهذا أن لا يتغيَّر لمولانا –أبقاه الله– وجهٌ عن بشاشة، ولا صَدْرٌ عن سَعَةٍ، ولا لسانٌ عن حَسَنة، ولا تُرى منه ضجرة، ولا تُسْمع منه نهرة، فالشَّدّة تذهبُ ويبقى ذكرها، والأَزْمة تنفرج ويبقى أجرُها.

وكما لم يُحْدِثْ استمرارُ النِّعَم لمولانا –عَزَّ نَصْرُه– بَطَراً، فلا تُحدث له ساعات الامتحان ضجراً، والمملوك يستحسن بيتي حاتم، ومولانا –أبقاه الله، وخَلَّد سُلْطانه وملكه– يحفظهما :

شَرِبْنا بكأس الفَقْرِ يَوْماً وبالغِنَى   وما منهما إلا سقَانا به الدَّهْرُ

فما زادنا بَغْياً على ذي قَرَابةٍ   غِنانا ولا أَزْرَى بأحسابنا الفَقْرُ

والمملوك بأن يسمع أن مولانا –عزَّ نصره– على ما يعهده من سَعَة صدره، أسرُّ منه بما يسمعه من بشائر نصره، ويا ليتني كنتُ معهم. وماذا كانت تصنع الأيام؟ إما شيباً من مشاهدة الحروب؟ فقد شبنا والله من سماع الأخبار، أو غُرْماً يمكن خَلَفُهُ من الوفر؟ فقد غَرِمْنا في بُعْد مولانا ما لا خَلَفَ له من العُمر، أو مرض جسمٍ؟ فخيره ما كان الطبيبَ حاضرُه، ولقد مَرِضْنا أشدَّ المرض لفراقه إلا أن التجلُّد ساتره.

كتاب رقم (94)[2]

أرسل الفاضل هذا الكتاب إلى صلاح الدين ناصحاً ومواسياً سنة 586هـ، وجاء فيه :

المملوك يوصي المولى بالإسلام، والإسلام هو قَلْبُ المولى فَيُرَوِّحه، ولا يُحمِّله ما يُشْغله ويثقله، ويوصِّي المولى بقلوب المسلمين، وقلوبُ المسلمين جسمُ مولانا أبقاه الله.

---

(1) تعكس هذه الكلمات الضجر والضيق الشديد الذي كان يعاني منه جيش صلاح الدين بسبب طول فترة القتال والبعد عن الأوطان، ومدى تأثر صلاح الدين من هذه الأوضاع.

(2) أبو شامة : الروضتين، ج4، ص 184–189.

من عَلِمَ أَنَّه لا توفيه رواتبُ الحياة اشتغل قَلْبُهُ، واستطار لُبُّه، وضَعُفَتْ نَفْسُه، فَيَحْسُبُ المولى من جهاده تَفَقُّدَ جسمه، وإلانة مَطْعَمِهِ، وترويح خَطَراته، فقد بلغ المملوك مِنْ حَمْلِهِ على نفسه ما يُخْشى على مولانا الإثم فيه، وإنما نتجشَّمُ كلَّ مَشَقَّة لنسلم منه، ونحن في ضُرٍّ قد مَسَّنا، ولا نرجو لكشفه إلا من ابتلي به، وفي طوفانِ فتنةٍ، ولا عاصِمَ اليوم من أَمْرِ الله إلا مَنْ رَحِمَ.

ولنا ذنوبٌ قد سَدَّتْ طريق دُعائنا، فنحن أَوْلى بأن نلوم أنفسنا، ولله قَدَرٌ لا سلاحَ لنا في دَفْعِهِ إلا أن نقول : لا حول ولا قُوَّة إلا بالله، وقد أَشْرَفْنا على أهوالِ ﴿**قُلِ اللّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ**﴾[1] وقد جمع العدوُّ لنا وقيل لنا : اخشوه، فقلنا : حَسْبُنا الله ونِعْمَ الوكيل، متنجِّزين بذلك موعود الانقلاب بنعمةٍ من الله وفَضْلٍ، فما نرجو إلا ذلك الفَضْلَ العظيم[2]، وليس إلا الاستعانة بالله، فما دَلَّنا الله في الشَّدائد إلا على الدُّعاء له، وعلى طُروقِ باب كَرَمه، وعلى التضرُّع إليه، ﴿**فَلَوْلا إِذْ جَاءهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَـكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ**﴾[3].

ونعوذ بالله من القسوة، ومن القنوط من الرَّحمة، ومن اليأس من الفَرَج، فإنه لا ييأس منه إلا مسلوب الرَّشَد، مطرودٌ عن الله، مقطوع الحَظِّ منه.

ولا حيلة إلا بترك الحيلة، بل قَصْدُ من تمضي أَقْدَارُه بلا حيلة سبحانه وتعالى.

إنْ عَلِمَ اللهُ من جُنْد مولانا أَنَّهم قد بذلوا المجهود فقد عَذَرهم، فيعذرهم المولى، وإن عَلِمَ أنهم قد ذخروا قوة أو قَصَّروا في نُصْرَة كلمة الله، فيكفيهم مَقْتُ الله.

المملوك يذكِّرُ المولى بصبره، ويرحب صدره، وبفضل خُلُقه، وبتقواه لرَبِّه، وبمداراة مِزَاجه، وببرء القلوب الإسلامية ببرء جسمه، ﴿**وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ**﴾ إلى ﴿**وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى**﴾[4] والمولى أَوْلى بهذا البيت :

لا بَطِرٌ إن تتابَعَتْ نِعَمٌ وصابرٌ في البلاءِ مُحْتَسِبُ[5]

قيل للمُهَلَّب : أيسرُّك ظَفَرٌ ليس في تَعَبٌ؟ فقال : أكره عادة العجز.

---

(1) سورة الأنعام : أية 64.

(2) اقتباس من قوله تعالى : "الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل، فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم" سورة آل عمران : آية 173-174.

(3) سورة الأنعام : آية 43.

(4) سورة الأنعام : آية 35.

(5) الأصبهاني : الأغاني، ج12، ص339.

ولا بُدَّ أن تنفذ مشيئة الله في خَلْقه، ولا رادَّ لحكمه، فلا يتسخَّط مولانا بشيء من قَدَره، فلأَنْ يجري القضاءُ وهو راضٍ مأجور خيرٌ من أن يجري وهو ساخط موزور، فيصطلي نار الشِّدَّة – أعاذه الله منها– ولا يجدُ راحةَ الثَّواب، وَفَّرَ الله حَظَّه منه.

من شكا بَثَّه وحُزْنَه إلى الله شكا إلى مُشْتكى، واستغاث بقادر، ومن دعا ربَّه دُعاءً خَفِيّاً استجاب له استجابةً ظاهرة، فلتكن شكوى مولانا إلى الله خَفِيَّةٌ عَنّا، ولا يقطع الظهور التي لا تشتدُّ إلا به، ولا يضيّق صدوراً لا تنفرج إلا منه، وما شرَّد الكرى، وأطال على الأفكار ليل السرى إلا ضائقة القوت بعكا.

لم يبقى إلا ضَعْفٌ نِعْمَ المعينُ عليه تريوحُ النَّفْس، وإعفاؤها من الفكر، فقد عَلِمَ مولانا بالمباشرة أنه لا يُدَبَّرُ الدَّهْرُ إلا بِرَبِّ الدَّهْر، ولا ينفذ الأمر إلا بصاحبِ الأمر، وأَنَّه لا يقل الهم إن كَثُرَ الفكر :

قَدْ قُلْتُ للرَّجُلِ المُقَسَّمِ أَمْرُهُ فَوِّضْ إليه تَنَمْ قريرَ العَيْنِ[1]

كل مُقْتَرَحٍ يُجاب إليه إلا ثَغْراً يصير نَصْرانياً بعد أن أَسْلَمَ، أو بلداً يَخْرَسُ فيه المِنْبَر بعد أن تكلَّم.

يا مولانا، هذه اللَّيالي التي رابطتَ فيها والنَّاس كارهون، وسَهِرْتَ فيها والعيون هاجعة، وهذه الأيام التي يُنادى فيها : يا خيلَ الله اركبي، وهذه السَّاعات التي تَزْرَعُ الشَّيْبَ في الرؤوس، وهذه الغَمَراتُ التي تفيض فيها الصُّدور بمائها بل بنارها، هي نعمةُ الله عليك، وغِرَاسُك في الجنَّة، ومجملات محضرك، ﴿**يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا**﴾[2]، وهي مُجَوِّزاتك الصِّراط، وهي مُثَقِّلاتُ الميزان، وهي دَرَجاتُ الرِّضْوان.

فاشكرِ اللهَ عليها كما تشكرُهُ على الفتوحات الجليلة، واعلم أَنَّ مثوبة الصَّبْر فوق مثوبة الشُّكْر، وَمِنْ رَبْطِ جَأْشِ أمير المؤمنين عمر بن الخَطَّاب –رضي الله عنه– قولُه : لو كان الصَّبْر والشُّكْر بعيرين ما باليتُ أيهما ركبتُ.

وبهذه العزائم سبقونا وتركونا لا نطمع بالغُبار، وامتدَّتْ خُطاهم ونعوذ بالله من العِثار.

ما استعمل الله في القيام بالحقِّ إلا خَيْرَ الخَلْقِ، وقد عُرِفَ ما جرى في سِيَرِ الأَوَّلين وفي أنباء النَّبيين، وأن الله تعالى حَرَّض نبيَّه ﷺ أن يهتدي بِهُدَاهم، وأن يسلك سبيلهم، ويقتدي بأُولي

---

(1) الرضى : ديوان الشريف الرضى، ج1، ص1774.

(2) سورة آل عمران : آية 30.

العَزْم منهم. وما تغلو الجَنَّةَ بثمن، وما ابتلى الله سبحانه من عباده إلا من يعلم أنه يصبر، وأمورُ الدنيا ينسخ بعضُها بعضاً، وكأَنَّ ما قد كان لم يكن، ويذهب التعب ويبقى الأجر.

وإنما يَقَظاتُ العَيْنِ كالحُلُمِ

أَهَمُّ الوصايا أن لا يحمل المولى هماً يُضْعِفُ به جِسْمَه ويُضِرُّ مِزَاجه، والأُمَّة بنيان وهو – أبقاه الله– قاعدتُهُ، والله يثبِّتُ تلك القاعدة القائمة في نُصْرة الحقّ.

ومما يستحسنُ من وصايا الفُرْس : إن نَزَلَ بك ما فيه حيلة فلا تعجز، وإن نَزَلَ بك ما ليس فيه حيلة –والعياذ بالله– فلا تَجْزَع. وَرُبَّ واقعٍ في أمرٍ لو اشتغل عن حمل الهَمِّ به بالتدبير فيه مع مقدور الله لانْصَرَفَ هَمُّه وكُفِي خطبه ﴿**وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاء اللَّهُ**﴾[1].

هذا سُلْطان هو بحولِ الله أوثقُ منه بسلطانه، قاتلتِ الملوكُ بطمعها وقاتل هذا بإيمانه، وإذا نَظَرَ الله إلى قَلْب مولانا لم يجد فيه ثِقَةً بغيره، ولا تعويلاً على قُوَّةٍ إلا على قُوَّته، فهنالك الفَرَج ميعاده، واللُّطْف ميقاته، فلا يقنط من روح الله، ولا يَقُل ﴿**مَتَى نَصْرُ اللّهِ**﴾[2] وليصبر فإنما خُلِقَ للصَّبْر، بل ليشكر فالشُّكْرُ في موضعِ الصَّبْر أعلى درجات الشُّكر، وليقل لمن ابتلى أنت المعافي، وليرضَ عن الله سبحانه، فإنَّ الرِّضِيَّ عند الله هو المُسْلم الرَّاضي. فأما أخبار فتنة بلاد العجم فسبحان من ألحق قلوبهم بألسنتهم ﴿**قُلِ اللّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ**﴾[3].

كتاب رقم (95)[4]

وأما تَبَرُّمُ مولانا بكثرة المطالبات منه فلا أخلى الله مولانا من القُدْرة عليها، وهنيئاً له أَنَّ الله سبحانه يطالبه بحفظ دينه، والنبي ﷺ يطالبه بحُسْنِ الخلافة في أُمَّته، والسَّلَفُ الصَّالح من هذه الأُمة يطالبونه بمباشرة ما لو حضروه لما زادوا على ما يفعله المولى، وأهلُ الحرب يطالبونه بإزاحة عِلَّتهم من الذهب والفِضَّة والحديد، وبقية الأُمَّة تطالبه بالأمن في سِرْبهم، والاستقامة في كَسْبِهم، والخُفارة[5] في سُبُلهم، ونَفْسُهُ الكريمةُ تطالبه بالجَنَّة، بَلَّغه الله إليها، وبمعالي الأمور، أعانه الله عليها.

---

(1) سورة الإنسان : آية 30.

(2) سورة البقرة : آية 214.

(3) سورة الأنعام : آية 91.

(4) أبو شامة : الروضتين، ج4، ص 214–217.

(5) الخُفارة : الأمان. ابن منظور : اللسان، ج4، ص253.

وإذا عُدِّد ما يُرَادُ منه فلا بُدَّ أن يُعَدَّد ما يُسِّر عليه، فهل عَدِمَ من الله تعالى قط نُصْرَةْ؟ فهل استمرَّت به قَطُّ عُسْرة؟ فهل تمَّت لعدو قط عليه كَرَّة؟ هل بات قَطُّ إلا راجياً؟ هل أصبح إلا راضياً؟.

ألا يعلم أَنَّ الله تعالى ذَخَرَ له من الصَّالحات ما لم يَرَ كُفُوءاً له غَيْرَه؟ ألا يُحْصي مَنْ سَبَقَه من الملوك إلى الدُّنيا، فعَجزوا عما سبق إليه المولى من الآخرة؟ هل يعرف رايةً يُقَاتَلُ تحتها في سبيل الله إلا رايته؟

هل يعرف مالاً يُنفق في سبيل الله إلا ماله؟ هل يُسْمَعُ في مجلسه إلا كتابُ الله يُتْلى، وسُنَّةُ رسول الله ﷺ تقرأ؟ أو يُرَى به إلا الخيل تُعْرَض والسِّلاح يُقَلَّب، لا أقداح الشَّاربين، ولا أصوات المغنّين، ولا رقائع الكذَّابين، ولا سِعَايات النَّمَّامين؟

وبحقٍّ إذا خَطَّ مولانا –أبقاه الله– على تشبيه المملوك مجلس ابن عبد المؤمن بالمسجد، فإنَّ مجلسه أولى بأن يكون مسجداً من كلِّ مجلس، ولا غَرْوَ أن تُعْتَرَفَ المدائح كما تُعْتَرَفُ الضَّوالُّ[1]، وأن تُتَّبَعَ كما تُتّبعُ الطَّرائد﴿**وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ**﴾[2].

لعلَّ المولى –عَزَّ نَصْرُه– قد نفَّذ إلى جانب الشمال جماعةً، فإنَّ صاحب أنطاكية –خَذَلَه الله– عاث وشَعَّثَ، وخلا الجبانُ بأرضٍ فَطَلَبَ الطَّعْن وحده[3].

لو قَرَنَ أهلُ عكا –وكذلك يفعلون بمشيئة الله– ما هم فيه من جهاد بنيَّة احتسابٍ لما سَبَقَهم إلى الجَنَّة سابق، ولا لَحِقَهم بعدهم لاحق، فليهنِ مولانا توفُّر ثوابه على كلِّ حال، فَلَه ثوابُ نَفْسه، وثوابُ مَنْ جاهد بسببه.

فلا أعدَمَ الله الخَلْقَ واحداً استقام به جميعُهُمْ، ومالكاً قام برعاياهم فأقعد ما يروعهم، وشفيقاً يَقيهم بنفسه وبولده وبإخوته، ويتقدَّم إلى الأهوال أمام مماليكه وأمرائِهِ وعسكره وحَمْلته، كأنَّه منهم مكان بسم الله من الكتاب، ومكان الإمام من المحراب، ومكان النَّواصي من وجوه الصَّواهل[4]،

---

(1) الضَّوال : الدواب. الرافعي : المصباح المنير، ج2، ص363.

(2) سورة الحج : آية 40.

(3) اقتباس من بيت المتنبي : وإذا ما خلا الجبانُ بأرضٍ   طَلَبَ الطَّعْنَ وَحده والنِّزالا العكبري : الديوان، ج3، ص262.

(4) الصواهل : جمع صاهل وهو الفرس. المعجم الوسيط، ج1، ص527.

ومكان الأَسِنَّةِ من وجوه الذَوابل[1]، خير ما كان إذا لم تظنَّ نفسُ بنفسٍ خيراً، وأَغْيَرُ ما كان على محارم الله إذا كانت أنفس الملوك غَيْرَ غَيرى.

وقد اطمأنّت القلوبُ إلى أنَّ الله سبحانه قد كَشَفَ الغُمَّة وأفرجها، وأطفأ نار الحرب التي كان العدو أجَّجها، لما يتوقع من كتب مولانا –أبقاه الله– إلا أنَّ الإسلام قد رضي بما يسخط الكفر، ولا يُسْمِعُ من قَصَصه الذي هو أحسن القَصَص إلا أن يقول ما قاله سَمِيُّهُ على نبيِّنا وعليه السَّلام ﴿**قُضِيَ الأَمْرُ**﴾[2].

فأما ملك الألمان فقد سَلَبه الله ما أضيف إليه كما كان المملوك رأى في منامه على كوكب، وأعلمَ به مولانا رسالةً فقال أبقاه الله : قد قبلتُ البُشْرى.

وصورة الرؤيا أَنَّ رسولاً جاء من السلطان –عَزَّ نصره– إلى المملوك، فقال : اكتب كتاباً ببشارة ملك الألمان. فقلتُ : حتى أفكر، فقال الرسول : اكتب بأنَّ الله قد سَلَبَ ملك الألمان ما أضيف إليه، والمشهور أنَّ ملك الألمان خرج في مئتي ألف، وأنه الآن في دون خمسة آلاف.

كتاب رقم (96) [3]

أرسل صلاح الدين هذا الكتاب بقلم القاضي الفاضل إلى الخليفة العباسي الناصر لدين الله، وجاء فيه :

والبلاد ليست الآن كعهدها في انقطاع أسفارها، ووقوف معايشها، وكساد أسواقها، وانكسار تجارها، ولو لم تكن الدَّراهم سِلْعة لا تخرج من مِصْر كما يخرج الدِّينار لما وجدت كما لا يوجد الدينار، وإن تصريف الدّراهم بعد أن تصير مستخرجاً بِذَهَبٍ شغل شاغل، واستخراج ثانٍ غير الأول، وعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمرٍ من عنده[4] يحدث للإسلام نَصْراً عزيزاً، وللكفر خِذْلاناً سريعاً وجيزاً.

(1) الذوابل : جمع ذابل وهو الرمح الدقيق. المعجم الوسيط، ج1، ص309.

(2) سورة يوسف : آية 41.

(3)أبو شامة : الروضتين، ج4، ص 218–219.

(4) اقتباس من قوله تعالى : "وعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمرٍ من عنده" سورة المائدة : آية 52.

مولانا –خلَّد الله مُلْكَه– من وراء ضرورةٍ لا تخفى عن المملوك، والمماليكُ من وراء ضرورةٍ لا تخفى عن المولى، وصدرُ المولى –بحمد الله– واسع، وفَرَجُ الله منه قريب، وهذه الضَّائقة لما يريده الله تعالى من حُسْنِ موقع الفَرَجِ بعدها.

فقد أنفق المولى مال مِصْر في فَتْحِ الشَّام، وأنفق مالَ الشَّام في فتح الجزيرة، وأنفق مال الجميع في فتح السَّاحل، وينفق إن شاء الله تعالى مالَ القُسْطَنْطينية في فتح رُومِيَة والملوك كلُّهم وكلاؤه وأمناؤه على خزائنهم إلى أن يُسَلِّموها إليه، فيشكره الله على ما أخرجه في سبيل الله منها، ويمقتهم على ما كنزوه من ذهبها وفِضَّتها، فلا يكن في صَدْر المولى حَرَجٌ ولا في خُلُقه، فإنَّ الله سبحانه لا يضيِّق رِزْقاً على يده الكريمة لا سيَّما وقد أجرى عليها أرزاق خَلْقه.

كتاب رقم(97)[1]

خوف صلاح الدين على انتصاراته من الذنوب

أرسل الفاضل هذا الكتاب إلى صلاح الدين سنة 586هـ/1190م، وجاء فيه :

فأما قول مولانا إننا نخاف أن نؤخذ بذنوبنا، فالذنوبُ كانت مُثْبَتة قبل هذا المقام وفيه مُحِيَتْ، والآثام كانت مكتوبة ثم عُفي عنها بهذه الساعات وعُفِّيت، فيكفي مستغفراً لسانُ السَّيف في الجهاد، ويكفي قارعاً لأبواب الجَنَّة صوتُ مقارعة الأضداد، وبعين الله موقفك، وفي سبيل الله مقامك ومنصرفك، وطوبى لقدمٍ سَعَتْ في مِنْهاجك، وطوبى لوجهٍ تَلَثَّم بمثار عَجَاجك[2]، وطوبي لنفسٍ بين يديك قَتَلَتْ وقُتِلَتْ، وأَنَّ بشُكْرِ الله فيك عن شُكْرها لك قد شُغِلَتْ.

---

(1) أبو شامة : الروضتين، ج4، ص189-190

(2) عجاجك : صياحك. ابن منظور : اللسان، ج2، ص318.

كتاب رقم (98)[1]

الاستنصار بملك المغرب سنة 586هـ/1190م ، في مواجهة الحملة الصليبية الثالثة

أرسل صلاح الدين هذا الكتاب بقلم الفاضل إلى شمس الدولة ابن منقذ[2] ليكون سفيراً إلى ملك المغرب يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن[3]، وجاء فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم، الأمير الأَجَلّ، الإسفهسلار[4] الأصيل، العالم المحترم، شمس الدِّين، عُدِّة الإسلام، جمال الأنام، تاج الدولة، أمين المِلَّة، صفوة الملوك والسَّلاطين، شرف الأمراء، مقدِّم الخواص، أدام الله توفيقه، ويَسَّر طريقه، وأنجح مَقْصِدَه، وأعذب مَوْرِدَه، وحَرَسَ مغيبه ومشهده، وأسعد يومَه وغَدَه.

تستخير الله سبحانه، وتتوجَّه كيفما يَسَّر الله إلى الجهة الإسلامية المغربية، حَرَسَ الله جانبها، ونَصَرَ كتائبها ومراكبها. وتستقري في الطّريق وفي البلاد من أخبار القوم في أحوالهم وآدابهم وأخلاقهم وأفعالهم، وما يحبُّونه من القول نَزرَه أو جَمَّه[5]، ومن اللِّقاء منبسطه أو منقبضه، ومن القعود بمجالسهم مُخَفَّفة أو مُطَوَّله، ومن التحيات المتهاداة بينهم ما صيغته وما موقفه، وهل هي السُّنَن الدِّينية أو العوائد المملوكية؟ ولا تلقه إلا بما يحبه، ولا تخاطبه إلا بما يُسِرُّه، والكتاب قد نَفِّذ إليه ولم يُخْتم لتعلم ما خوطب به[6].

والمقصود أن تقصْ القِصَصَ عليه من أول وصولنا إلى مِصْر، وما أَزَلْنا من البِدَع بها، وعَطَّلْنا من الإلحاد فيها، ووضعنا من المظالم عنها، وإقامة الجمعة، وعقد الجماعة فيها، وغزواتنا التي تواصلت إلى بلاد الكفر من مصر، فكانت مقدمة لملك الشَّام الإسلامي باجتماع الكلمة علينا، ومقدمة لملك الشَّام الفرنجي بانقياد المسلمين لنا، وإصفاق الملوك المجاورين على طاعتنا[7].

---

(1) أبو شامة : الروضتين، ج4، ص 190-195.

(2) ابن منقذ : هو الأمير أبو الحارث عبد الرحمن بن محمد بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ، ابن أخي أسامة بن منقذ الشاعر المشهور. أبو شامة: الروضتين، ج4، ص190.

(3) المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي ويكنى بأبي يوسف، أمه رومية واسمها ساحر، بويع له في حياة أبيه وكان له من العمر اثنان وثلاثين عاماً، حكم ستة عشرة سنة وثمانية أشهر، توفي سنة 595هـ/1199م، عن عمر أربعة وثمانين عاماً. المراكشي : المعجب، ج1، ص261.

(4) الإسفهسلار : معناه في الأصل مقدم العسكر، وهو مركب من لفظين : أولهما فارسي وهو "أسفه" ومعناه المقدم، والثاني تركي، ومعناه العسكر. القلقشندي : صبح الأعشى، ج6، ص 8.

(5) جَمَّه : كثرته. المعجم الوسيط، ج1، ص136.

(6) هذه الفقرة دليل على مدى اهتمام صلاح الدين بما يُعرف الآن باسم البروتوكول وضرورة تعرف الرسل على عادات وتقاليد وكل المعلومات عن الجهة المرسل إليها.

(7) إصفاق الملوك : أي اجتماع الملوك. ابن منظور : لسان العرب، ج3، ص2464.

وتُفَصِّل ما جرى لنا مع الفرنج من الغَزَوات المتقدِّمة التي جُسْنا فيها خلال ديارهم، وجعلها الله تعالى مقدِّمات لما سبق في علمه من أسباب دمارهم، وما أعقبها من كسرتنا لهم الكسرة الكُبْرى[1]، وفتح البيت المقدَّس، وتلك على الإسلام مِنَّة الله العُظْمى، إلى غير ذلك من أَخْذِ الثُّغور، وافتتاحِ البلاد، وإثخان[2] القَتْلِ فيهم والأَسْر لهم، واستنجاد بقيَّتهم لفرنج المغرب، وخروج نجداتهم وكثرتها وقُوَّتها، ومَنَعتها وغِناها وَثَرْوتها، ومُسارعتها ومبادرتها، وأنه لا يمضي يومٌ إلا عن قُوَّة تتجدَّد، ومِيْرَةٍ تَصِل، وأموالٍ واسعة تخرج، ومعوناتٍ كثيرة تُحمل.

وأَنَّ ثغرنا حَصَرَه العدو، وحَصَرْنا نحن العدوَّ، فما تمكَّن من قتال الثَّغر، ولا تمكَّن من قتالنا، وخَنْدَق على نفسه عِدَّة خنادق، فما تمكَّنَا من قتاله، وقَدَّم إلى الثَّغْر أبرجةً أحرقها أهلُه، وخرج مرَّتين إلى عسكرنا فكسرَ العدوُّ الكثير أَقَلُّهُ، فإنه اغتنم أوقاتاً لم تكن، العساكر فيها مجموعة، وارتاد ساعاتٍ لم تكنِ الأُهَبُ فيها مأخوذة، وأقدم على غِرَّةٍ استيقظت فيها نُصْرَةُ الله لنا وخِذْلانه لهم، فقتل الله العدوَّ القَتْلَ الذَّريع[3]، وأوقع به الفَتْك الشَّنيع، وأجلت إحدى الحركتين عن عشرين ألف قتيل من الكُفَّار، خَرَجَتْ أنفسُها إلى مصارعها، وهَمَدَتْ أجسامها في مضاجعها.

والعدوُّ وإن حَصَرَ الثَّغْرَ فإنَّه محصور، ولو أَبْرَزَ صَفْحَتَهُ لكان بإذن الله هو المثبور[4] المكسور.

وتذكُرُ ما دَخَلَ الثَّغْرَ من أساطيلنا ثلاث مرَّات، واختراقها مراكبهم وهي الأكثر، ودخولها بالمِيْرَة بحكمْ السَّيْف الأَطْهر، وأنَّ أمر العدوِّ مع ذلك قد تطاول، وخَطْبَهُ قد تمادى ونجدته تتواصل، ومنها ملك الألمان في جموعٍ جماهيرها مُجَمْهَرَة، وأموالٍ قناطيرها مُقَنْطَرَة، وأنَّ عساكرنا لو أدركتْهُ لما استدرك، ولولا سَبْقُهُ لها بالدُّخول إلى أنطاكية لَتَلِفَ وهَلَك[5].

---

(1) يقصد معركة حطين والانتصار فيها.

(2) إثخان : الشدة والقوة. ابن منظور : اللسان، ج1، ص473.

(3) الذريع : الواسع الكبير. المعجم الوسيط، ج1، ص310.

(4) المثبور : من ثبر بمعنى هلك.المعجم الوسيط : ج1، ص93.

(5) يشير إلى رحلة ملك ألمانيا فردريك بربروسا إلى الشرق الذي كان أول الملوك خروجاً، واتخذ طريق البر طريقاً إلى بلاد الشام، وبدأت رحلته البرية 585هـ/1189م، حيث خرج من بلاده واجتاز بلاد المجر وأخذ منها الأموال والرجال حتى دخل إلى بلاد الروم البيزنطية وعجز ملك القسطنطينية عن منعهم من دخول بلاده وأخذ منه فردريك رهائن وأموال ومراكب لتمكنه من عبور خليج القسطنطينية (مضيق البوسفور) وسار بجيشه باتجاه قونية التي كانت تخضع للسلطان السلجوقي قلج أرسلان، وعند وصوله وقعت معركة كبيرة بينهما لكن فردريك تمكن من هزيمة جيش الترك، ثم حدثت مراسلات بين قلج أرسلان وفردريك اتفق الطرفان على الصلح وتسليم قلج أرسلان نحو عشرين رهينة من أمراء دولته، فأخذهم فردريك وسار بهم إلى بلاد الأرمن وكان ملكها يدعى ليون وكان قد أرسل إلى فردريك اثنين من رجاله ليدلوه على مخاضة جيد في النهر، ثم اجتازا المخاضة قبله ليكون أكثر طمأنينة، وفعلا ذلك اكثر من مرة، فلما اطمأن إلى ذلك عبر النهر وما أن أصبح وسط الماء حتى وقع عن جواده وأدى إلى غرقه وموته 586هـ/1190م. ابن شداد : النوادر، ص221، 222؛ العماد : الفتح، ص 235-237.

وتذكر أَنَّ الله قَصَمَ طاغية الألمان، وأخذه أَخْذَةً فِرْعَوْنِيَّة بالإغراق في نهر الدُّنيا الذي هو طريقه إلى الإحراق في نار الآخرة.

وأنَّ هذا العدو لو أرسل الله عليه أسطولاً قوياً مستعدّاً، يقطع بحرَهُ ويمنع مُلْكَه، لأَخَذْنا العدوِّ بالجوع والحَصْرِ، أو بَرَزَ فأخذناه بيد الله تعالى التي بها النَّصْر، فإن كانتِ الأساطيل بالجانب المغربي مُيَسَّرَة، والعُدَّة منها متوفِّرة، والرِّجال في اللِّقاء فارهة، وللمسير غير كارهة، فالبِدَارِ البدار، وأنتَ أيها الأمير فيها أول من استخار الله وسار.

وإن كانت دون الأسطول موانعُ إما من قِلة عُدَّة، وإما من شغل هناك بمهمَّة، أو بمباشرة عَدُوٍّ إما تُحَصَّن منه العورة أو قد لاحت منه الفُرصة، فالمعونة ما طريقُها واحدة، ولا سبيلها مسدودة، ولا أنواعُها محصورة، تكون تارةً بالرِّجال، وتارةً بالمال.

وما رأينا أهلاً لخطابنا ولا كفؤاً لإنجادنا، ولا محقوقاً بدعوتنا، ولا ملبياً بنصرتنا إلا ذلك الجَناب، فلم نَدْعُه إلا لواجبٍ عليه، وإلى ما هو مستقلٍ به، ومطيقٌ له، فقد كانت تُتَوَقَّع منه هِمَّة تَقِدُ في الغَرْب نرُها، ويستطير في الشَّرْق سناها، وتُغْرس في العُدْوة[1] القُصْوى شجرتها، فينال مَنْ في العُدْوة الدُّنيا جَنَاها، فلا ترضى هِمَّتُه أن يعين الكُفْرُ الكُفْرَ، ولا يعين الإسلامُ الإسلامَ، وما اخْتُصَّ بالاستعانة إلا لأَنَّ العدو جارُه، والجارُ أقدرُ على الجار، وأهلُ الجَنَّةِ أَوْلى بقتال أهل النار، ولأنه بحرٌ والنَّجْدة بحرية، ولا غَرْوَ أن تجيش البحار[2].

وإن سُئِلَ عن المملوكين يوزبا وقَرَاقُوش، وَذُكِرَ ما فعلا في أطراف المغرب بمن معهما من نُفَايات الرِّجال الذين نفتهم مقاماتُ القتال، فيعلمهم أَنَّ المملوكين ومن معهما ليسوا من وجوه المماليك والأُمراء، ولا من المعدودين في الطواشية[3] والأولياء، وإنَّما كَسَدَتْ سوقُهما، وتبعهما ألفافٌ أمثالها، والعادة جاريةٌ أَنّ العساكر إذا طالت ذيولها، وكَثُرَتْ جموعُها، خَرَجَ منها، وانضاف إليها، فلا يظهر مزيدُها ولا نَقْصُها. ولا كان هذان المملوكان ممن إذا غابَ أُحضر، ولا ممن إذا فُقِدَ افْتُقِدَ، ولا يُقَدِّرُ في مثلهما أنه ممن يستطيع نكايةً، ولا يأتي بما يُوجب شكوىً من جناية. ومعاذ الله أن نأمر مفسداً بأن يُفْسِد في الأرض ﴿**إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ**﴾[4].

---

(1) العدوة : المكان المرتفع. المعجم الوسيط : ج2، ص589.

(2) تجيش البحار : تهوج البحار. معجم متن اللغة : ج1، ص602.

(3) الطواشية : هم المعروفون بالخدام والأستاذين، وكان لهم في دولتهم مكانة جليلة. القلقشندي : صبح الأعشى، ج3، ص 477.

(4) سورة هود : آية 88.

إن سُئِلَ عن النَّوْبة المِصْرية[1] وما فُعل بجندها، فليعلمهم الأمير أن القوم راسلوا الكُفَّار، وأطمعوهم في تسليم الدِّيار، فأَشْفَى الإسلام على أمرٍ شديد، وكاد يقربُ على الكُفْر أمرٌ بعيد، فلم يُعاقِب الجيشُ، بل أعيان المفسدين، فقوبلوا بما يجب، وكانوا دُعاةَ كُفْرٍ وضلال، ومحاربين لله بما سَعَوْا في الأرض من فساد، فأما بقية الجيش وإنْ كان بينهم مَنْ هو تَبَعٌ للمذكورين في الرِّضا، فإنهم اقْتُصِرَ بهم على أن لا يكونوا جُنْداً، ومنهم من أُجريت عليه أرزاق تبلِّغه، وشَمِلَتْهُ أَمَنَةٌ تُسكنِّه.

وأما الهدية المُسَيِّرة على يد الأمير فتفصيلها يَرِدُ في كتابِ الأمير الأجل الإسفهسلار، العالم الكبير، مجد الدين سيف الدولة –أدام الله عُلُوَّه– مقروناً بالهدية المذكورة، ومع قُرْب الشِّتاء فلم يبق إلا الاستخارة والتَّسْمية، ومبادرة الوقت قبل أن يُغْلِقَ البحرَ انفتاحُ الأشتية، والله سبحانه يوفِّق الأمير، ويسهِّلُ سبيله، ويهدي دليلَه، ويكلؤه[2] بعينه، ويمدُّه بعونه، ويحمل رَحْلَه، ويبلِّغه أهلَه، ويشرح له صَدْرَهُ، وييسِّر له أمره، إنْ شاء الله تعالى، وكتب في ثامن وعشرين شعبان سنة ستْ وثمانين وخمس مئة.

(1) يقصد ما قام به عمارة اليمني وأصحابه.

(2) يكلؤه : يحرسه ويحفظه. ابن منظور : اللسان، ج4، ص3099.

كتاب رقم (99)[1]

العلاقة مع الإمبراطور البيزنطي(ملك الروم)[2]

أرسل الفاضل هذا الكتاب إلى صلاح الدين سنة 586هـ/1190م، وجاء فيه :

ينهي وصول رسول ملك الرُّوم بما في صحبته من هَدِيَّةٍ، وبما على لسانه من رسالة، وبما على يده من كتاب، وحضر بين يدي الملك العادل، وجرى من المفاوضة ما زُبْدَتُه امتنان الملك بكونه لم يجب رسول ملك الألمان وصاحب صِقِلِّية وغيرهم من جيوش الفرنج إلى الموافقة على حَرْب السُّلْطان، وإطلاق طريقهم، وامتنعَ وسَدَّ الدَّرْبَنْدات[3]، وحَفِظَ عليهم الطُرق، ووصَّى أرباب الحصون بالتَّيَقُّظِ لهم، والمَنْعِ دونهم، وجعل عُذْره لملتمسي موافقته أنَّ البلاد في هذه السنة غالية السِّعْر، والمصلحة تقتضي أن لا تكون الحركة إلا بقوَّةٍ، وعلى تَمَكُّنٍ من المِيْرَة[4]، وتؤخر الحركة إلى السنة الأخرى.

وهذا ملك الرُّومِ خائفٌ من الفرنج على بلده، مُدَافِعٌ عن نفسه، إن تَمَّ له الدفع أنه بسببنا، وإن لم يتمَّ ادَّعى أنَّه غُلِبَ عن مقصده ومقصدنا، وقد جعل ما أورده من أن تقام البطركة في قُمامة من قِبَلِه، وأن تُنْقَلَ من ولاية الفرنج إلى أن يوليها الطَّاغية من أهل عمله، سبباً يبسط به عُذْره بزعمه عند أجل جِنْسه، ويدفع به عن نفسه، لا سيما مع إقامة الخُطْبة الإسلامية ونَقْلِهِ المِنْبر، وفُسْحته في الصَّلاة، وإعزاز الكلمة الإسلامية، أَرْغَمَ اللهُ بها أنفه، وعَجَّلَ بسيفها حَتْفَه، ومولانا –أبقاه الله– يَتَثَبَّتُ في الأجوبة، ولا يجيبُ إلى ما على الإسلامِ فيه غَضَاضة[5]، ولا إلى ما للكُفْر فيه قُوَّة ﴿**إِن يَنصُرْكُمُ اللّهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ**﴾[6].

---

(1) أبو شامة : الروضتين، ج4، ص 219–220.

(2) تبلورت العلاقات بين صلاح الدين والبيزنطيين في عهد الإمبراطور البيزنطي إسحاق الثاني أنجيلوس الذي أرسل رسولاً إلى صلاح الدين واستقبله الملك العادل أخو صلاح الدين حيث حمل معه مطالب منها : منحهم صليب الصلبوت، وان تكون كنيسة القيامة وغيرها من كنائس القدس تحت الإشراف البيزنطي، وأن يوافق صلاح الدين على المشاركة في حملة ضد جزيرة قبرص، إلا أن صلاح الدين لم ير من المصلحة الموافقة على تلك المطالب.ابن شداد : النوادر، ص 359.

(3) الدَّرْبَنْدات : مفردها الدَّرْبَنْد : هي باب الأبواب وهي مدينة في وسطها مرسى السفن، تفتح على بحر طبرستان. ياقوت، معجم البلدان، ج1، ص303– 306.

(4) المِيْرَة : جلب الطعام. ابن إدريس : المحيط في اللغة، ج10، ص285.

(5)غضاضة : الذلة والمنقصة. ابن منظور : اللسان، ج7، ص197.

(6) سورة آل عمران : آية 160.

كتاب رقم (100)[1]
العلاقة مع ملك قبرص

أرسل القاضي الفاضل هذا الكتاب إلى صلاح الدين سنة 587هـ/1191م [2]، وجاء فيه :

وصل إلى المملوك كتابٌ يذكر وصول رسل الملك العتيق[3] من قُبْرُسَ إليه يخبره بعصيانه على ملك إنكلترا[4]، ومكاشفته بالعداوة والحَرْب، وأنَّه قد كاتَب السُّلْطان –أَعَزَّ نصره– يبذل له من نَفْسه العبودية والطَّاعة والمظاهرة على ملك إنكلترا، والأخبارُ متواترةٌ بأَنَّ العتيق أحرق موانئ قُبْرُس، ووعَّرها، وقَطَعَ المِيْرَة عن السَّاحل.

ولا شُبْهَةَ أنَّ مولانا يتقبَّل من المذكور، ويقوي نفسَه على هذه المُبَاينة، فإنّ في تخاذلهم نُصْرَة الإسلام، وشغل بعضهم ببعضٍ، وافتراق كلمتهم المجتمع وقَطْعاً للميرة عن الشَّام، وأَمْناً لجانبٍ كبير من جوانب البحر.

وهذا الملك العتيق قد صار لمولانا صديقاً، وما سمِّي العتيق إلا لأنه صار لمولانا عتيقاً، ولا اعتبار بحديثنا مع صاحب القُسْطَنْطينية[5] في أَنَّا نُنْجِدُه على قُبْرُس، فإنَّا إنما وَعَدْناه بالنَّجْدة عليها لما كانت بيد عدونا.

ووالله ما أفلح ملك الرُّوم قَطُّ ولا نَفَعَ إن يكن صديقاً، ولا ضَرَّ إن يكن عدواً، وكذلك صاحب الغَرْب[6] ﴿**وَاللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ**﴾[7].

---

(1) أبو شامة : الروضتين، ج4، ص 220–221.

(2) أورد أبو شامة هذا الكتاب في أحداث سنة 586هـ : الروضتين، ج4، ص220، إلا أن الصحيح هذا الكتاب مرتبط بأحداث سنة 587هـ، لأن الملك ريتشارد هاجم جزيرة قبرص في ربيع ثاني 587هـ/ مايو 1191م، وقد وصله ملك بيت المقدس السابق جي دي لوزنيان وساعده في القتال في الجزيرة إلى أن استقرت له الأمور، وسلم ريتشارد الجزيرة للوزنيان مقابل مبلغ مالي يلتزم بأدائه له. ينظر الحروب الصليبية الثالثة، ج1، ص249؛ أمبرويز : صليبية ريتشارد، الموسوعة الثالثة، ج32، ص134، 135.

(3) يقصد الملك جي دي لوزنيان ملك بيت المقدس القديم.

(4) يقصد به ريشارد ملك انجلترا

(5) القسطنطينية : عاصمة الدولة البيزنطية، أنشأها الإمبراطور البيزنطي قسطنطين فسميت باسمه، وبشر الرسول صلى الله عليه وسلم بفتحها، وفتحها السلطان العثماني محمد الفاتح سنة 857هـ/1453م. ياقوت : معجم البلدان، ج4، ص347؛ المحامي : تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص 164.

(6) يعكس ذلك قناعة القاضي الفاضل بعدم وجود جدوى للعلاقة مع الإمبراطور البيزنطي أو ملك قبرص.

(7) سورة المائدة : آية 67.

كتاب رقم (101)[1]

تشديد الفرنج حصارهم على عكا سنة 587هـ/1191م [2]

أرسلَ صلاحُ الدينِ هذا الكتابَ بقلم الفاضل إلى الخليفة العباسي، وجاء فيه :

ما قَطَعَ الخادمُ الخِدَم، إلا أَنَّه قد أضجرِ وأسأم من المطالعة بخبر هذا العدو الذي قد استفحل أمرُه، واسْتَشْرَى شَرُّه، فإنَّ النَّاس ما سمعوا، ولا رأوا عدوّاً حاصِراً محصوراً، غامراً مغموراً، قد تَحَصَّن بخنادق تمنع الجائز من الجواز، وتعوق الفُرَص عن الانتهاز، ولا تقصر عَدَّتهم عن خمسة آلاف فارس، ومئة ألف راجل، وقد أفناهم القتل والأَسْر، وأكلتهم الحَرْب، ولفَظَهم النَّصْر، وقد أمدَّهم البحر بالبحار، وأعانَ

---

(1) أبو شامة : الروضتين، ج4، ص 251– 252.(أ)؛ ابن واصل : مفرج الكروب، ج2، ص 352– 354.(ج)

(2) حصار الفرنج لعكا : دخل فصل الشتاء، وعصفت الرياح، خاف الفرنج على مراكبهم التي عندهم لأنها لم تكن في الميناء، فسيروها إلى بلادهم صور والجزائر، فانفتح الطريق إلى عكا من البحر، فأرسل أهلها إلى صلاح الدين يشكون الضجر والملل، فانتقل غلى جانب البحر، ونزل تحت جبل حيفا، وجمع المراكب والشواني وقام بإبدال الأمراء، والجنود الموجودين في عكا بآخرين، وإخراج من فيها منهم، فبلغ عدد الذين خرجوا منها ثمانين أميراً مع جنودهم، وعدد الذين دخلوا على عكا بدلاً منهم عشرين أميراً فقط، وكان ذلك بسبب تقصير النواب في تجنيد الرجال إنفاذهم، وبسبب تعنت من كان على خزانة المال، ومعظمهم من النصارى الذين كانوا يسيئون المعاملة. استمرت الوقعات والمناوشات بين قوات صلاح الدين والفرنج إلى حين وصل ملك فرنسا " فيليب" في ربيع الأول 587هـ(مارس/ 1191م)، وملك انجلترا " ريتشارد" جمادي الأولى 587هـ(مايو/ 1191م)، مما كان لهما أثر كبير في نفوس الفرنج وتقوية معنويتهم، وتنظيم هجومهم، وزيادة قوتهم، فصنعوا الدبابات وزحفوا بها نحو المدينة، وقد تمكن المسلمون من إحراقها، لكن الفرنج والوا هجماتهم مرة تلو الاخرى، وحفروا تحت الأسوار، وتمكنوا من خلخلة الأسوار، وهدم جزء منها، مما دفع أهل المدينة إلى إرسال رسالة إلى صلاح الدين يعلنون فيها أن العجز بلغ غايته، ولم يبق أمامهم سوى تسليم المدينة، فعمل صلاح الدين على استنفار المسلمين من أطراف البلاد، لكنه كان قد فات الأوان ووصلت المدينة غاية الضعف، حتى قام والى المدينة المشطوب" سيف الدين على بن أحمد الهكاري" بتسليم المدينة للفرنج في يوم الجمعة السابع عشر من جمادي الآخرة سنة 587هـ(يونيو/ 1191م)، مقابل عدة شروط. ابن الأثير : الكامل، ج12، ص 66، 67؛ عاشور : الجهاد الإسلامي، ص 204؛ شاندور : صلاح الدين الأيوبي، ص323. سلم سيف الدين المشطوب عكا للفرنج ودخلوها سلماً، ولما دخل الفرنج عكا نقضوا عهودهمن وغدورا بمن فيها من المسلمين، واحتاطوا عليهم وعلى أموالهم وحبسوهم، وذلك في جمادى الآخرة 587هـ(يوليو 1191م)، متظاهرين بأنهم فعلوا ذلك حتى يصل إليهم ما اتفقوا عليه من الفدية والأسرى، وهنا شرع صلاح الدين بجمع الأموال، واجتمع عنده مبلغ كبير من المال، فارسل إليهم القسط الأول من المال والرجال والأسرى، وطالبهم بتنفيذ البند الخاص بهم كاملاً، وعندما رفضوا ، رفض تسليمهم ما تبقى من المال والأسرى، علم ريتشارد بذلك فقط الاتصال بصلاح الدين ودفعه تهوره إلى أن ساق أسرى المسلمين الذين بعكا وكانوا زهاء ثلاثة آلاف مسلم، وأوثقهم بالحبال ثم حمل عليهم حملة واحدة وقتلوهمن وكان ذلك في 27 رجب 587هـ(20 أغسطس 1191م.) الصلابي: صلاح الدين ، ص610.

أهلُ النَّارِ أهلَ النار، واجتمع في هذه الجموع من الجيوش الغربيَّة، والألسنة الأعجمية من لا يُحْصَرُ معدودُه، ولا (يُتصَوَّر)[1] في الدُّنيا وجودُه، فما أحقَّهم بقول أبي الطَّيِّب :

تَجَمَّعَ فيه كلُّ لِسْنٍ وأُمَّةٍ فما تُفْهِمُ الحُدَّاثَ إلا التَّراجِمُ[2]

حتى إنه إذا أُسر الأسير، واستأمن المستأمن، احتيج في فهم لغته إلى عِدَّة تراجم، ينقل واحدٌ عن الآخر، ويقول ثانٍ ما يقول أول، وثالث ما يقول ثان، والأصحاب كَلُّوا ومَلَّوا، وصَبَروا إلى أن ضَجِروا، وتجلَّدوا إلى أن تبلَّدوا، والعساكر التي تصل من المكان البعيد لا تَصِلُ إلا وقد كَلَّ ظَهْرُها، وَقَلَّ وَفْرُها، وضاق بالبيكار صَدْرُها، ولا تستفتح إلا بطلب الدُّستور، ويصير ضجرها مضرّاً بالسُّمعة عند العدوِّ المخذول، ولهم –قاتلهم الله– تنوعٌ في المكايد، فإنهم قاتلوا مرَّة بالأبرجة، وأخرى بالمنجنيقات، (وراودفة)[3] بالدَّبابات، (وتابعةً)[4] بالكِباش، وأونةٌ باللُّوالب، ويوماً بالنَّقْب، وليلاً بالسرابات، وطوراً بِطَمِّ الخنادق، وآناً بنَصْبِ السَّلالم، ودفعةً بالزُّحوف في اللَّيل والنّهار، وحالةً في البحر بالمراكب.

ثم شرعوا فأقاموا في وسط خيامهم حائطاً مستطيلاً يشبه السُّور من التُّراب، وتلالاً تُشْبه الأَبْرجة مدوَّرة، ورفعوها بالأخشاب، وعالوها بالحجارة، فلما كملت أخذوا التراب من ورائها ورموه قُدَّامها، وهم يتقدمون أول فأول، وترتفع حالاً بعد حال حتى صارت منه كنصف غَلْوةِ سَهْمٍ، وقد كان الحجرُ والنَّار تُؤَثِّران في أَبْرِجة الخشب، وهذه أبراج، وستائر للّرجال، والمنجنيقات من العَطَب، لا توثر فيها الحجارة الرَّامية، ولا تعمل فيها النَّار الحامية.

---

(1) في أ : يُصور.

(2) البيت من ديوان المتنبي، ج4، ص 100.

(3) رادفة : متتابعة مترادفة. ابن فارس : مجمل اللغة، 1، ص427.؛ في ج : ثالثة.

(4) في ج : رابعة.

كتاب رقم (102)[1]

احتلال الفرنج عكا 587هـ/1191م، والاستنجاد بملك المغرب[2]

أرسل صلاح الدين هذا الكتاب بقلم الفاضل إلى شمس الدولة بن منقذ بالمغرب وكان رسولاً إلى ملك المغرب المنصور أبو يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن، وجاء فيه :

لقد تجاوزت عِدَّة من قُتِلَ على عكا – يعني من الفرنج– الخمسين ألفاً، قولاً لا يطلقه التسمُّح، بل يحرزه التصفُّح. فانبروا في هذه السنة ملكا إفرنسيس[3] وإنكلتير[4]، وملوكٌ آخرون[5] في مراكب بحرية، وحَمَّالة حملوا فيها الخيول والخَيَّالة، والمقاتلة والآلة، ووصلت كلُّ سفينةٍ تحمل كل مدينة، وأحدقت بالثَّغْر، فمنعت الناقل بالسِّلاح إليه، والدَّاخل بالميرة عليه.

وأُخذ البلد على سِلْم كالحَرْب، ودخله العدو ولو لم يَدْخُلْه من الباب لدَخَلَ من النَّقْب، وما وهَنَّا لما أصابنا في سبيل الله، وما ضعفنا، ولا رجعنا وراءنا، ولا انصرفنا، بل نحن بمكاننا ننتظر أن (يبرزوا)[6] فنبارزهم، ويخرجوا فنناجزهم، وينتشروا فنطويهم، وينبثُّوا فنزويهم، وأقمنا على طرقهم، وخيَّمنا على مِخْنَقِهم، وأخذنا بأطرار[7] خندقهم، وأحوج ما كُنَّا الآن إلى النجدة البحرية، والأساطيل المغربية، فإن عاريتنا بها تُرَدّ، وعاديتنا بها تشتد.

والأمير يُبلِّغ ما بلغه من خَطْب الإسلام وخُطُوبه، ويقوم في البلاغ يوم الجمعة مقام (خطيبه)[8]، ويعجل العودة وقبلها الإجابة، ويستصحب السَّهْم ويسبق بِبُشْرى الإصابة، ويُشعر أن الرَّاية قد رفعت لنصرٍ تقدَّم به عِرابَه، فإن للإسلام نظرات إلى الأُفُق الغربي يقلِّبها، وخطرات من

---

(1) أبو شامة : الروضتين، ج4، ص265–266 (أ)؛ ابن واصل : مفرج الكروب، ج2، ص361– 362 (ج).

(2) يلاحظ تكرار استنجاد صلاح الدين بملك المغرب في مواجهة الصليبيين، الذين كانوا يحاصرون عكا، ويهددون مدن الساحل، ولكن دون إجابة، وهو يعكس انقطاع الدعم والإمدادات إلى صلاح الدين، وأنه تُرك وحيداً ليواجه الغرب الذي توحد ضد الإسلام والمسلمين.

(3) يقصد فيليب أغسطس ملك فرنسا.

(4) يقصد ريتشارد ملك انجلترا.

(5) من أشهر الملوك الآخرين الذين وصلوا للمشاركة في حصار عكا الكونت هنري والذي تعرفه المصادر العربية باسم الكندهرين وكان له دوراً كبيراً في رفع الروح المعنوية للصليبيين. العماد : الفتح، ص 247.

(6) ج : يبارزوا.

(7) أطرار : جمع طُرة، وطُرة كل شيء ناصيته، والأطرار هي الأطراف. ابن منظور : اللسان، ج4، ص500.

(8) ج : طيبه.

اللُّطْف الخفي يقرِّبها، ويكفي من حُسْنِ الظَّنِّ أنها نظرةٌ رَدَّتِ (الهوى)[1] الشَّرْقي غَرْباً، وخَطْرَةٌ أوهمت أن تلك الهِمَّة لوتُلِمُّ بالسَّفَائن، لأخذت كلَّ سفينةٍ غَصْباً.

(1) ج : الهواء.

كتاب رقم (103)[1]

عزم صلاح الدين على الحج ورفض الفاضل خوفاً من نقض الفرنج للهدنة.

أرسل الفاضل هذا الكتاب إلى صلاح الدين ناصحاً بعدم الحج سنة 587هـ/1191م، وجاء فيه :

إنَّ الفرنج لم يخرجوا بَعْدُ مِنَ الشَّام، ولا سَلُوا عن القُدْس، ولا وُثِقَ بعهدهم في الصُّلْح، فلا يؤمَنْ مع بقاء الفرنج على حالهم، وافتراق عسكرنا وسفر سُلْطاننا سفراً مقدَّراً معلوماً مُدَّة الغيبة فيه أن يَسْرُوا ليلةً فيصبِّحوا القُدْسَ على غَفْلَةٍ، فيدخلوا إليه –والعياذ بالله– ويَفْرُطُ من يد الإسلام، ويصيرُ الحج كبيرةً من الكبائر التي لا تُغْفر، ومن العَثَرات التي لا تُقال.

وحاجُّ العراق وخُراسان[2] أليس هم مئتي ألف أو ثلاث مئة ألف أو أكثر، هل يؤمن أن يقال قد سار السُّلْطان لطلب ثار[3]، وسَفْكِ دم، وتشويش موسم، فاقعُدُوا، فيكون تاريخَ سَوْءٍ، أعوذُ بالله منه، ما هذه الشَّناعة مُمتنعة الوقوع، ولا مستبعدة من العقول السَّخيفة، فَيُنْعِمُ المولى بتأَمُّلِ ما أنهاه المملوك مستوراً، فإنه يَسْأل مولانا أن لا يُشارك أحداً فيما يكتُبُه لا من مُهِمٍّ، ولا من غير مُهِمٍّ.

يا مولانا، مظالمُ الخَلْقِ كَشْفُها أَهَمُّ من كل ما يُتَقَرَّب به إلى الله، وما هي بواحدةٍ، في أعمال دمشق من المظالم من الفلاحين ما يُسْتَغرب معه وقوع القَطْر، ومن تَسَلُّطِ المُقْطَعين على المنقطعين ما لا يُنادَى وليدُه، وفي وادي بَرَدى[4] والزَّبَداني[5] من الفِتْنة القائمة والسَّيف الذي يَقْطُر دماً ما لا زاجر عنه، وللمسلمين ثغورٌ تريد التحصين والذَّخيرة، ومن المهمَّات إقامة وجوه الدَّخْل وتقدير الخَرْجِ بحسبها، فمن المستحيل نفقة من غير حاصل، وفرع من غير أصل، وهذا أمرٌ قد

(1) أبو شامة : الروضتين، ج4، ص333، 334.

(2) خراسان : بلد واسعة أول حدودها مما يلي العراق وآخر حدودها مما يلي الهند، فتحت أكثر هذه البلاد عنوةً وصلحاً، وذلك أيام عثمان رضي الله عنه سنة 31هـ. ياقوت : معجم البلدان، ج2، ص 401.وهي إقليم في إيران حالياً.

(3) المقصود به الثأر للأمير شمس الدين بن المقدم الذي خرج للحج سنة 583هـ، وكان أمير حجاج الشام فأراد أن يرفع علماً على الجبل فمنعه أمير الحاج العر اقي طاكشتين، فجرت بينهما مناوشات أفضت إلى الخصومة بين حاج العراق وحاج الشام، فاصيب ابن المقدم وتوفي بمنى 583هـ.أبو شامة : الروضتين، ج3، ص425.

(4) بَرَدَى : أعظم أنهار دمشق، يصب بقرية تعرف الفيجة، وهو نهر حفره يزيد بن معاوية في لحف جبل قاسيون. ياقوت : معجم البلدان، ج1، ص 450.

(5) الزَّبَدَانِيّ : كورة مشهورة بين دمشق وبعلبك منها خرج نهر دمشق، وإليها ينسب العدل الزبدان الذي كان يترسل بين صلاح الدين الأيوبي والفرنج.ياقوت : معجم البلدان، ج3، ص 164.

تقدَّم فيه حديثٌ كثير، وعَرَضَتْ للمولى شواغِلُ دونه، وَمَشَتِ الأحوالُ مشياً على ظَلْعٍ، فلما خَلَتِ النُّوَب –أعاذ الله مِنْ عَوْدها– كان خُلُوُّ بيتِ المال أشدَّ ما في الشِّدَّة، وليس المملوك مطالباً بذخيرة تُحَصَّل، إنما يطلُبُ تمشيةً من حيث تستقر.

كتاب رقم (104)[1]

تخاذل أمراء صلاح الدين عنه خلال حصار يافا[2] سنة 588هـ/1192م [3]

من مكاتبات الفاضل حول ذلك قوله :

كَثُرَ الإرجاف[4] بهلاك ملك الإنكلتير[5]، فإن كان كذلك فجوابُ كلِّ من قَصَّر في يافاعن أخذه عن السُّلْطان ﴿**إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللّهُ**﴾[6]، وجوابُ السُّلْطان لهم عن ملك الإنكلتير : إلا تقتلوه فقد قتله الله. ولم يزل لطيفاً، ولم يزل مولانا يحمل الثقل ثقيلاً وخفيفاً، ومن كان الله عليه لم يكن قوياً، ومن كان الله معه لم يكن ضعيفاً.

---

(1) أبو شامة : الروضتين، ج4، ص323.

(2) يافا : مدينة عربية عريقة يمتد تاريخها إلى 4000سنة ق.م، بناها الكنعانيون، تعرضت لغزو الفراعنة والآشوريين والبابليين والفرس واليونان والرومان، ثم فتحها عمرو بن العاص. الحاج : معجم محمود درويش، ص 238.

(3) كانت يافا بيد الفرنج، فنازل صلاح الدين مدينتها وقاتل من بها منهم، وملكها في العشرين من رجب 588هـ/1192م عنوة، غنم المسلمون ما فيها وقتلوا الفرنج وأسروا كثيراً، وكان جماعة من المماليك الصلاحية قد وقفوا على أبواب المدينة وكل من خرج من الجند ومعه شيء من الغنيمة أخذوه منه، فإن امتنع ضربوه وأخذوا منه ما معه قهراً، فوصلت نجدة من عكا على رأسها ملك انكلترا، فأخرج من في يافا من المسلمين، فأمر صلاح الدين عساكره بالحملة عليهم، فتقدم إليه بعض أمرائه ويدعى الجناح وهو أخو المشطوب ابن علي بن أحمد الهكاري، فقال له : يا صلاح الدين قل لمماليكك الذين أخذوا أمس الغنيمة، وضربوا الناس يتقدموا فيقاتلوا؛ إذا كان القتال فنحن، وإذا كانت الغنيمة فلهم،. فغضب صلاح الدين من كلامه وعاد عن الفرنج، وبقيت يافا في أيديهم.ابن الأثير : الكامل، ج12، ص84– 85.

(4) الإرجاف : الخبر الكاذب المثير للفتن والاضطراب، والجمع أراجيف.المعجم الوسيط، ج1، ص332.

(5) يقصد ملك انجلترا ريتشارد قلب الأسد.

(6) سورة التوبة : آية 40.

كتاب رقم(105)[1]

دوافع الفرنج لتوقيع هدنة الرملة سنة 588هـ/1192م[(2)]

من مكاتبات الفاضل حول ذلك، قوله :

وقد فعلت الأقدار في رياضة عرائكهم ما كان سببه هذه الحركات المباركة، وكيف يشنِّع ملك إنكلتير[(3)] بالغّدْر، وهو –لعنه الله– قد أتى بأقبح الغَدْر وأفحشه في أهل عكا نهاراً جِهاراً، وشهد فيها بخَزْيته وفضيحته المسلمون والنَّصارى، وغَدْرُ الفرنجِ معلومٌ.

إذا غَدَرَتْ حَسْناءُ أَوْفَتْ بعَهْدِها وَمِنٍ عَهْدِها أَنْ لا يدوم لها عَهْدُ

القوم هادنوا لما ضعفوا، ويفسخون إذا قووا، ونحن ننتظر في ملك إنكلتير ما تُفْصح عنه المقادير في أمره، إما الهلاك وشاباش[(4)] لها، فيلقى الأَحِبَّة : المركيس[(5)] ودوك وملك الألمان، ويؤنس في النَّار غُرْبتهم، ويكثر عِدَّتهم، وإما أن يُعافى فهو بين أمرين، إما أن يرجع إلى لعنة الله، وإلى مروءة البحر في تغريقه، وإما أن يقيم، فهنالك قد أبدى الشَّرُّ ناجذيه، ونكص الملعون من الوفاء على عقبيه، وانتظر الفُرْصة لتُنْتَهز، والعورة لِيَثِبَ.

---

(1) أبو شامة : الروضتين، ج4، ص 327– 328

(2) هدنة الرملة : بدأت الاتصالات بشأن الهدنة بين صلاح الدين والفرنج خلال حصارهم لعكا، إلا أن تلك الاتصالات تركزت على إنهاء حصار عكا، وقد فشلت تلك الاتصالات، ثم تجددت بعد سقوط عكا وجرى الاتصال الأول سنة 587هـ/1191م، حيث التقى الملك العادل أخو صلاح الدين بريتشارد وقد اخفق اللقاء بعد مطالبة ريتشارد بان تعود كل المدن والمعاقل الفرنجية التي انتزعها المسلمون، ورفض العادل لذلك، واستمرت الاتصالات بين الطرفين إلى أن تم توقيع الهدنة بينهما في شعبان 588هـ/أغسطس 1192م، وكانت مدة الهدنة ثلاث سنوات وثمانية أشهر، ومن نصوصها أن يكون للفرنج المنطقة الساحلية من صور شمالاً إلى يافا جنوباً، بما فيها قيسارية وأرسوف وحيفا وعكا، واقتسام اللد والرملة بين الطرفين، وأن تكون عسقلان بيد المسلمين بعد تخريب أسوارها، وما دون ذلك يكون بيد المسلمين. العماد : الفتح، ص 354؛ ابن شداد : النوادر، ص314–315؛ زكار : حطين، ص 183.

(3) يقصد ملك الإنجليز ريتشارد.

(4) شاباش : كلمة فارسية معربة تقال في التهنئة والفرح. المعجم الذهبي : ص360، 361.

(5) يقصد المركيز كونراد ملك صور.

الخاتمة

من خلال هذا البحث تم التوصل إلى النتائج التالية :

– أهمية رسائل القاضي الفاضل واعتبارها في مقدمة المصادر المعاصرة والموثوقة عن الحروب الصليبية، وسيرة صلاح الدين .

– مكانة القاضي الفاضل وقربه من صلاح الدين وتقديره الكبير له، واعتماده الواسع عليه، واستشارته في الكثير من الأمور.

– أهمية تحقيق الوحدة بين الأمة كخطوة مهمة على طريق التحرير.

– بذل صلاح الدين جهداً كبيراً لتوحيد الأمة، ولم ينازل الفرنج في المعركة الفاصلة في حطين، إلا بعد أن انتهى من توحيد الأمة حيث كانت آخر محطاته ضم الموصل أواخر 581هـ.

– حرص صلاح الدين على عدم استخدام العنف ويكتفي بالحصار للمدن والقلاع ما أمكن، ويستجيب لكل عمليات الصلح ويُبقي من يدخل في طاعته في البلد الذي يحكمه أو يكتفي بنقله إلى بلدٍ آخر ليحكمه، وكان شرطه الأساسي في كل عمليات الصلح هو أن يكونوا مستعدين لتوفير الجند له إذا ما استدعاهم لمقاتلة الفرنج.

– جميع المعارك التي خاضها صلاح الدين مع الفرنج قبل حطين هي معارك محدودة ويرجع هذا إلى رغبته في التفرغ لتوحيد الأمة أولاً.

– كانت علاقة صلاح الدين مع الخليفة العباسي هي علاقة جيدة، ويُستدل على ذلك من كثرة رسائل صلاح الدين بقلم الفاضل له والتي كان يطلعه فيها بكل التفاصيل أولاً بأول.

– تُفند هذه الرسائل معلومة مشهورة في كتب التاريخ كان مصدرها ابن الأثير والتي قال فيها أنَّ صلاح الدين تراجع عن حصار الكرك بعد وصول نور الدين محمود مُؤثراً بقار الفرنج، إلا أن هذه الرسائل بقلم الفاضل تضمنت رسالة قيمة فيها تقرير موجه من صلاح الدين إلى نور الدين من أمام الكرك يشرح له فيها هذه الغزوة، ونتائجها وهو ما يمثل تبرئة لصلاح الدين من هذه العثرة التي أُلصقت فيه في كتب التاريخ، ويُسقط رواية ابن الأثير تماماً.

– تعكس هذه الرسائل عشق صلاح الدين للجهاد ومقاومة الفرنج، وأنه لم يُوفر جهداً في تحرير بلاد المسلمين، ونجح في ذلك إلى حدٍ كبير، وكان له ذروة ذلك انتصار حطين، وتحرير بيت المقدس.

- فشلت الحملة الصليبية الثالثة في احتلال بيت المقدس وهو هدفها الرئيسي، لكنها نجحت في إعادة احتلال جزء من مدن الساحل.
- كان السبب الرئيس لنجاح الفرنج في العودة إلى الساحل هو الأعداد الضخمة التي كانت تصل بشكلٍ متواصل من أوروبا عبر البحر إلى ساحل الشام، مقابل ضجر قوات صلاح الدين من طول فترة القتال، ورغبتهم في العودة إلى بلادهم، وعدم توفر أي إمدادات مادية أو بشرية إضافية لصلاح الدين بعكس الفرنج.
- مرت العلاقات بين صلاح الدين والإمبراطورية البيزنطية، لكنها تطورت في النهاية وكان هناك مراسلات وهدايا بين الطرفين.

الملاحق

مكاتبات
حسن التوسل للاكرم الفاضل
رحمه الله تعالى

هذه الرسالة [illegible] القاضي محمود [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

فتح آمد سنة 579هـ/1184م

مكاتبات من الترسل، ص126

وفي المعنى

كتابنا وقد انعم الله علينا بنعمه لا يحصيها التعداد ولا يستقصيها
الاعتداد ولا تستوعبها ولو ان لها الانهار طروس والبحر مداد
ورايتنا المنصورة بمن صارت معاطين البلاد بجدها بطبعها
وسيوفنا قد صارت مفاتح الامصار نفتحها بسم الله ونغلقها وانقطعها
فقد كفانا من الاحسان علينا بوعيد بلا موونه لمطل ولا منه لمحتاز
ولما قطعنا الفرات بعثنا سرعان العسكر الى تل خالد فنزلوا بعقوتها
ووقعت المنجنيق بيدها الى ذروتها فلما نزلنا بها نزل من فيها على حكمنا
واجريناه من الاحسان على عادتنا واستخرنا من حربنا بذمه سلمنا
وطوينا التي اجرى الله بحسن نيتنا كتاب فتحها ونفر الله بها الحيوف
استرع من لحصاها
وفي المعنى
من النعم ما يزيد في حلاوه موقعه ويديه مطلعه ويرفع قدره ويهوله
امره ويضحى من موزده ورود الفتح سابقا لموعده وتلك حال النعمه
في فتح تل خالد فانه اعطى الفتاد قبل عراكه ولم يفرط منها فانه
تحتاج الى استنقاذ واكه ونزل مستعفيا من المنازله والتعبيده قبل
القاء موافق المقاتله وكتابنا هذا وقد تسلمنا قلعه ذات العصبه
المنيعه وبلدته ذات المرسا لنبوا لوسيعه الرسيعه وجاء هذا
الفتح بما بعد من الفتوح طليعه وكان عجاله القرى عند مقدمنا
من بلاد الجزيره وسابق فتوح لما بعده من البلاد الكبيره والله يتولى
من ذلك ما يكون الصنع فيه صنعه وما علينا الا الجهد وان يبذل وسعه
في المعنى
افرب النعم دالقربها مولدا واولاها القلوب وقد اصدقها الحبوب
عهدا وكتابنا هذا وقد جزنا الفرات ونزلنا تل خالد واستنزلنا من بها

وبعد ان استشهد ولنا وفينا موعدها جعلتها والحمد لله الذي تتم النعم
بحمده ونجح الامل بفضله ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك
لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده ○ وفي المعنى

مبشرة بفتح امد

وقد رفعت على قلعتها اعلامنا ونفذت في مدينتها احكامنا ونال
صاحبها حلمنا وعم اهلها صفحنا ووفاه فيها موعدنا ونجح والحمد لله مقصدنا
والان الله لنا صعبها وحط في قبالة دولته ايام صعدتها وله الحمد
دائما والشكر خالصا والدين واصبا وكل مستعيذ بالله من ان
يظن ان لنا في هذا الصنع صنعا او نعتقد انا نملك لانفسنا
ضرا او نفعا ○

وفي المعنى

نزلنا على امد واستعدنا لها واردنا ان ننجز الملك نور الدين
موعدها فعجلت بقدرة الله ايام اعتقت بتلها وحجبت الدماء اهبها
وردت السيوف عن بطانها الى قربها والحمد لله الذي فتح منها ما كان
في وجوه المحمد مسدودا وجعل نار الفتنة البنى لها الاستلام حلبانه بيان دونها
الصفح يا نار كوني بردا ○

وفي المعنى

مشعرة بفتح امد وهي التي طالما اعرضت كاتبها وصدت عن خاطبها
فرضناها بشجاعة عزم على الاولياء فرضنا لها فتسلمها
صاحبها مستاما منا وسام منا الاحسان الذي طالما ارخصناه
على امتنا منا وقضينا الملك نور الدين عدتها والبلد ها ما لكه
وواهبه والدنيا لا تكون ذاهبة الا ممن لا يكون لها واهبه

وفي المعنى

توجهنا الى امد وقد نجد الاعداء ظهيرا او ولانا الله نصيرا
وظهورا واستصحبنا وهم من ملوك بلادهم من كتابه كان الله

سبحانه وجعلنا له نوراً وهي طريقة الصدر الاول التي صدر عنها [illegible]

وردها حاصلاً على راحة باسه وتعب طردها ففتحها الله باليسر بعد المعاناة

وبلغنا صاحبها وكافة اهل البلد ما كان اقصى الاماني من الامانات وكتابنا

هذا ومنبر الجمعة باسمنا صادح والملك عقيم وكل عاتقه بانه

معنا لاح [illegible] وقد اعطينا الملك نور الدين ما روت عن سلفه ارادته

وحسن الله على يدينا افادته ٥ وفي المعنى

واما بعد ذلك فحدث احدث النعم بها عهداً واولاها ان يوظف من

شكرها على طول ورد اما اعد [illegible] به ايها الامير وذلك انا قصدنا

امد لنتقلها من ان تكون موردا للشهوات الى ان تصير مصدرا

للغزوات ومن ان يكون عسكرها محل السلاح زينة يمد اليها الابصار

الى محله شوكة تعصف بها الكفار فنزلنا عليها ولم يكن الا ريثما بلثه

ايام وبينما فتح الجفن عين نصله واستيقظ صاحبها نحو الفناء من هزله

فاستامن فأمن على نفسه وماله واهله وكانها هي اول النصر

فقد بلغه معانقاً القلعة وخطيب منبرها قايم باسمنا [illegible]

تسلمنها الموافقة لساعة جمعتنا ووصلنا الملك الاجل نور الدين

وقبلنا مهرها منه مغربة في سبيل الله اوجهه ٥

فصل بفتح تل خالد

نشعر الامير فلان انا نزلنا على تل خالد يوم الثلثا ثاني عشر المحرم

وقد كان تقدمنا الاجل تاج الملوك اليها واناخ عليها وقاتلها وقابلها

وعاجلها ولو شا لعاجلها ولما طالت عليها رايتنا القى من فيها بيده ٥

والخبر المنصرم صادق موعده واصفى عند مورده عذب مورده

واجرى الله على العادة فلا عدم فضلها رجا معوده وكتابنا وقد صارت

في القبضة واستحقت بها هذه النهضة وان سلمها طلب مقدمه لفتحها

وعوجلت لليلة سرى العزم بصبحها ٥

فتح تل خالد سنة 579هـ/1184م

مكاتبات من الترسل، ص 129.

وفي المعنى

كتابنا وقد انعم الله علينا بنعمه لا يحصيها التعداد ولا يستقصيها
لعتداد ولا يستوعبها ولو ان لها الانهار طروس والبحر مداد
وراينا المنصوره منه صارت معناطيس البلاد يجذبها بطبعها
وسيوفنا قد صارت مفاتح الامصار نفتحها بسم الله ونغلقها وانقطعها
فقد كفانا من الاحسان عليه ابو عبيد بلا مؤنه لمطل ولا منه لمحتاز
ولما قطعنا الفرات بعثنا سرعان العسكر الى تل خالد فنزلوا بعقوتها
ورفعت المجانيق يدها الى ذروتها فلما نزلنا بها نزل من فيها على حكمنا
واجريناه من الاحسان على رسمنا واستجار من جريان دمه سلبنا
وطوينا التي اجرى الله بحسن نيته في ربا كتاب فتحها ونقر الله بها العيون
اسرع من لمحها

وفي المعنى

من النعم ما يزيد في حلاوه موقعه ويدنيه مطلعه ويرفع قدره وتهوله
امره وتصغي من موزده وروده النجح سابقا لموعده وتلك حال النعمه
في فتح تل خالد فانه اعطى القياد قبل عراكه ولم يفرط من بها فانه
يحتاج الى استنفاد واكه ونزل مستعفيا من المنازله والقى بيده قبل
لقاء مواقف المقاتله وكتابنا هذا وقد تسلمنا قلعة ذات العصبه
المنيعه وبلدته ذات المرتبه الوسيعه الرسيعه وجاء هذا
الفتح بما بعد من الفتوح طليعه وكان عاله القرى عند مقدمنا
من بلاد الجزيره وسابق فتوح لما بعده من البلاد الكبيره والله يتولى
من ذلك ما يكون النجح فيه صنعه وما لنا فيه الجهد وان بذل وسعه

في المعنى

افرب النعم دار فيها مواد اوراها القلوب ودامت صدقتها الجيوب
عبيد او كتابنا هذا وقد جزنا الفرات ونزلنا تل خالد واستنزلنا من بها

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: القرآن الكريم

ثانياً : المخطوطات

إسماعيل بن محمد :

1- مكاتبات من الترسل

ابن نباتة، جمال الدين(ت 768هـ/ 1366م) :

2- كتاب فيه من كلام القاضي الفاضل، تحقيق إلياس مخلوف، الجامعة الأمريكية- بيروت،1387 هـ/1967م.

ثالثاً : المصادر العربية

ابن الأثير، أبو الحسن عز الدين على بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني(ت سنة 630هـ/1233م) :

1- الكامل في التاريخ، دار صادر- بيروت، د.ت

الأزهري، أبو منصور محمد بن أحمد(370هـ/981م) :

2- تهذيب اللغة، تحقيق محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي- بيروت، ط1،1422هـ/ 2001م.

ابن أبي أصيبعة، موفق الدين أبي العباس أحمد حمد بن القاسم بن خليفة بن يونس السعدي الخزرجي(ت 668هـ/1270م) :

3- عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق نزار رضا، دار مكتبة الحياة- بيروت.

ابن إدريس، **أبو القاسم إسماعيل بن عباد بن العباس بن أحمد بن إدريس الطالقاني(385هـ/995م) :**

4- المحيط في اللغة، تحقيق محمد حسن آل ياسين، عالم الكتب- بيروت، ط1،1414هـ/ 1994م.

ابن إدريس، منصور بن يونس بن إدريس البهوتي(1051هـ/1641م) :

5- كشاف القناع عن متن الإقناع، تحقيق هلال مصيلحي مصطفى هلال، دار الفكر- بيروت، 1402هـ /1982م.

الأصبهاني، أبو الفرج(356هـ/967م) :

6- الأغاني، تحقيق علي مهنا، سمير جابر،ج12، دار الفكر- بيروت.

بدران، عبد القادر(ت 1346هـ/1928م) :

7- منادمة الأطلال ومسامرة الخيال، تحقيق زهير الشاويش، المكتب الإسلامي- بيروت، ط2،1405هـ/1985م.

البغدادي، صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق (ت 739هـ/1339م) :

8- مراصد الإطلاع، مختصر معجم البلدان لياقوت، تحقيق علي البجاوي، ج2، دار المعرفة للطباعة والنشر- بيروت، ط1،1373هـ/ 1954م.

البغدادي، محمد بن عبد الغني أبو بكر(ت 629هـ/1232م) :

9- تكملة الإكمال، ج1، تحقيق عبد القيوم عبد ريب النبي، جامعة أم القرى- مكة المكرمة، ط1، 1410هـ/1190م.

البنداري، الفتح بن علي بن محمد (القرن الثالث عشر):

10- سنا البرق الشامي مختصر البرق الشامي للعماد الأصفهاني، تحقيق فتحية البراوي، مكتبة الخانجي- القاهرة،1399هـ/1979م.

ابن تغري بردي، أبو المحاسن جمال الدين يوسف الأتابكي(ت 874هـ/1470م) :

11- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج6، تعليق محمد حسين شمس الدين، دار الكتب بيروت، ط1،1412هـ/1992م.

ابن أبي جرادة، كمال الدين عمر بن احمد(ت 660هـ/1262م) :

12- بغية الطلب في تاريخ حلب، ج2، تحقيق سهيل زكار، دار الفكر.

ابن حجة، تقي الدين أبي بكر بن علي بن عبد الله بن عبد الله التقي الحموي(ت 838هـ/1435م) :

13- طيب المذاق من ثمرات الاوراق، ج1، تحقيق أبو عمار السخاوي، دار الفتح ، الشارقة،1418هـ/1997م.

الحلبي، كمال الدين ابي القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله ابن العديم(ت 660هـ/1262م) :

14- زبدة الحلب من تاريخ حلب، ج1، تحقيق خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1،1417هـ/ 1996م.

الحنبلي، أحمد بن إبراهيم(ت 876هـ/1472م) :

15- شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، تحقيق مديحة الشرقاوي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1،1417هـ/ 1996م.

الحنبلي، مجير الدين الحنبلي العليمي(ت 927هـ/1521م) :

16- الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ج، 1تحقيق عدنان يونس عبد المجيد نباتة، مكتبة دنديس- عمان،1420هـ/ 1999م.

ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت سنة 808هـ/1406م) :

17- ديوان المبتدأ أو الخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ج5، مراجعة سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع- لبنان،1421هـ/ 2000م.

ابن خلكان، شمس الدين أحمد بن إبراهيم بن أبي بكر(ت سنة 681هـ/1282م) :

19_ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت،1388هـ/ 1968م.

الداوداري، أبي بكر بن عبد الله بن أيبك:

20- كنز الدُّرر وجامع الغرر(الدُّر المطلوب في أخبار ملوك بني أيوب) ج7، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة،1392هـ/ 1972م.

ابن أبي الدم، شهاب الدين إبراهيم الحموي(ت سنة 642هـ/1244م) :

21- التاريخ المظفري، الموسوعة الشاملة في الحروب الصليبية، سهيل زكار، ج21، دار الفكر العربي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت،1416هـ/ 1995م.

الدمشقي، عبد القادر بن محمد النعيمي (ت 978هـ/1570م) :

22_ الدارس في تاريخ المدارس، ج1، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1،1410هـ/ 1990م.

الدمشقي، ابن ناصر الدين شمس الدين محمد بن عبد الله بن محمد القيسي(ت 842هـ/1439م) :

23- توضيح المشتبه في أسماء الرواة وأنسابهم وألقابهم وكناهم، ج5، تحقيق محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1،1413هـ/ 1993م.

الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان(ت 748هـ/1347م) :

24 – سير أعلام النبلاء، تحقيق بشار معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1،1401هـ/ 1981م.

25- تهذيب سير أعلام النبلاء، ج3، تحقيق شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1،1411هـ/ 1991م.

26- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، حوادث ووفيات 591- 600هـ، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط2،1420هـ/ 1999م.

27- العبر في خبر من غبر، دار الكتب العلمية، بيروت.

الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القاهر(ت سنة 721هـ/1321م) :

28- مختار الصحاح، تحقيق محمود خاطر، مكتبة لبنان، بيروت،1416هـ/ 1995م.

ابن رجب، زين الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن شهاب الدين البغدادي الدمشقي(795هـ/1393م) :

29- فتح الباري في شرح صحيح البخاري، تحقيق أبو معاذ طارق بن عوض الله، دار ابن الجوزي- السعودية، ط2، 1422هـ/2001م.

الزبيدي، محمد مرتضى الحسينى(1205هـ/1791م) :

30- تاج العروس من جواهر القاموس، دار الهداية.

السبكي، أبو نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي(ت سنة 771هـ/1370م) :

31- طبقات الشافعية الكبرى ،ج6، تحقيق مصطفى عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية- بيروت، ط1،1420هـ/ 1999م.

السيوطي، جلال الدين بن عبد الرحمن (ت 911هـ/1505م) :

32- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية- بيروت.

أبو شامة، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الدمشقي(ت 665هـ/1267م) :

33- الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، 5ج، تحقيق إبراهيم الزيبق، مؤسسة الرسالة- بيروت ، ط1،1418هـ/ 1997م.

ابن شاهنشاه، محمد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه الأيوبي(ت سنة 617هـ/1220م) :

34- مضمار الحقائق وسر الخلائق، تحقيق حسن حبشي، عالم الكتب- القاهرة، 1388هـ/ 1968م.

ابن شداد، بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع(ت سنة 632هـ/1235م) :

35- النوادر السلطانية والمحاسن اليوسيفية(سيرة السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي)، تحقيق جمال الدين الشيَّاك ، مكتبة الخانجي- القاهرة، ط2،1414هـ/ 1994م.

الشريف الرضى :

36- ديوان الشريف الرضى، ج1.

الصابوني، محمد بن علي (ت 680هـ/1281م) :

37- تكملة إكمال الكمال، ج1

الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك(ت 764هـ/1363م) :

38- الوافي بالوفيات، تحقيق أحمد الأرناؤوط، دار إحياء التراث- بيروت،1421هـ/ 2000م.

ابن عبد الظاهر، محي الدين(ت 692هـ/1292م) :

39- الدر النظيم من ترسل عبد الرحيم، تحقيق أحمد بدوي، مكتبة نهضة مصر - القاهرة

العسكري، أبو الهلال(382هـ/992م) :

40 – جمهرة الأمثال، دار الفكر– بيروت، 1408هـ/ 1988م.

العكبري، أبو البقاء(616هـ/ 1219م) :

41– ديوان المتنبي، تحقيق مصطفى السقا، وآخرون، ج1، دار المعرفة– بيروت.

العماد، عماد الدين أبو عبد الله محمد بن محمد بن حامد الشهير بعماد الدين الكاتب الأصفهاني(ت سنة 597هـ/1201م) :

42– حروب صلاح الدين وفتح بيت المقدس المسمى الفتح القسي في الفتح القدسي، تعليق إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية– بيروت، ط1،1423هـ/ 2002م.

43– جريدة القصر وخريدة العصر(قسم شعراء مصر) ج11، تحقيق إحسان عباس وآخرون، المجمع العلمي العراقي– العراق،1374هـ/ 1955م.

ابن العماد، أبي الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي (1089هـ/1678م) :

44– شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج5، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع .

أبو الفداء، الملك المؤيد عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن علي بن محمود ابن عمر ابن شاهنشاه بن أيوب(ت 732هـ/1332م) :

45– تاريخ أبي الفداء (المختصر في أخبار البشر) تعليق محمود أيوب، دار الكتب العلمية– بيروت، ط1،1418هـ/ 1997م.

الفراهيدي، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد(175هـ/791م) :

46– كتاب العين، ج1، تحقيق مهدي المخزومي، وإبراهيم السامرائي، منشورات مؤسسة الاعلمي للمطبوعات، لبنان، ط1 1408هـ/ 1988م.

القلقشندى، أبو العباس أحمد (ت سنة 821هـ/ 1418م) :

47– صبح الأعشى في صناعة الانشا، دار الكتب المصرية– القاهرة، 1337هـ/ 1919م.

بن قاضي شهبة، أبو بكر بن أحمد بن محمد بن عمر(ت 851هـ/1447م) :

48– طبقات الشافعية، ج2، تحقيق الحافظ عبد العليم خان، عالم الكتب– بيروت، ط1، 1407هـ/1987م.

الكتبي، محمد بن شاكر (ت 764هـ/1363م) :

49– فوات الوفيات والذيل عليها، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة– لبنان.

ابن كثير، عماد الدين إسماعيل بن عمر الدمشقي(ت 774هـ/1373م) :

50– البداية والنهاية، تحقيق أحمد عبد الوهاب فتيح– دار الحديث، القاهرة، ط1،1412هـ/ 1992م.

كنعان، محمد بن أحمد:

51- تاريخ الدولة العباسية ومارافقها من الممالك، ق1، (خلاصة ابن كثير) مؤسسة المعارف للطباعة والنشر- بيروت، ط1، 1419هـ/ 1998م.

المراكشي، عبد الواحد (ت 647هـ/1249م) :

52- المعجب في تلخيص أخبار المغرب من لدن فتح الأندلس إلى آخر عصر الموحدين،ج1، تحقيق محمد سعيد العريان، محمد العربي العلمي، مطبعة الإستقامة- القاهرة، ط1 1368هـ/1949 م.

مسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري(261هـ/875م) :

53- صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي،ج3،8، دار إحياء التراث العربي- بيروت.

ابن منظور، محمد بن مكرم الأفريقي المصري(ت سنة 711هـ/1311م) :

54- لسان العرب، 5ج، دار صادر- بيروت، ط1.

المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي (ت 824هـ/1421م) :

55- السلوك لمعرفة دول الملوك، تصحيح محمد مصطفى زيادة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر- القاهرة، ط 2،1391هـ/1971م.

56- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار(الخطط المقريزية)، ج2، مكتبة الثقافة الدينية- القاهرة ، ط2،1407هـ/ 1987م.

57- إتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، ج3، تحقيق جمال الدين الشيَّال، وزارة الأوقاف- مصر، ط2،1417هـ/ 1996م.

المقري، أحمد بن محمد بن علي الفيومي(770هـ/1369م) :

58- المصبح المنير(معجم عربي- عربي) دار الحديث- القاهرة، ط1،1421هـ/2000م.

النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت 732هـ/1332م) :

59- نهاية الأرب في فنون الأدب، ج8، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر والطباعة- مصر.

ابن الوردي، زين الدين عمر بن مظفر(ت 749هـ/1348م) :

60- تتمية المختصر في أخبار البشر المعروف بتاريخ ابن الوردي، دار الكتب العلمية- بيروت، ط1، 1417هـ/ 1996م.

اليافعي، أبو محمد عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان اليافعي اليمني المكّي (ت 768هـ/1367م) :

61- مرآة الجنان وعبرة اليقظان، دار الكتاب الإسلامي- القاهرة، ط2، 1413هـ/ 1993م.

ياقوت، شهاب الدين أبي عبد الله بن عبد الله الحموي(ت سنة 626هـ/1229م) :

62- معجم البلدان،5ج، دار صادر- بيروت، 1404هـ/ 1984م.

63- معجم الأدباء إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، تحقيق إحسان عباس، ج5، دار المغرب الإسلامي- بيروت، ط1، 1413هـ/ 1993م.

مؤلف مجهول :

64- جمهرة اللغة، تحقيق رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين- بيروت، ط1،1407هـ/ 1987م.

رابعاً : الموسوعات العلمية

أبو حجر، آمنة:

1- موسوعة المدن والقرى الفلسطينية، ج1، دار أسامة للنشر- عمان، ط1، 1424هـ/ 2003م.

الحفني، عبد المنعم :

2- موسوعة الفرق والجماعات والمذاهب الإسلامية، دار الرشاد، ط1،1413هـ/ 1993م.

3- الموسوعة الفلسطينية، قسم الدراسات الخاصة، القسم الثاني، ج2، هيئة الموسوعة العلمية- بيروت،1410هـ/ 1990م.

خامساً:المراجع العربية

بدوي، أحمد :

1- ديوان القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني(596هـ) ج1، مراجعة إبراهيم الإبياري، دار المعرفة-القاهرة، ط1،1380هـ/1961م.

البواغنة، لؤي:

2- دور العلماء المسلمين في مقاومة الغزو الفر نجي (الصليبي) للمشرق الإسلامي(490-648هـ/1097-1250م) دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع- الأردن.

البقلي، محمد قنديل

3- التعريف بمصطلحات صُبح الأعشى، الهيئة المصرية العامة للكتاب- مصر، 1403هـ/ 1983م.

الحاج، فوزي إبراهيم:

4- معجم محمود درويش(هكذا تكلم محمود درويش) مكتبة ومطبعة الأزهر-غزة، ط1، 1432هـ/ 2011م.

الحايك، منذر :

5- العلاقات الدولية في عصر الحروب الصليبية، الأوائل للنشر والتوزيع- دمشق، ج2، ط1، 1427هـ/ 2006م.

حسين، حمدي:

6- دراسات في تاريخ الأيوبيين والمماليك، دار المعرفة الجامعية- القاهرة، 1419هـ/ 1998م.

حسين، محسن محمد:

7- الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين (تركيبه، تنظيمه، أسلحته، بحريته، وأبرز المعارك التي خاضها) دار ئاراس للطباعة والنشر- العراق، 1424هـ/ 2003م.

حلاق، حسان وعباس، صباغ :

8- المعجم الجامع للمصطلحات الأيوبية والمملوكية والعثمانية، دار العلم للملايين- بيروت، ط1،1420هـ/ 1999م.

الحياري، مصطفى :

9- صلاح الدين القائد وعصره، دار الغرب الإسلامي- تونس،1414هـ/ 1994م.

الخضري، محمد :

10- الدولة العباسية ، تحقيق إبراهيم أمين محمد، المكتبة التوفيقية.

أبو خليل، شوقي:

11- الحروب الصليبية أسبابها، أحداثها، نهايتها، دار الفكر- دمشق، ط1،1430هـ/ 2009م.

الدباغ، مصطفى:

12- القبائل العربية وسلائلها في بلادنا فلسطين، منشورات اليسار، ط3،1408هـ/ 1988م.

الدجاني، هادية راغب:

13- القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني العسقلاني(526-596هـ/1131-1199م) دوره التخطيطي في دولة صلاح الدين وفتوحاته، مؤسسة الدراسات الفلسطينية - بيروت، ط1،1413هـ/ 1993م.

رضا، أحمد:

14- معجم متن اللغة (موسوعة لغوية حديثة) دار مكتبة الحياة- بيروت، 1379هـ/ 1960م.

زكار، سهيل:

15- حطين مسيرة التحرير من دمشق إلى القدس، دار حسان- دمشق، ط1،1404هـ/ 1984م.

الزيَّات، أحمد حسن :

16- تاريخ الأدب العربي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر- القاهرة.

شراب، محمد حسن :

17- معجم بلدان فلسطين، الأهلية للنشر والتوزيع- عمان، ط2،1421هـ/ 2000م.

الشيخ، محمد محمد مرسي :

18- تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، ط3،1419هـ/ 1998م.

الصلابي، علي محمد:

19- صلاح الدين الأيوبي وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية وتحرير بيت المقدس،ت دار المعرفة، بيروت- لبنان، ط1، 1429هـ/ 2008م.

صالحة، محمود:

20- المجدل- عسقلان تاريخ وحضارة، منشورات المركز القومي للدراسات والتوثيق- غزة، ط1،1420هـ/ 1999م.

طقوش، محمد سهيل:

21- تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام وإقليم الجزيرة (569-661هـ/1174-1263م) دار النفائس- بيروت، ط1،1420هـ/ 1999م.

22- تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، دار النفائس- القاهرة 2001م.

23- تاريخ الفاطميين في شمال إفريقية ومصر وبلاد الشام(297- 567هـ/ 910-1171م)، دار النفائس- القاهرة، ط1،1422هـ/ 2001م.

عاشور، سعيد عبد الفتاح:

24- الحركة الصليبية صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد الإسلامي،ج2، مكتبة الأنجلو المصرية-القاهرة،1420هـ/ 1999م.

عاشور، فايد حماد محمد:

25- الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في العصر الأيوبي، دار الاعتصام- القاهرة، ط1.

العبادي، أحمد مختار:

26- في تاريخ الأيوبيين والمماليك، دار النهضة العربية- بيروت،1416هـ/ 1995م.

عبد الله، يسري عبد الغني:

27- معجم المؤرخين المسلمين، دار الكتب العلمية- بيروت.

العدناني، محمد :

28- معجم الأغلاط اللغوية المعاصرة، مكتبة لبنان- بيروت، ط1،1404هـ/ 1984م.

العدوان، ماجد محمد:

29- موسوعة بلدان العالم، دار عالم الثقافة للنشر والتوزيع- الأردن،، ط1،1422هـ/ 2001م.

عطا، زبيدة :

30- الشرق الإسلامي والدولة البيزنطية زمن الأيوبيين، دار الأمين- دمشق، ط2، 1414هـ/ 1994م.

عمران، محمود سعيد :

31- معالم تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، دار المعرفة الجامعية- القاهرة،1419هـ/ 1998م.

غنيم، أسمت:

32- الدولة الأيوبية والصليبيون، دار المعرفة الجامعية- الإسكندرية،1410هـ/1990م.

ماجد، عبد المنعم:

33- الدولة الأيوبية في تاريخ مصر الإسلامية، دار الفكر العربي- القاهرة، ط2، 1418هـ/ 1997م.

المحامي، محمد فريد بك :

101- تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق إحسان حقي، دار النفائس- بيروت، ط5، 1406هـ/ 1986م.

نوري، دريد عبد القادر :

34- سياسة صلاح الدين الأيوبي في بلاد مصر والشام والجزيرة، مطبعة الإرشاد- بغداد،1396هـ/ 1976م.

يحيي، فوزي أمين، حميدة، فتحي سالم:

35- تاريخ الدولة العباسية (العصر العباسي الثاني 222- 656هـ/840- 1258م) ج2، دار الفكر ناشرون وموزعون- الأردن، ط1،1431هـ/ 2010م.

مؤلف مجهول :

36- المعجم الوسيط، ج1، مجمع اللغة العربية، ط3، 1405هـ/ 1985م.

37- المعجم الوسيط، ج2، إخراج إبراهيم أنيس وآخرون، ط2.

سادساً : المصادر والمراجع الأجنبية المعربة

أمبرويز:

1- صليبية ريتشارد قلب الأسد، ترجمة سهيل زكار، الموسوعة الشاملة في الحروب الصليبية، ج32، دار الفكر- بيروت،1421هـ/2000م.

الصوري، وليم:

2- الحروب الصليبية، 4ج، ترجمة حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب- مصر، 1416هـ/ 1995م.

مؤلف مجهول:

3- الحرب الصليبية الثالثة صلاح الدين وريتشارد،2ج، تحقيق وليم ستابز،ترجمة حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب- القاهرة،1421هـ/ 2000م.

رنسيمان، ستيفن:

4- تاريخ الحروب الصليبية، 3ج ، ترجمة السيد الباز العريني، دار الثقافة- بيروت، ط2،1400هـ/1980م.

شاندرو، ألبير:

5- صلاح الدين الأيوبي البطل الأنقى في الإسلام، ترجمة سعيد أبو الحسن، دار طلاس- دمشق، ط1،1413هـ/ 1993م.

كروسيه، رنيه:

6- الحروب الصليبية صراع الشرق والغرب، ترجمة أحمد إيبش، دار قتيبة- دمشق، ط2، 1425هـ/ 2004م.

سابعاً : الدوريات العربية

الأشهب، رشدي:

1- القاضي الفاضل، مجلة الفجر الأدبي، العدد 18- القدس،1402 هـ/1982م.

أبو محمد :

2- القاضي الفاضل، مجلة فلسطين المسلمة، العدد 2، 1407هـ/1987م.

ثامناً : الرسائل الجامعية

1- **ثابت، طالب مسعود :**

القاضي الفاضل(حياته وأدبه) رسالة ماجستير غير منشورة، إشراف الدكتور سعد عبد المقصود ظلام، جامعة الأزهر- غزة، فلسطين، 1404هـ/1984م.

Abstract

This research tackles the political letters of the Virtuous Judge (Abdulrahim El Asqalani), as being scattered inside other resources or being manuscripts need hard work to be approved and spread. What makes this research very important is that the Virtuous Judge was a minister, a consultant and an assistant for Salahuddin Al Ayyubi in managing the affairs of the country. Therefore, such letters, which were written under the name of Salahuddin and delivered to many directions, are major resources document that period. Moreover, the letters are a contemporary historical documented record about Salahuddin's autobiography and the Crusades.

The research includes a chapter about the life of Al Asqalani and his scholarly position. Meanwhile, the second chapter talks about the Judge's letters about his role in achieving the Arab unity among Egypt, Levant and Mosul and it has accurate and plentiful details and information about the areas that Salahuddin joint and the efforts he exerted to do so. The aim of that join was to unite Muslims to face the Crusaders. On the other hand, the third chapter discusses Salahuddin's role in fighting the Crusaders. The letters of this chapter are records for Salahuddin's battles against Crusaders, the cities that he liberated, mainly Jerusalem and the high spirit Salahuddin had in dealing with Crusader prisoners. The chapter also highlights on remarkable milestones such as; Battle of Hattin, siege of Acre and its fall and Al Ramla Truce.

The letters of the Virtuous Judge are marked by their literary style, and this made them difficult to be understood. However, this does not lessen their historical value, especially that the judge is distinguished with lots of information that were not mentioned in other resources, besides being a participant in the actions and battles on the ground, not an ordinary eyewitness as other historians.